أحمد القرملاوي

التدوينة الأخيرة

رواية

الدار المصرية اللبنانية

التدوينة الأخيرة

القرملاوي، أحمد.
التدوينة الأخيرة: رواية / أحمد القرملاوي .- ط1.
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
320 ص؛ 20 سم.
تدمك: 4 - 916 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان 813
رقم الإيداع: 14066 /2014

©
الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: شوال 1435 هـ - أغسطس 2014م

أحمد القرملاوي

التدوينة الأخيرة



الدار المصرية اللبنانية

إهداء التدوينة

إلى الجنة الغارقة في الضباب والأوهام، أُهدي قصَّتي..

كي ينكشف الضباب، وتنجلي الأوهام..

عايش أحداثها:

ماهيزو: الكاهن المُعلِّم

تيها: تلميذة الكاهن ماهيزو ومعاونته

شابي: تلميذ الكاهن ماهيزو، من طبقة النبلاء

أناهيا: زوجة الكاهن ماهيزو

توهاما: والدة تيها

تيبويا: خالة تيها

إيماهو: ابن خالة تيها

كواتو: من النبلاء والأعيان

يابيتو: خادم الكاهن ماهيزو

دانيبو: خادم شابي

ميلزو: تلميذ الكاهن ماهيزو، من طبقة الدوارج، يعمل حدّادًا

بنتو: تلميذ الكاهن ماهيزو، من طبقة الدوارج، يعمل صانع سلال

تيها تستيقظ

أحمر.. أزرق.. أخضر..

أحمر.. أصفر.. أحمر..

أحمر.. أخضر.. امـمـم..

أظنها التاسعة صباحًا، أو ربما العاشرة..

أحب التأخر في الاستيقاظ، ولا أحتسب من أيام حياتي إلا تلك التي لا توقظني فيها أمي.. تتركني أفيق وقتما يشبع جسدي ويرتوي خيالي من ينابيع الأحلام.. امـمـم.. عندها، يستسلم كياني لمداعبة أشعة الشمس الملونة على حائط غرفتي، وملاءة سريري، ونشارة خشب الورد التي تكسو أرضية غرفتي..

لا يملك أحد من سكان الفردوس مثل هذا الشباك، الذي يتوسط السقف المائل في غرفتي الصغيرة، الدافئة. إنه أغلى ما أملك من عطايا المولى وليِّ النعمة. كنت قد تمنَّيْتُ أن أتلذَّذ بمشاهدة قوس الضياء

الملون، الذي يسكبه المولى عندما يسبغ على أرض الفردوس نعمة رضاه، ويجزل لسكانها العطاء.. فلم أرَه طيلة حياتي سوى مرتين في زمن الطفولة البعيد، الذي لا أحتفظ من مشاهده إلا بصورة مهتزة.. صورة كتلك التي تطالعني وأنا أبحث عن شيء فقدته أسفل سطح الماء.. أما الآن فقد من عليَّ المولى بكِسارات من قوسه الملون تفترش أسطح غرفتي كل صباح. تتبدل ألوانها كل حين، وتمتزج أشكالها في تلون بديع، تموج فيه جميع الألوان الدافئة في رقصة مستمرة طوال ساعات النهار، بين أحمر وأصفر وأخضر وأزرق.. أترقبها لحظة بلحظة، حتى صرت أدرك الوقت من مزيج الألوان البهيجة الذي يزخرف غرفتي الصغيرة.

الشباك الفريد ليس مِلكًا لي وحدي، وإن ازدانت به غرفتي؛ فهو صنيعة أحب أهل الفردوس إلى قلبي.. أستاذي ومعلمي ماهيزو – أبي في الوجدان والروح – صنعه بعلمه الرحيب وإلهامه المتقد.. وحبيبي وغاية أملي ورفيق روحي شابي، صنعه بيديه الناعمتيْن ومشاعره الدافقة..

سألت معلمي يومًا أن يسأل المولى أن يريني قوسه الملون الباهر، الذي لم تحتفظ ذاكرة الطفولة بصورته، فأجابني بأن المولى مجيب الدعاء لم يعُد يستجيب لمناجاته! ولكنه سرعان ما نفض عن وجهي غبار اليأس في اليوم التالي، بأن وعدني أن يزخرف غرفتي بما يتناثر على الأرض من بقايا دفقات القوس الملون كل صباح.

سألته ذاهلة عن مكان تلك البقايا!

أجابني باسمًا أن الأمر ليس كذلك، وأن القوس الملون يكمُن في أشعة الشمس الدافئة طوال الوقت، ولكننا لا نراه.. ومن أسراره أن بإمكاننا استخلاص ألوانه الحانية من أشعة شمس الصباح، إذا امتلكنا المعرفة!

ثم طلب مني استدعاء شابي الحبيب لصنع مصفاة تستخلص ألوان القوس من أشعة الشمس، فعكفتُ مع شابي على تنفيذ ما أرشدنا إليه الكاهن المعلم، حتى صنعنا شباكًا لا مثيل له في فردوسنا البديعة..

فككنا الشباك الخشبي المثبت في سقف غرفتي المائل، ونزعنا من داخله أعواد الخيزران الدقيقة، ثم ملأنا فراغه الداخلي الذي أحدثناه بطين الفخار، وغرسنا في الطين كِسارات متباينة الحجم والسُّمك من الزجاج، ثم أفرغنا ما ظلَّ ملتصقًا بقطع الزجاج من طين الفخار، حتى شفَّت قطع الزجاج عمَّا وراءها من ضوء..

تركنا الشباك حتى جف الطين، فلما رجعنا إليه رفعناه قليلًا عن الأرض، فأذهلنا ما افترش وراءه على صخور شاطئ بحيرة توهايا من ألوان متباينة! فإذا بنا نحمل الشباك معًا ونتلاعب به في الهواء تحت دفقات أشعة الشمس الرهيفة، تعبر سطح الشباك فتحيلها قطع الزجاج المختلفة إلى قصاصات متناثرة من القطن الملون، بألوان القوس البهيج، فوق أسطح الصخور الخشنة والرمال الملساء..

دفعتنا النشوة بيديْها العابثتيْن، فارتمينا على رمال شاطئ توهايا متحسسين آثار القوس المتكسر، حتى التقت راحتانا في احتضان حميم وسعادة تامة..

هييه يا أيامنا السعيدة.. هلّا تُعيدين إليّ حبيبي، خالصًا من أدران الضيق والحسابات المعقّدة..

هييه يا معلمي النبيل..

تُرى كيف حالك الآن؟!

شابي يستعد

هييه أيها المولى..

سبوح أنت في عليائك.. قدوس أنت في صفاتك..

هييه أيها المولى..

يا مقسم الأرزاق، يا مبعث الضياء، يا مكمن البهجة..

هييه أيها المولى..

يا من أسكنت عبدك الفردوس..

لا تحرم عبدك العطاء..

* * *

هذا يوم بهيج، ما في ذلك شك.

يسعد فيه النبلاء والعوام على السواء. لا أذكر أيامًا أسعد من هذه الأيام. يطول بي الانتظار في الأشهر الستة الأولى من العام حتى يحين

عيد الرجوع الأول، ثم أنتظر ستة أشهر أخرى حتى يحل العيد من جديد، ثم ستة أخيرة حتى يحين العيد الأخير، مع نهاية عام وحلول آخر.

ولكن العيد بالنسبة لي يمتد لشهرين، على الأقل، بعد كل رجوع حميد، عامر بالعطايا والخيرات؛ حيث لا أنتهي من بيع ما تحصَّلَت عليه عائلتي من طيبات النعم قبل أربعين يومًا، عقب كل عيد.

التجارة حياتي.. هي خزانة سعادتي؛ فلك الحمد أيها المولى أن جعلتني من النبلاء، ولك الشكر يا جدي الأكبر يا من أُسكِنْتَ الفردوس في تلك المكانة الكريمة، فتفضلْتَ بصالح عملك على جميع ذريتك من بعدك، أن جعلتهم من النبلاء إلى أبد الآبدين. لن أنسى لك هذا الصنيع ما حييت، وليس أقل من تذكرك وشكرك على معروفك في مثل هذا اليوم البهيج.

عليَّ الإسراع في إعداد نفسي على أفضل هيئة؛ حتى أكون أول المستقبلين لموكب الكهان المبجلين عند رجوعهم الحميد إلى أرض الفردوس، بعدما تفقدوا، خلال رحلتهم، أحوال أهل الأرض من العصاة والمحرومين من الرحمات.

منذ أكثر من يومين وسفنهم تتأرجح فوق سطح الماء على مقربة من الشاطئ، والشعب ينظر إليها بشغف ويترقب دنوها نحو الشاطئ. تعلو أصوات العوام بالأناشيد البهيجة في انتظار يوم العيد، وتتلاعب الأحلام والآمال بالكبار والصغار بما سوف ينعم به الكهان عليهم عند قدومهم إلى الشاطئ الصاخب بالأناشيد ونقر الطبول.

أنا أيضًا أسير أحلامي الكبيرة، وأتوق إلى استجابة المولى العلي إلى مناجاتي المُلِحة..

في العيد الماضي، وعدني كبير المدونين بنصيب أوفر من العطايا في العيد القادم، وها قد قدِمَ العيد القادم وأوشك على مفاجأتي بما أتمنى، فلا تخذلني أيها المولى الكريم، وتفضل عليَّ كما تفضلت على جدي الأكبر، أول ساكني الفردوس من عائلة بتاتشي النبيلة.

لم أدخر جهدًا لإعداد نفسي في أفضل هيئة لهذا اليوم الفريد. أعددْتُ نثرًا وقورًا في مديح المولى العليِّ وتعظيم كهنة المعبد ورحلتهم المباركة، كي أُلقيه على مسامع الكهان المبجلين بعد فراغ العوام من صخبهم وفرحهم المعتاد. كذلك أمرت رئيسة الجواري أن تجهز سبع سلال من شطائر العيد المعطرة بالزعفران وخلاصة الزهور والمكسوة بالفواكه والعسل البري، مما يأسر فؤاد كبير المدونين ويُكسِب عائلة بتاتشي مزيدًا من رضاه ووِدِّه.

أعددْتُ كذلك رداءً جديدًا كما هو حالي في كل عيد للرجوع.. رداء من الفرو الأملس المصبوغ بشتى الألوان البهيجة، مؤطر حول الكتفين وأسفل الركبتين بالريش الملون والأصداف اللامعة. أما غطاء رأسي فزيَّنتُه بالخيوط الذهبية وأقراص العاج المنحوتة، والريشات الثلاث النادرة التي أهدتنيها تيها في يوم ميلادي الفائت. سيعجبك ذلك بلا شك، تيها الحبيبة.

تيها مالكة القلب، رفيقة الصبا وحبيبة الشباب وزوجة الأيام البهيجة المقبلة المباركة. تحب الألوان الزاهية، كغيرها من فتيات الفردوس، وأنا أسعد لسعادتها. سأمتلئ فخارًا وأزداد توهجًا وأنا أتخذ مكانًا مرموقًا وسط النبلاء في استقبال أصحاب العظمة والوقار من الكهان، بينما تنظر هي إليَّ من فوق المصطبة الأدنى بإعجابها الطازج وانبهارها المتجدد.

ياالتلك اللحظات السعيدة..

أشعر عندها بأنني فارسها الأسطوري، ومالك قلبها الأبدي، وحلمها الذي يكاد يتحقق. هي كذلك حلم صباي وشبابي وأثمن ما أتمنى من عطايا المولى العليِّ، فلا تكتمل سعادتي إلا بها، ولا يأنس قلبي إلا إليها..

هي ليست كغيرها من فتيات الفردوس في شيء، إلا ولعها بالألوان الزاهية. وجودها مفعم بالحيوية والدفء على الدوام، وخيالها يقفز بي فوق الجبال وعبر البحيرات. لا تكف عن الاندهاش، ولا تمل التأرجح بين الواقع والخيال. كثيرًا ما تُضنيني مفارقتها الواقع، ولكنها بالتأكيد مما يميزها ويجعلها ليست كمثيلاتها من الفتيات. هي أجمل منهن بالطبع. بل هي أجمل الكائنات على الإطلاق! صنعها المولى قطعة من الجمال الخالص، تأنس إليها جميع المخلوقات.

أصاب أبواها حين سمَّياها تيها؛ فهي «فريدة» بالفعل في كل شيء.

وجهها الصافي كصفحة ماء بحيرة توهايا، وعيناها الواسعتان في وسن جذاب تغفوان تحت أهدابهما الطويلة الكثيفة كسعف النخيل، وتلمعان براقتين كالمرآة، تعكسان كل جمال الكون إذا أدهشها شيء، أو حلقت بخيالها خاطرة مفاجئة. كتفاها المقوَّستان في خجل عذري دائم تكسوهما شلالات شعرها المنسدل بلا ضابط تتوق إلى ملامسة كل أطراف جسدها الباهر. قوامها ليس كقوام البشر.. هي مزيج من رشاقة الكائنات الهائمة في البراري، واستدارة ثمار الفاكهة وطراوتها. نضجت ثمارها قبل مثيلاتها بسنوات، ولم يفتر انبهاري بها منذ حلّت أشواق الرجولة مكان أحلام الصبا.

ستمتلئين فخارًا بحبيبك اليوم، تيها.. ستشاهدينه في أجمل هندام، يقف بين الكبراء يكافئهم في العزة والبهاء.

منذ بلغتُ العشرين، في الشهر السابع عشر من العام الماضي، وأنا أتشوق لهذا اليوم، حين أقف لأول مرة بين علية القبائل، ممثلًا لعائلة بتاتشي.

كنت في الأعياد السابقة لا أتكلف في الملبس ولا في الزينة، حتى أستطيع الاختفاء بين الدوارج فوق المصطبة الوسطى لمدرج الاستقبال؛ حيث ألتقي تيها خفيةً وسط زحام المستقبلين، وأتلمَّس أناملها الملساء الدافئة بحرارة البهجة والعاطفة الجيَّاشة. كان التوتر يزيد من نشوتي وأنا

لا أكُفُّ عن الحركة والالتفات، خشية أن يلاحظني أحد أفراد عائلتي أو من يتعرف عليَّ من مستقبِلي المصطبة العليا المخصصة للنبلاء. لم يشهد عشقُنا يومًا واحدًا يسيرًا يا تيها الحبيبة، ولن يزول العسر ولن تهنأ لي حياة الفردوس حتى يمنحني المعبد تصريح زواجنا.

ولكن شابي اليوم ليس شابي الأمس؛ يتخذ مكانًا عليًّا وسط النبلاء، ويتحلى بأفخر الثياب وأرفع آيات اللباقة والكياسة. سأتحدث اليوم مباشرة إلى الكهان عظيمي الشأن، فأسبغ عليهم المديح وأجزل إليهم العطاء. سأصبح رجلًا مستقل الشأن، رفيع القدر، وسأستطيع ببركات مولانا العلي أن أحصل على تصريح الزواج، قبل حلول العيد المقبل.

لا بد أن أفعل ذلك، فلا تقلقي تيها الحبيبة.

ماهيزو يدوِّن

كوازولي 98 / 20

اليوم العشرون من الشهر السادس للعام الثامن والتسعين بعد الدينونة، وهو اليوم المتمم للشهر السادس من العام، أي اليوم المتمم للثلث الأول من العام، طبقًا للتقويم الفردوسي.

إنه يوم عيد الرجوع الأول لهذا العام.

ستتحرك السفن الآن في اتجاه الشاطئ، لترسو على ساحل الجزيرة المكلل بشتى مظاهر الفرح والبهجة المتصلة منذ ثلاثة أيام، منذ استقر أسطول السفن على مقربة من الشاطئ في انتظار تمام الشهر السادس والثلث الأول من العام.

اتخذ المعبد الكبير حلته البهية التي يزدان بها ثلاث مرات كل عام. أضيئت شعلات النيران الملونة في الفتحات المتجاورة أعلى جدران المعبد، فبدت كتاج من الأحجار المضيئة، وارتفعت الرايات الملونة تحمل ألقاب كبار الكهنة وعائلات النبلاء. فُتِحت بوابة الاحتفالات

مُستقبِلة هدايا الوجهاء والبسطاء على السواء، وأحيط الممر المؤدي إليها بباقات الزهور المبهجة وأواني الزجاج الملون المضاءة من الداخل بشعلات متراقصة. رُصَّت الأعمدة الحجرية القصيرة، ورُفعتْ أعلاها طيور الزينة الجميلة الجاثمة من طواويس وبجعات، وتناثرت أسفل منها حبات الغلال الجافة الملونة.

أشاهد شتى مظاهر الاحتفال من مجلسي المعتاد عند مقدمة السفينة الأم بعيون التذكر، كما كنت أراها في السابق مع باقي كهنة الأعياد والمراسم. كان ذلك منذ شهور، قبل أن تتم ترقيتي إلى رتبة كاهن أسفار. ترى هل تزال تعتقد أن قرار ترقيتي كان صائبًا يا سيد زولان، يا كبير الكهنة؟ لا أظن..

أراقب الشاطئ عن كثب منذ ثلاثة أيام، أمضيتُ أكثرها في النظر إلى سكان الفردوس من العوام والبسطاء، كما فعلتُ عقب الرحلة الماضية عندما رسا الأسطول في البقعة نفسها على مقربة من الشاطئ.

في المرة السابقة، كنت ذاهلًا بحق؛ فقد كانت أولى تجاربي في مفارقة الجزيرة والعودة إليها. أما اليوم، فأنا أكثر صبرًا على فراقها وقدرةً على تأملها.

أرى العوام كما لم أرَهم في المرة السابقة. هؤلاء هم من يجعلون الجزيرة فردوسًا بحق. هم الطبيعة والبكارة، والخصوبة والنقاء، هم البداهة والعمل، العرق المنساب والأيدي الخشنة تسطرها أخاديد الزمن والشقاء، هم القلوب الدافئة، العامرة بالإيمان الصافي والعرفان الصادق،

يسعدون لسعادة المعبد، ويغضبون لغضبه، ويهبون ما يمتلكون وما يشقَون في الحصول عليه في سبيل استيفاء حق المعبد، وهم في رضاء تام وقناعة صافية.

يستخف بي المرح وأنا أشاهدهم يمرحون ويرقصون فرحًا بالعيد، وبعطايا المولى العلي، التي لا يرجون منها إلا كل ما هو بسيط زهيد القيمة. قلَّما يتذمر أحدهم من الحرمان مما يحصل عليه النبلاء من نفائس العطايا وثقال الهبات، أو حتى ما يحصل عليه الدوارج.

من أجلكم أنتم أُحِب الفردوس ولا أطيق عنها ابتعادًا، ولا يلهمني الصبر على مفارقتها إلا طلب العلم والمعرفة اللذين حُرِمتم منهما.

يتساوى ولعي بالعوام من سكان الفردوس مع حبي العميق وانبهاري الكامن بالدوارج. إنهم بحق حجر الزاوية الذي وضعه المولى لتشييد بنيان المجتمع الفردوسي. هم الأكثر علمًا والأجزل عطاء، وهم المُطالَبون دومًا بالاشتغال بالمهن التي لا تتم نعم الفردوس إلا بها. هم المداوون والمشيدون، المعلمون والمحتسبون، هم الخازنون والمدوِّنون، المثقِّفون والمبايعون. ليس هذا فحسب، بل يؤمل منهم أيضًا، وعلى الدوام، قيامهم بالمهام الأصعب والأعلى شأنًا في حياة الفردوس؛ فيسهمون في مراقبة الأسواق وحل النزاعات واقتراح الحلول لمشكلات المياه والري والطرق، وكذلك الزواج. لولاهم ما أتيحت للعوام والدهماء حياة كريمة في ربوع الفردوس، تكفل لهم التداوي والتعلم والسكنى الحسنة. لولاهم

لانسحق العوام أسفل مواكب التجار وأصحاب مستودعات الغلال من طبقة النبلاء، لولاهم أيضًا ما أصبح النبلاء نبلاء.

لا أستطيع من مجلسي عند مقدمة السفينة الأم أن أميز الوجوه الفرِحة التي تحتفل بالعيد فوق مصاطب الاستقبال. حسبي أن أميز مجموعات كثيفة من العوام في أرديتهم القطنية البيضاء المنسدلة في بساطة فضفاضة، وهم يرقصون ويمرحون سعادة بالعيد على المصطبة الدنيا. أميز كذلك مجموعات أقل حجمًا من الدوارج فوق المصطبة الوسطى، في أرديتهم الملونة المبهجة دونما تكلُّف، وأغطية الرأس التي يرتديها أغلبهم لتقيهم حرارة شمس كوازولي.

ترتدي نساؤهم أغطية رأس مسطحة من الكتان المؤطر بحواشٍ من الأصداف الملونة والعملات النحاسية والفضية، بينما يرتدي الرجال لفافات ملونة تحيط بالجبهة معقودة خلف الأذنين، مزينة بالريش الملون وخيوط الصوف والأقراص المعدنية اللامعة.

يمكنني كذلك أن أميز بعض الدوارج الذين اندسوا بين أسراب العوام على المصطبة الدنيا، طلبًا لمزيد من اللهو والسمر والصحبة الهانئة، وهم أغلب الظن من صغار السن، خاصة من الفتيات.

أنتم رحيق الفردوس وعبقها الزكي.

لولا قانون المعبد لرسمت نفسي من الدوارج، أو ربما العوام، وما رضيت أبدًا أن أُحشر في زمرة النبلاء الذين لا شغل لهم في حياة الفردوس إلا حصاد ما يكدح الآخرون في غرسه وإنمائه.

سلَّمت طويلًا للحكمة العليا لهذا التقسيم العلي لمراتب سكان الفردوس، الذي اعتقدتُ فيه وتعلمته وعلمته طيلة حياتي، ولكنني اليوم آسف على عجزي القديم عن إدراك حكمة المولى العليّ واستيعاب حكمه.

بنيان الفردوس أُسِّس على العدل، والعدل غيمة السعادة وبذرة الرضا؛ فحيث يتحقق العدل تمطر السعادة، وأنا الآن لا أملك أن أشيح وجهي عن كثير من الوجوه البائسة رغم ابتسامتها، تعلو أجسادًا كادحة رغم ضعفها، ولا أقدر أن أنكر أمارات القلق أحيانًا، والقهر أحيانًا أخرى، في كثير من الأعين التي تحاصرها تجاعيد الزمن والكبَد الطويل.

فهل اختل ميزان العدل، أم أن حكمة العلي لا تُدرَك؟

هييه أيها المولى..

أسألك تمام الفهم وثبات العقل، وسكون النفس..

هييه أيها المولى..

أرِح بدني من عناء السهر قبل السفر، وألحقني بالحبيبة أناهيا..

تيها تتوجه إلى الاحتفال

أحب الطيور..

أينما أمشي في ربوع الفردوس أبحث عنها.. هي أكثر سكان الفردوس قربًا إلى قلبي.. اممم، بعد توهاما أمي وشابي حبيبي، وماهيزو أستاذي بالطبع! لا أدري إن كانت وُجدت في العالم قبل خلق الفردوس ودخول سكانها للحياة الأبدية أم لا، ولكنها في ظني لا يمكن أن تكون إلا كائنًا فردوسيًّا، ولا أتصور وجودها على الأرض قبل الدينونة..

عليَّ أن أسأل المعلم ماهيزو في هذا الأمر! ربما اليوم، فور هبوطه فوق مرسى الرجوع..

هلَّا أُحَلِّق يومًا مثل طير جارح يجوب السماء، لا يكاد يُرى، أو أمتطي أمواج الهواء مرتفعة فوق الأشجار، ثم هابطة إلى سطح بحيرة توهايا.. أرشف رشفة من مائها وأعود إلى الارتفاع من جديد مثل العصافير، أو ربما أسكن شجرة كثيفة الفروع متشابكة الأفرع مع حبيب رقيق مثل شابي، نقتسم قوت اليوم والأحلام الهائنة، مثل التودي الصغير..

لا دوارج ولا عوام ولا نبلاء بين الطيور! كلها تهيم في السماء وقتما تشاء، وتعود إلى أعشاشها حين تثمل بالسعادة.. اممم، ربما تكون الجوارح من النبلاء، والعصافير من الدوارج!

هل بذلك يكون التودي الصغير من عوام الطيور؟! لا أعلم..

عليَّ ألّا أنسى أن أسأل ماهيزو المعلم عن هذه أيضًا؛ إذ ربما أصير طيرًا في يوم من الأيام، فأعرف ماذا ينتظرني!

لكنني دومًا سأظل أحب الطيور..

دائمًا ما يمازحني شابي فيقول إن سر ولعي بالطيور هو ارتداؤها أزياء ملونة! ليس هذا صحيحًا على الإطلاق؛ فأنا أهيم حبًّا بكل أنواعها، حتى تلك التي شَحُبت ألوانها كالبوم والغربان.. هل كان للبوم يومًا ريش ملون قبل أن ينتزعه البشر ليزينوا به أرديتهم؟

لا أظن!

اممم، فليمزح حبيبي شابي كما يروق له؛ فهو يحب المزاح ويتوق دومًا إلى المرح..

تُرى كيف حالك الآن يا شابي في حُلتك الجديدة التي أعددتها لاحتفال اليوم؟! ترى كم من الطير أفاء عليك بريشه كي ترفل في رداء البهجة والترف بين صفوف النبلاء! لا شك أنك سعيد، وأنا سعيدة لذلك، حتى إن لم ألقَك اليوم على مصطبة الدوارج كالمعتاد.. وددتُ

لو أحزنَك ذلك بقدر ما أحزنني! بقدر ما يسعدك وقوفك بين النبلاء ممثلًا لعائلتك النبيلة في تقديم العطايا للوفد المبجل.. تلك المراسم التي لا معنى لها، ولا أظنها تُسعِد مولانا العليَّ في شيء! لكنني برغم ذلك سعيدة لسعادتك، ومتشوقة لرؤيتك في محلك الجديد. فقط أتمنى لو التقت أعيننا من بعيد، حتى أهنئك بإشارة من يدي في الهواء المفعم بالمرح!

أهديت شابي ثلاث ريشات كنت قد احتفظت بها منذ كاروتي الماضي..

أحب كاروتي، الشهر الخامس من الثلث الأخير من العام. فيه تحل على أرض الفردوس أسراب من الطيور العجيبة الباهرة، ثم ترحل وتختفي لعام آخر حتى تظهر من جديد..

حطَّ على شبَّاكي أحد هذه الطيور ذات يوم، وظل ينقر بمنقاره فوق الزجاج تارة وفوق الفخار تارة أخرى؛ فيُحدث إيقاعًا عجيبًا لأنشودة في خياله، حاولت تفسيرها، ولم أستطِع.. حين هممت بفتح الشباك لاستطلاع أمره طار فجأة، في حركة بهلوانية راقصة، بعدما أمهلني برهة قصيرة كي أراه عن قرب..

أبهرني جماله! كما أبهرتني رقصته الهوائية الماهرة!! أحمر المنقار، أزرق الريش داكنُه، يلتمع كالأصداف تحت غلالة شمس كاروتي الهادئة.. هو أبدع ما رأيتُ من الطيور.. بل إنه أكرمها على الإطلاق!

أهداني ثلاث ريشات من لباسه البديع قبل أن يودعني ويلحق بسربه، فجمعتها من فوق الشباك المائل واحتفظت بها أيامًا معدودة بداخل صندوق الأوراق الصدفيّ، ثم أهديتها شابي الحبيب يوم أتم العشرين عامًا من عمره المديد السعيد، الهانئ ببركة العليّ..

حدَّثتُ ماهيزو الحكيم، المعلم الفذ والكاهن المبجل، في هذا الأمر، فأخبرني بأن هذه الطيور البديعة من فصائل الطيور المهاجرة، وأنها تحط على أرض الفردوس خلال هجرتها السنوية، فتحمل كفايتها من الراحة والزاد.. سألته عن سبب هجرة هذه الطيور ولِمَ لا تصبح من طيور الفردوس وهي الجديرة بذلك، فأنارت وجهه بسمته الحانية، ثم قال لي:

- أنتِ فتاة ذكية تيها، ولا يَعجز عقلك عن الإتيان بأدق الأسئلة في شتى الأمور.

سعِدتُ بقوله، رغم أنني عجِبتُ لاعتقاد ماهيزو الحكيم أن هذا السؤال البسيط دقيق تصعب الإجابة عنه، بينما يراه شابي سؤالًا ساذجًا!

أجابني المعلم باقتضاب، طالبًا مني ألا أُثقل عليه بالأسئلة بعدها، وأن أطلق - إن شئتُ - العنانَ لفكري وفطرتي لكشف مزيد من أغوار الكون والحقيقة.. قال لي: إن الطيور تهاجر بحثًا عن المكان الأنسب لها ولطبيعتها، سواء أكان في أرض الفردوس أم في غيرها، وإن الفردوس جنة للإنسان، وربما لا يراها الطير والحيوان كذلك!

كان في عينيه بريق أثار دهشتي وفضولي، وكانت ابتسامته تعلو شفتيه بلا إرادة.. بل ربما حاول إخفاءها ولم يستطِع! وددتُ لو طرحت عليه مزيدًا من الأسئلة، ولكنني امتثلتُ لأمره، فكففت.. حدثتُ نفسي بأنه ربما كان الأجدر بي أن أطرح الأمر في لقائي السري مع جماعة توهو..

عندما صارحتُ شابي بحيرتي من أمر هجرة الطيور الساحرة من أرض الفردوس إلى أنحاء شتى من دنيا العصاة، نهرني كعادته:

- سيغضب منك المولى يومًا تيها، وستندمين أشد الندم. ما بالكِ أنتِ بالطيور البلهاء وهجرتها من الفردوس؟! مخلوقات غبية لا تدرك أين تتجه ولا أين تحل. لا بد أن تكون كذلك. أو ربما التصقت بها لعنات من مولانا العلي فلا يُسمح لها بالمكوث في فردوسه طويلًا. ما بالكِ أنتِ بها أو بغيرها؟! إياكِ حبيبتي والجدال حول حكمة المولى في توزيع الأرزاق. إنها من محرماته الكبرى!

قلت له: إنني لا أجادل في هذا الأمر أو في غيره في شأن الحكمة العليا!

إنه مجرد تساؤل عن حكمة الطيور، لا حكمة المولى العليِّ! يسوقها مولاها إلى فردوسه كل عام، فلا تكاد تحط فوقها أيامًا، حتى تتركها مهاجرة إلى أنحاء تظنها أفضل! هل يقتصر إدراك ما في الفردوس من نعيم على بني البشر، أم تدركه سائر المخلوقات على السواء؟!

قلت له: إن ذلك هو ما يحيِّرني!

فقام من مجلسه قرب مدخل البيت، وهشَّمَتْ خطواته الغاضبة أوراق الشجر الجافة التي احتلت المسافة التي تفصلنا وهو قادم نحوي، تُكَدِّر صفاء عينيه غضبة النبلاء:

- تيها.. كُفِّي عن ذلك وانتهي مما تبقَّى لك من طحين. انظري أمامك حتى لا تسحقي أصابعك الهشة تحت هذه الأسطوانة الرخامية الثقيلة!

أنت في أسعد أيامك اليوم شابي الحبيب.. لن تزعجك أسئلتي ولن تغضبك خواطري.. أنت أمير أرض الفردوس اليوم..

أرجو ألا تتسع الفجوة بين مصطبة النبلاء ومصطبة الدوارج في هذا اليوم الثقيل، حتى لا أعجز عن رؤية وجهك الطفولي وحلتك البهية، تلك التي أبَيتُ إلا أن تحمل بضعًا من آيات عشقي لك.. فقد سقيتُ تلك الريشات الثلاث من ينابيع القوس الملون التي تتفجر تحت شباكي كل صباح، كي تضيء فوق رأسك اليوم؛ فأراك مهما ازدحم من حولك البشر..

أحبك شابي، وسأذهب إلى احتفال اليوم من أجلك.. من أجلك أنت وحدك..

وحدك، شابي..

ماهيزو يكتب خطابًا

«أكتب هذا الخطاب لكِ أنتِ، أناهيا. من أجلك أنتِ سأتعلم البوح وأنا الذي لم أعتَد البوح قط. سامحيني إن لم أستطِع، واغفري لي عجزي إن عجزت، فكم عجزتُ وكم غفرتِ، أناهيا.

ماهيزو لم يكتب خطابًا من قبلُ؛ فطالما استظل بأحبته ولم يبتعد عن فَيئهم قط، ولكنها الترقية والمنصب الجديد الذي هبط على رأسي من حيث لا أعلم، وأبعدني عنكِ وأنتِ في أمس الحاجة إلى بقاء ماهيزو في حضرتك، وإلى خدمته المخلصة تحت قدميك الرهيفتين.

أفتقد الآن كل ما في الرجال من كبرياء، وأهجر لأجلك كل ما للكاهن من وقار واستعلاء؛ فأنا في حضرتك أناهيا، وها قد أبعدتني الأقدار عنكِ وما زلتُ أحمل الشعور نفسه، شعور التصاغر والتضاؤل أمام بهائك وجلال وجودك، الذي يملأ كياني كل حين.

لم يفتر ذاك الشعور حتى بعدما تضاءل حجمكِ وتهافتت في داخلك شعلة التوهج والحيوية، أي منذ العام قبل الماضي. لم يكن مرضك

وحدك، أناهيا الغالية، بل مرضي أنا قبلك وبعدك، ومن فوقك ومن تحتك. أتذوَّق مرارته، ويكتوي صدري بناره، ويبتلعني جوفه المظلم كلما اعتصرتكِ الآلام وعجزتُ عن مداواتك، أو إزاحة ما تقاسين من عذابات الحمَّى والأوجاع. كم حاولتِ كتم آلامكِ وكبت أناتكِ رفقًا بماهيزو العاجز، أناهيا. ولكنني ضجرت بهذا الرفق كما ضجرت بذلك المرض اللعين، منذ أن أصبح ظاهرًا والعقل قاصر عن نجدتك. كنت فظًّا في أحيان، وشاردًا في أحيان، ومبتعدًا حينما لم يجدر بي الابتعاد، فسامحيني يا حبيبتي كما سامحتني دومًا، فأنا ماهيزو المحب، الذي يتنفس عطرك في أسفاره، ويدق قلبه مع خطوات قدميك الحافيتين على الدوام، حتى في نومه.

أكتب هذا الخطاب لكِ أنتِ، ولكِ وحدك، أناهيا، وقد أوشكَت السفينة على ملامسة الشاطئ المزدان بالفرحة والحيوية. تلك الفرحة التي اغتصبها من روحك المرض، وتلك الحيوية التي فارقت جسدك إلى غير رجعة، فكيف أستقبل الفرحة والحيوية وقد حُرمتِ منهما إلى الأبد؟ ولكنها فرحة العوام التي طالما أسعدتنا معًا يا أناهيا الرؤوم؛ فلو كان لي من فرحة العيد نصيب فهو إكبار لحبك للعوام، وعطفك الدائم عليهم، فطالما تعلمتُ منكِ العطف ونهلتُ من نبع روحكِ الحنان والرأفة.

أكتب هذا الخطاب بعدما لاحت لي نجمة الأمل في التواصل معكِ يا حبيبتي من جديد؛ فمع رسو السفينة عند الشاطئ، أستعيد الرجاء

في أن أجد من يأتيكِ بخطابي بعد طول صمت وألم فراق في رحلة هداية. لم أفهم بعدُ لِمَ سمّوها رحلة الهِداية، تلك الرحلة التي أجرِّبها للمرة الثانية، وأتيقَّن مما كان بالأمس في طور الظنون، ولكن، وبعدما ترسَّخ يقيني بقواعد من المشاهدة وجذور من المعايشة، تأكد لي أنها ليست كذلك. سأعود إلى ذلك لاحقًا عندما ألقاكِ يا مداد قلبي، يا زاد روحي؛ فقدِ انقطعت بي السبل منذ رحلتُ عنكِ، ولكنني اليوم وقبل أن أنزوي في خلوة الرجوع، قبل أن أُحرَم من رؤياكِ والأنس بالنظر إلى عينيك الحانيتين، أُحرم من نعيم عبقكِ ومن تقبيل وشاح رأسك، قبل أن أُحرم شهرًا آخر، أبعث إليك بهذا الخطاب مع الخادم المخلص يابيتو، فتستأنسين بدقات قلبي التي تلت أحرفه وسطرت كلماته، حتى أنعم بلقائك بعد عشرين يومًا أخرى من الحرمان. وأعدك أن أتقدم بطلب لإعفائي من كهانة الأسفار فور دخولي المعبد الكبير، متعلِّلًا بحاجتك إلى وجودي إلى جوارِكِ. لن أقول الحقيقة، حقيقة أنني أنا المحتاج إلى وجودك إلى جواري، يا دفء الشتاء ويا قمر الليالي الساهرة».

***

سمعتُ طرقًا متعجلًا مترددًا على باب غرفتي، وأنا منكبٌّ أكتب الخطاب، كان ذلك يابيتو، خادمي الحبيب، أنيس منفاي في أسفاري الطويلة. سمحتُ له بالدخول فدخل مرتبكًا مطأطئًا رأسه الكبير، يتعثر في ثوبه كلما اهتزت السفينة.

تحدث من لغد يلتصق بصدره، فكان ما ميزتُ من كلماته:

- عذرًا أيها الكاهن الأعظم ماهيزو لمقاطعة خلوتكم، ولكن موكب الرجوع ينتظر حضوركم في شغف بالغ؛ فالسفينة على وشك الرسو.

طمأنته بأنه لا داعي للاعتذار، وأنني سألحق به على عجل. ثم أمرته أن ينتظرني خارج الغرفة حتى أفرغ من خطاب أسطره، فيطويه ويختمه بخاتمي، ثم يذهب به إلى البيت فور هبوطه على الشاطئ. نظر أسفل يدي بفرح كما لو كان الخطاب يخصه، ودعا المولى لأجلي ولأجل أناهيا وهو يتقهقر دالفًا من باب الغرفة.

عجِبتُ لأمرك يابيتو، كم أنت مخلص، كحال سواد العوام؛ تفرح لسيدك كما لا تفرح لنفسك. تسأل المولى لي ولا تسألني كي أسأله لأجلك، وأنا الكاهن الذي يقصده الناس، وأنت الخادم المحتاج. عدتُ إلى الخطاب أُتمُّه متعجلًا:

«لا بد أن أنتهي من الخطاب الآن أناهيا؛ فقد حانت لحظة الرجوع، وامتلأ وعاء البوح حتى فاض بما لم أصارحكِ به من قبلُ، بل ربما لم أحدِّث به نفسي كذلك. طابت نفسك وصح بدنك، وحلت البهجة من حولك، واستقرت النعمة في حجرك يا أحب الناس وأعطفهم على ماهيزو العاجز. أحبكِ أناهيا.

تم في كوازولي 98 / 20».

شابي يصل إلى الحفل

تتب تتب تتب تتب...

هييه أيها المولى..

ثبِّت قلب خادم معبدك شابي وأزل عنه ذلك الاضطراب المتصاعد؛ فقد تعالى صوت دقاته متجاوزًا صخب العوام!

ما بالي أزداد توترًا بهذا الشكل؟!

تُرى أين أنتِ تيها؟ لا يمكنكِ أن تكوني قد امتنعتِ عن الحضور مثلما فعلتِ في العيدين السابقيْن. لا، لا لا بد أنكِ هنا في مكانٍ ما فوق المصطبة الوسطى التي أرتقي بمحاذاتها الآن، في طريقي إلى مصطبة النبلاء.

تيها.. أين أنتِ؟!

أحتاجكِ كما لم أحتَجْكِ من قبلُ يا رفيقة أيامي. اليوم محفوف بالتوتر والانفعال، وغطاء رأسي يكاد ينزلق متهاويًا من أثر العرق.

أرجوكِ أن تظهري الآن تيها.

عليَّ أن أوجِّه تركيزي إلى شيء آخر يعبر بي تلك اللحظات.

امم..

هذا السلم المتدرج الجميل، والعقل الفذ الذي ابتدعه منحوتًا في الصخور، متجاوزًا كل الأفكار التقليدية في عمارة المرتفعات، فجعله يرتقي بالصاعد بشكل منساب مريح دونما حاجة للانحناء على كفيه كسائر المخلوقات. لا بد أن يكون من فكَّر في هذا الأمر نبيلًا من النبلاء.

منذ عشرين عامًا وأنا أجيء إلى هذا المكان المبارك، محمولًا على كتف أمي، ثم راكضًا أسفل منها، ثم بصحبة أصحابي، ثم ماشيًا بتؤدة أحاكي مشية النبلاء والكهان. لم يكن السلم موجودًا قبل نحو تسعة أعوام. أذكر أننا كنا نرتدي قفازًا من الكتان الخفيف حتى نرتقي فوق المصطبة العليا، فنخلعه بعدما يكون قد حمل أوساخًا من آثار الأقدام، ثم نتخلص منه في صندوق خشبي مخصص لهذا الغرض عند أول المصطبة العليا، تُوزَّع محتوياته على العوام بعد فراغهم من صخب العيد.

لم تكن مصطبة النبلاء بهذا الحجم في السابق، كانت أصغر حجمًا. وقد اتسعت الآن على حساب مصطبة الدوارج الوسطى، التي رُدِم جزءٌ منها لتوسعة مصطبة النبلاء بعدما ازدادت أعدادهم بالتكاثر وامتداد العمر.

مصطبة العوام لا تحتاج إلى توسعة مهما ازداد عددهم؛ فهي تقارب أرض الشاطئ التي تتسع للكثيرين منهم إذا امتلأت المصطبة عن آخرها.

أما مصطبة الدوارج فليس لها من مجال للتوسُّع. وقد يكون ذلك سببًا لعدم مجيء معظمهم للاحتفال في أيام الصخب الأولى. يحضر الدوارج قبل هبوط موكب الرجوع بقليل، شأنهم في ذلك شأن النبلاء، كي لا تؤذيهم شدة الازدحام، وربما لا يأتي العديد منهم للاحتفال بعيد الرجوع على الإطلاق.

كذلك تفعل تيها منذ فترة، رغم إلحاحي الشديد الذي يلاحقها في كل مناسبة تسبق العيد بقليل، لكنها لا تستجيب. تقول: إننا لم نعد صغيرَيْن حتى ننتهز فرص اللقاء وسط زحام البشر. كما تقول: صرنا قادرَين على إيجاد فرص للقاء حتى لو عارضنا في ذلك الكون كله. تقول: إن الأجدر بنا أن نسارع في استصدار تصريح زواج يقينا هذا التوتر، ويضع حدًّا لذاك الحرمان.

أعرف أنكِ محقة تمامًا تيها الحبيبة، وأن سعيي الحثيث قد تأخر بعض الشيء. ولكن الحياة موحشة من دونك، فلا تتأخري عني. بغيرك لا يحلو مذاق الأعياد ولا تهدأ عواصف الشوق، ولا اللهفة.

تُرى أين أنتِ الآن تيها؟

- شابي ي ي ي.. اصعد هنا شابي ي ي.. تعالَ هنا إلى جواري.

التفتُّ نحو مصدر النداء، فوجدته السيد النبيل كواتو سول ماتيهو، يقف منتفشًا بقامته القصيرة وبطنه العظيم وهيئته المهيبة، وسط زمرة من كبار النبلاء. بادرته أول ما وقع بصري على وجهه الممتلئ الجذاب:

- عيد بهيج سيد كواتو.

- عيد بهيج شابي. أي شاب رائع أنت اليوم يا شابي.. بل قل أي سيد رائع أنت!

- الروعة أهل لكم أنتم سيد كواتو.

أجال النبيل كواتو ببصره في الوجوه المحيطة به يستبين أثر الحديث عليهم، وأردف:

- جميل، جميل.. أنت رقيق كوالدتك شابي. لست فظًّا كأبيك.

ضحك ضحكة موجزة صوَّبها نحو نبيلٍ فارع الطول عن يمينه، ثم أكمل:

- يسعدني استبدالك به بالتأكيد!

السعادة الكبرى من حظي أنا سيد كواتو، عندما أنال شرف صحبتكم فوق مصطبة النبلاء.

- كم أنت مهذب شابي! ألم أقل لك: إنك رقيق كوالدتك؟ كم تمنيت أن يكون لي ولد في مثل تأدبك ولباقتك يا بني.

- لست أهلًا لهذا الشرف سيد كواتو.

قلتها وأنا أخطو آخر خطوة في اتجاهه، متجاوزًا أجسادًا ينبعث منها أرقى عطور الفردوس. مدَّ ذراعه نحوي يتسلمني من بينهم، ثم أحاطني من أسفل إبطي يدفعني ببطء..

- تعالَ شابي.. سأقدمك إلى كبار مصطبة النبلاء. لم تعد صغيرًا يا ولدي.. عليك التعرف إليهم جميعًا من جديد، بصفتك شابي المهذب ممثل عائلة بتاتشي الكريمة، وليس شابي الفتى اللطيف دائم الحركة الذي لا يمكن الإمساك به.

- كان ذلك في الماضي سيد كواتو.

- لا لا لا، لا تقُل الماضي شابي.. الماضي والحاضر متداخلان. ستتوق أحيانًا إلى العودة إلى هذا الماضي، ربما لساعة أو بعض ساعة، فلا تقُل ماضيًا. هو حال كنتَ عليه ثم تبدَّل، وربما تعود إليه لاحقًا.

- نعم سيد كواتو، أنتم محقون تمامًا.

- تعالَ معي شابي.

جُلتُ مع النبيل كواتو غير مستوعب لما حدث!

كيف هيَّأ لي المولى عبور نهر عميق بتماسيحه ونباتاته المتشعبة بهذا اليسر؟!

هييه أيها المولى!

أشكرك لنجدتي حين أحتاج إلى النجدة. فتحتَ لي بابًا للمرور إلى زمرة كبار النبلاء، دونما طَرقٍ ولا انتظار. النبيل كواتو سول ماتيهو، بعظمة مكانته ورفعة شأنه، هو مفتاح كل الأبواب. وافتقاده ممارسة الأبوة يمهِّد لي طريقًا للتقرب إليه، ويمنحني الفرصة سائغة للاستظلال بغطاء رأسه الرحيب.. لا بد أنه الغطاء الذي ألححتُ على المولى العلي في طلبه..

سأتحلى بابتسامةٍ ودودٍ وقورٍ تستقر على وجهي، وسأكتفي بكلمات قليلة متفرقة بين الحين والآخر، حتى أثبت ذاتي وسط هؤلاء الكبار والنبلاء.. سأصافحهم بتواضع لا ابتذال فيه، وسأحدثهم بلباقة دونما تكلف.. سأنتهز فرص الحديث حول التجارة وأحوالها كي أثبت جدارتي بمكانتي الجديدة.

الآن تتفتح أمامي براعم الأحلام زهورًا، وقريبًا ستثمر الزهور ثمارًا، فوق ما أملت أو تخيلت..

هييه أيها المولى..

كما أجزلتَ لي العطاء في هذه الساعة المباركة، سأجزل أنا كذلك العطاء في خدمة معبدك ورعاية فردوسك..

أشكرك.. أشكرك.

تيها تلحق بشابي

لقد اقتربتُ كثيرًا..

أكاد أرى المعبد الكبير أخيرًا.. يلوح أمامي من بعيد في إطلالته المبهجة المعتادة في أيام الأعياد.. لم أكن أدرك كم أفتقد هذا المشهد البديع! بل إنني أفتقد حتى الطريق المؤدي إليه..

كنت أسعد كثيرًا وأنا صغيرة بالسير بمحاذاة الشاطئ، حافية القدميْن، على رمال الساحل الغربي الحمراء، الدافئة.. تغوص قدماي في الرمال، فتتخلل أصابع قدميَّ في دغدغة بطيئة، حتى يسري الخدر اللذيذ من الأصابع وحتى أعلى الكعبيْن. يتخلل هواء بحر بيروتشي خصلات شعري، فيبعثره تارة ويجمعه تارة في مرح متواصل..

لا أدري أكُنت أتلذذ بالطريق إلى المعبد أكثر، أم بالوصول إليه!

أحب كل ما في الطبيعة.. دائمًا ما كنت أسعد بكل ما تقدِّمه لي، حتى كادت تنافس المعبد في قلبي. بل ربما كنت دومًا أحب الطبيعة أكثر من

المعبد! تعلمنا ونحن صغار أن الطبيعة هي أم الأشياء جميعًا، وأن المعبد هو أبٌ لكل الأشياء، دون استثناء للطبيعة؛ فهي كذلك بنت للمعبد..

لم أكن أفهم هذه التعاليم تمامًا آنذاك، ولكنني ظللت أستفسر من أستاذي الكاهن ماهيزو المعلم، حتى استبان لي الأمر..

تعاليم المعبد تقول: إن الطبيعة هي الأم التي وهبت لكل شيء خلقته وصفاته؛ الطيور والرمال، الجبال والسحاب.. أما المعبد فهو الأب الذي تنتظم بسلطته الأشياء، ومن دونه تعُم الفوضى؛ لذلك دائمًا ما اعتقدتُ، كغيري، أن الطبيعة في حاجة ماسَّة ومستمرة إلى المعبد، ومن دونه يصيبها داء الفوضى الذي لا دواء له.. إلا التزام التعاليم.

لكنني اليوم.. اممم..

أظن أن المعبد في حاجة إلى الطبيعة مثلما تحتاج الطبيعة إليه! وإلا فلِمَ يحصل المعبد على نصيبٍ من كل ما تهبه الطبيعة من الغلال والزروع والدواجن والماشية، فضلًا عن التصرف في كل عطاياها بالمنح أو بالمنع؟! وها هو المعبد اليوم قد استعان بالطبيعة كي يتخذ حلته البديعة.. شعلات نيران ملونة، قوارير زجاجية مضاءة، وطيور زينة بديعة، وأناس مبتهجون.. فهل كان المعبد سيظهر في هذه الحُلَّة البهية لولا عطايا الطبيعة؟!

لكل موضع أكثر من سبيل، إلا المعبد؛ فله طريق واحد..

كي تصل إلى المعبد، لا بد أن تسير مسافة نصف نهار بمحاذاة شاطئ بيروتشي، بين البحر والجبل، في سبيل أوسع ما فيه لا يتسع لأكثر من عشرين رجلًا متجاورين.. لا تمر بشيء سوى الصخور والأصداف المتناثرة، وبعض أوكار مخلوقات الشاطئ، حتى تجاوز مرسى الرجوع بمصاطبه الثلاث، والسلم المتدرج الذي يحتضنها، وصولًا إلى الممر الحجري المؤدي إلى بوابة الاستقبال، التي تصير بوابة الاحتفالات في أيام العيد..

للمعبد عدة بوابات، لا نراها إلا من الداخل.. ولا نعلم أي السبل تفضي إليها! كنا إذا سألنا عنها لا نُجاب إلا بأن المعبد ليس له إلا سبيل واحد، وهو المؤدي إلى بوابة الاستقبال.. أذكر أن الكاهن المبجل ماهيزو الحكيم تفضل عليَّ بإجابة مختلفة ذات يوم، ولكنه أوصاني ألا أُحَدِّث أحدًا بها؛ فهي تخصني وحدي! كان كثيرًا ما يكرِّر عليَّ أن الإجابات قد تنفع البعض وتضر البعض الآخر..

قال لي: إن للمعبد بوابات عدة، وكذلك سبل متعددة، ولكن السبل ترسمها الحاجات والغايات، فطالما انحصرت الغايات بين التعبد والاحتفال؛ فالسبيل واحد، وهو بوابة الاستقبال والاحتفالات.. ولكن إذا اختلفت الحاجات والغايات، فربما تتغير السبل! ولذلك جُعِلت البوابات الأخرى للخواص من الناس!

سألته: من هؤلاء الخواص من الناس؟ فلم يُجِب! ولكنه قال لي إنه يتمنى أن أُصبِحَ يومًا في زمرة هؤلاء الخواص، فأدخل المعبد دخولًا لا يعرفه العوام من البشر، بل ربما لم يعرفه أحد من قبلُ!

لمَّا أثقلتُ عليه بسؤال جديد عن كيفية ذلك، أشار بيديه الحانيتين إشارته المعتادة عندما يرغب في العودة إلى خلوته.. أطعتُه ساعتها كما أطيعُه دومًا، رغم أنني لو أعَدْتُ عليه السؤال لأجابني..

ليتني أعدتُ عليه السؤال!

تُرى هل ستُصبِح من خواص البشر منذ اليوم شابي الحبيب؟!

أكاد أتعثر فوق السلم الحجري المتدرج، وأنا أرتقيه في سبيلي إلى مصطبة الدوارج.. لا أكاد أنظر أسفل مني؛ فأنا أبحث عنك كرضيع يبحث عن نعلَي أمِّه بين الأقدام المتزاحمة!

تُرى هل ستنتظرني فوق مصطبة الدوارج قبل أن تلحق بمصطبة النبلاء التي تنتظرك، أم يمنعك رداؤك الفخم عن الانخراط وسط الدوارج اليوم، حتى لا تلفت الأنظار؟!

أتمنى أن يحيطك المولى برعايته دومًا، شابي..

ولكنني لا أجد صبرًا على فراقك، شابي الحبيب!

ماهيزو في موكب الرجوع

طوبى لكِ قدمي وأنتِ تطئين ثانية أرض الفردوس. أرض الوطن غالية، كانت فردوسًا أم لم تكن. الوطن ساحة النضال، ومهبط الرجاء، وصندوق الذكريات. كم أحب هذه الفردوس، وكم أهوى جلبة سكانها ودفء حكاياتهم وأُنس أناشيدهم. تطرب أذناي لموجات الأهازيج، وتستجيب دقات قلبي لإيقاع الطبول. تتراقص فوق بساط خيالي مشاهد من الطفولة والصبا والشباب، ثم الرجولة، فالشيخوخة التي أخطو أولى خطواتي فوق دربها الهادئ، المحفوف بالأشجار الوارفة. تتهادى أمام عينيّ لقطات من مرح العوام وترقُّب النبلاء وانحصار الدوارج بين أولئك وهؤلاء.

أمُرُّ أمام صفوف المستقبلين فوق المصطبة الأولى، فأتلقى القبلات وأُرشَق بالورود. النبلاء يقبّلون الكتف، والدوارج ينحنون لتقبيل اليد، أما العوام فيجثون على الأرض لتقبيل أسفل الرداء.

تأنف نفسي هذه الطقوس، لكنني أجد فيها سببًا لمزيد من محبة هؤلاء البشر. نعم أحبهم، ولكنني لا أملك من أمرهم شيئًا. لا أدري

إن كنت أحاول إنقاذهم بما أنتويه، أم أنني أهدم فوق رؤوسهم معبد الطمأنينة والرضا.

عمدتُ طيلة سنوات عمري إلى أن أسطر مخلصًا تعاليم المعبد على صفحات قلوبهم، وها أنا ذا وقد انتويت أن أمضي ما تبقى لي من أيام العمر أمحو ما سطرته، بالإخلاص نفسه، فهل أستطيع؟ ليس من المحاولة بُدٌّ؛ فأنا أحبهم وأحب أرض الفردوس، ولا فكاك من محاولة الإصلاح. نعم، لا مهرب..

زهرة الفردوس العدل، فإن لم نجد عدلًا فلا فردوس ولا دين، فهل من سبيلٍ للإصلاح؟

بذرتُ بذرة الشك في قلوب الحيارى، ورويتُها من ينابيع التأمل والتمحيص، ورعيتُها في وعاء الجدال والمناظرة، فهل تزهر القلوب وعيًا ورفضًا لكل ما هو ثابت، غير قابل للجدل؟

كم أشتاق إليكم يا أبناء جماعة توهو..

بنتو صانع السلال والحبال.. عنيد، قوي الحجة، حاد القسمات والآراء معًا.

ميلزو الحداد.. شديد البِنية، ضخم الجسم، مرتفع الصوت، متقلب المزاج والأفكار.

تيها عصفورة الفردوس، آية المولى في الجمال ونقاء السريرة.

ودونهم العديد من شباب وفتيات الدوارج والعوام.

أحبكم أبنائي، وأسأل المولى العليّ ليل نهار ألا تيأسوا مما أقسمنا معًا على المُضي فيه، فربما نجدُ فيه الدواء الشافي والأمل الهادي لهذه الجزيرة الغارقة في الأوهام والضلالات.

بنتو كان أول من فتح المحارة واستخرج من جوفها تلك اللؤلؤة المستحيلة، التي ما ظننتُ أن أجدها يومًا.. فاجأ الجمع يومًا بسؤاله.. جذبَهُ من نقاش عابر حول العدل، كما يَشُدُّ الحبلَ حول أعواد الخيزران، وبذات العنفوان والحدة الراسخة في صوته كالنقش..

- يا معلم.. تحدِّثنا كثيرًا عن العدل.. تقول: إن جوهر الفردوس في تحقق العدل بين أبنائها.. فأين من جمعنا ذلك العدل؟

ونظر إلى زملائه من حوله.

- ألا ترى العدل متحققًا في فردوسنا يا ولدي؟

سألته متلقفًا هدرته المفاجئة، فلم يمنحني وقتًا كي أتابع..

- سيدي الكاهن، النبلاء نجدهم يرفلون في أثواب النعمة الرخوة، ثم يأتي بعضهم بأفعال لا يرتضيها المولى المُنعم، بينما تنغرس أقدام العوام في أوحال البؤس والمشقة، مهما تدرعوا بالصبر والرضا بالمشيئة العليا.

أدركتُ ما يرمي إليه، فبادرته:

- المذنب يلقى جزاءه يا بني.. وتبلغ عقوبة معظم الآثام حد الإبعاد من الفردوس.. أليس في ذلك الكفاية؟

استَلَّ ميلزو صوته الجهوري، متحفزًا للمشاركة في هذه المبارزة الاستعراضية:

- وهل تبعَد حينها الذُّرية كذلك سيدي الكاهن؟

اتجهَتْ إليه الأبصار، بينما هو يعبر بين الأجساد ويجثو أسفل مقعدي.

أردف قائلًا:

- ألا يتقلب هؤلاء فوق وسائد النعمة، نتيجة لدخول أسلافهم هذه الفردوس في مراتب المقربين، الذين حسن عملهم واكتمل إيمانهم، بينما نبقى نحن في دار الشقاء والهوان بسبب نقائص أسلافنا ومرورهم العسير من الدينونة؟ فلِمَ لا تنتقل الذرية كذلك من حال إلى حال بأفعال آبائهم وأجدادهم من الأجيال اللاحقة للرعيل الأول من سكان الفردوس؟!

لم أملك إجابة في جرابي، فبعثرت كلمات لا رابط بينها:

ليس في فردوسكم شقاء ولا هوان يا بني.. وحكمة المولى لا يحيط بها إلا كل مجتهد مخلص في بحثه عن الحقائق والأسرار.

امتطى بنتو جواد حماسه من جديد، وانطلق به نحوي مقتربًا:

- وفيمَ أبحث يا معلم؟ وأين؟ هل تكمن حكمة المولى العلي حيث يصعب الوصول إليها؟

- بل تحيط بك، بنتو، أينما ذهبت، وحيثما بحثت..

- أين أبحث سيدي المعلم؟ أرشدني!

- ادرس شريعة الحياة البعدية يا ولدي.. محِّص وتشكَّك كيفما تراءى لك. فإما أن تذهب بك الشكوك لاكتشاف ما سترته عن إدراكك التعاليم والتقاليد، وإما أن تصِل إلى اليقين الثابت الذي لا ينازعه شك.

تفكَّر لبرهة برقت فيها عيناه الحادّتان، ثم ألقى بحبله يحكِم الوثاق من حولي:

هل تشملنا برعايتك ومشورتك في هذه الرحلة المبهمة أيها الكاهن المبجل؟

- بل يعاونك ميلزو ومَن دونه من أصفيائك وقرنائك المتشككين في شرائع المعبد، والراغبين في بلوغ اليقين وكشف الأغوار، بنتو..

أشرتُ عليهم بالعمل سرًّا على تكوين جماعة توهو، فكان اختيار اسم الجماعة موفقًا كما جاء اختيار أعضائها. توهو تعني الأرق الليلي، والليل مرتع الظلمة، والظلمة مكمن المجهول.. وذلك المجهول هو ما اتحد بنتو وميلزو على كشف أغواره، وعاونتهما تيها لفترة، قبل أن ينضم إليهم آخرون.

دعوتُهم إلى العمل معًا على جمع أسباب الشك التي تؤرقهم في شريعة الحياة البعدية وقوانين المعبد، ثم تكوين فريقين للمناظرة والجدال، أحدهما يشكك في عدالة الشرائع ويدَّعي عدم عدالة التأسيس المجتمعي، وربما يقترح قوانين وتعاليم بديلة يراها أكثر عدلًا

وتحقيقًا لمراد الحياة البعدية. أما الآخر فيدافع عن الشريعة بدفوع الإيمان والتسليم للحكمة العليا. فإذا ما تغلَّب فريق على الآخر، تبادلا المواقع واستمرا في البحث والتناظر. فإن دانت الغلبة لفريق المشككين في الجولتيْن، فالشك أولى من اليقين، وإن كانت الغلبة لدعاة اليقين، فاليقين أولى، وإلا فلا غلبة لفريق على الآخر.

أمرتهم كذلك بالتدرع بالكتمان والسرية، وإلا أصابتهم رماح الاتهام ودعاوى الهرطقة.

مضى أكثر من ثلاثة أشهر، أمضيتها فوق سفينة متأرجحة تتلاطم فوق جسدها الأمواج. لا يقطع خلوتي سوى دعوات الطعام والطقوس الصباحية. لا تأنس عيناي للنوم إلا خِلسات متقطعة ومؤرَّقة. انشغلتُ أغلب الوقت فيما انشغلَتْ به جماعة توهو، وبمزيد من الحرص على السرية.

كنا قد تواعدنا على اللقاء سرًّا بعد عودتي من رحلة المعبد، ولكن هيهات. خلوة الرجوع تقطع عليَّ سبل التواصل مع الأحبة. تفرقني عن تيها وبنتو وميلزو، وتقض مضجعي بمزيد من فراق أناهيا الحبيبة.

- يا مُعلم.. يا مُعلم.

أحسستُ بمن يجذبُ يدي من الخلف وينحني لتقبيلها، وأنا ما زلت فوق مصطبة النبلاء. استدرتُ مستقبلًا الصوت، فإذا به شابي تلميذي الحبيب، دقيق القسمات.

- شابي.. أشكر المولى أن أراني فيك هذا الحال يا ولدي.

- أفتقدكم كثيرًا سيدي المعلم، وأحتاج مشورتكم وهديكم في موقفي هذا.

- أول المشورة أن النبلاء لا يقبِّلون الأيدي يا ولدي الحبيب.

استقبل كلماتي مبتسمًا، فأضحى وجهه مرآة لابتسامة نبتت في قلبي حين رأيته، ثم أردف:

سأسعى لمقابلتكم فور دخولكم المعبد، سيدي الكاهن المبجل..

- سأكون في انتظارك شابي.. ولكن بعد خلوة الرجوع.

ربَتُّ على كتفه مودعًا، فتوقف عن السير بمحاذاة الموكب الذي كنت أمشي فيه مدفوعًا..

غاص بين الأجساد كقطرة ماء سقطت في بحيرة توهايا، فتلاشت، بعدما أحدثت صخبًا مؤقتًا. لم يَفِد من ريشاته الملونة. تلاشى في نسيج النبلاء، فلم يعُد شابي دقيق القسمات، حلو اللسان والمعشر.

تُرى كيف أنتِ الآن تيها الصغيرة؟

تيها في طريق العودة

ففففـ..

ففففففففـ..

زفرة أخرى وأكون قد تخلصتُ من كل ما علق بأعماقي من تلك الرائحة النفَّاذة!

ففففـ.. ففففففففـ..

الآن يمكنني أن أملأ صدري من هواء بحر بيروتشي المتدافع.. الآن يمكنني أن أدفع رائحة الدم والموت خارج صدري، تلك الرائحة التي غمرتني منذ هبوطي من فوق المصطبة الوسطى، حتى تحِلَّ رائحة الملح والحياة مكانها.. أظن أن رائحة الذبائح النفَّاذة تلك من أسباب زهدي في المجيء إلى احتفالات العيد، رغم سمَرها وطعامها، وبهجة استقبال الكهان المبجلين فيها..

لم أُطِق يومًا هذه الرائحة، طيلة الثمانية عشر عامًا التي تنفستُ فيها عبير الفردوس. رائحة الدم.. رائحة الموت وإزهاق الروح! لا يقبل عقلي

ولا تحتمل روحي هذه الفعلة أبدًا.. قتل ساكن من سكان الفردوس! بل والتلذذ بتعريض جسده، الذي نبض بالحياة يومًا، للنيران! ثم تقطيعه وتفريقه و... وأكله و...

ومضغه و...

لا لا يقبل عقلي ما داومنا على تعلمه ونحن صغار..

«الذبح قربان للمولى العليّ.. ننال بالذبح رضا المولى وعطفه»..

بل هو كما تقول جماعة توهو: قربان لشهوة جامحة.. وسطو على الحياة!

ألسنا من دَرَجنا ونحن صغار على ما ترشدنا إليه التعاليم من حرمة تناول ما ينبض بالحياة في غير الأعياد، فلم نطعم لحمًا قط إلا في أعياد الرجوع الثلاثة من كل عام؟!

فما بالي أسمع أن الذبح وتناول اللحوم لا يقتصران في بيوت النبلاء على الأعياد وحسب؟! الذبح في بيوتهم يستمر طيلة أشهر العام على السواء!! حدثتني بذلك العمة فيرينيا والخالة تيبويا؛ فقد رأتا ذلك في قصور النبلاء الذين تعملان في خدمتهم.. حتى إيماهو، أخي في الرضاعة وابن خالتي تيبويا، أكد لي الأمر ذاته، وذكر - في أكثر من مناسبة - أنه شهد ذبح الذبائح خلف حظائر الماشية في قصور النبلاء، في غير الأعياد!

لما ذكرتُ ذلك في اجتماعي السري مع جماعة توهو، اتفقنا على سؤال المعلم ماهيزو.. وقع اختيارهم عليَّ كي أنقل إليه السؤال؛ فأنا الأقرب بين أقراني إلى المعلم. أواظب على لقائه أكثر الأيام؛ حيث أسعد بمعاونته في حافظة الكتب بالمعبد الكبير.. أرتِّب الرسائل وأصون الدواوين الجلدية، أفض رباطها وأسوِّيها، ثم أعالجها بزيت الأرجان ونشارة شجرة النارنج، ثم أعيد طيَّها وربطها من جديد كي أقيها الجفاف والتشقق..

سألته ذات مرة عن مسألة الذبح في بيوت النبلاء، وقد اتخذتُ مجلسي المفضل أسفل مقعده البديع، أتلقى منه الرسائل والدواوين الثقيلة، كي أعالجها، فبادرني بالسؤال:

- من أخبركِ بهذا الأمر يا صغيرتي؟

- هل في إخباري ما يُغضب سيدي المعلم؟!

- أبدًا تيها، إنما أستفسر منكِ وحسب..

اطمأننتُ فأجبته:

- لي خالة وعمة تعملان في قصور النبلاء سيدي المبجل، وقد حكتا لي غير مرة ما رأتاه، بلا افتراء يُغضِب المولى العليَّ.. وكذلك ابن خالتي إيماهو رأى ذلك بنفسه سيدي، أنتم تعرفون إيماهو سيدي المعلم، كان تلميذًا لكم وقت كنا صغارًا.. أتذكرون؟

رمقني المعلم، وقد تورَّد وجهه لذكري إيماهو الرقيق:

- نعم تيها، أذكره بالطبع.. ولا يزال إيماهو يُقبِلُ عليَّ كلما التقيتُهُ، فيُذكِّرني بنفسه في كل مرة، ويقبِّل يدي، وأُطمئنه كل مرة أنني أذكره. إيماهو شاب لطيف، حسن الخلق.

لم أُطِق انتظارًا، فسألته:

- أليس ما يقوله إيماهو صحيحًا سيدي؟!

- بلى يا بُنَيتي، لم يقولوا جميعًا إلا الحق.

نظرتُ إليه بإلحاح حتى يزيد، فزاد:

يحدُث ذلك حقًّا في بيوت الكثير من النبلاء، ولكنه من غير المسموح لهم أن يصرحوا بمثل هذا الأمر.

- وهل الفعل هو ما يُغضِب المولى، سيدي الكاهن، أم التصريح به؟!

- كلاهما بالطبع، ولكن غيري من كهنة المعبد يرَون أن لكلٍّ من سكان الفردوس حاجته المقدرة من التعاليم، ينهلُ منها قدر ما يحتاج.

- وهل تتبدل التعاليم وتتغير، سيدي الكاهن المبجل، وفقًا لمكانة مريدها؟

صمت مليًّا، يبحث عن ضالّة ما في وجهي، ثم أردف:

- ربما يكون الأمر كذلك بالفعل يا تيها المشاغبة.

طمأنتني دعابته.. فكنتُ قد خشيت أن أكون قد أزعجته بسؤالي لمّا طال به أمد الصمت..

تراجعتُ قليلًا حتى أتبين ما يرتاح إليه المعلم..

- سيدي المعلم.. لقد أقسمتُ على نفسي ألا أُثقل عليكم بالأسئلة.

- سلي ما شئتِ، تيها.

نسيت السؤال، فأدركني المعلم:

- تودين تذكيري بما علَّمناكم من أن أكل اللحم لا يكون إلا في الأعياد؛ حيث نتقرب بالذبائح إلى المولى العليِّ، فيتفضل علينا المولى بإطعامنا مما تقربنا به إليه.

- سيدي أعلم وأفهم.

قلتها بخجل، فأردف:

- ألا إنه لحق أننا علَّمناكم ذلك.. ولكن الكاهن الأكبر ناهويا الملهم رأى فيما يرى النائم، ذات ليلة، أن المولى يتفضل على من يمتلك الماشية بإطعامه منها، إذا ما تقرب إلى المولى بثلثها قربانًا تلتهمه النار.. فصار ذلك عُرفًا شائعًا بين النبلاء.

لاحظ في قسمات وجهي الذاهلة ما حمله على التبسم، فأكمل:

- وبعدما خلفه الكاهن الأكبر كابوهو المُفسِّر على كرسي الكهانة، اعتمد مجمع الكهان تفسيرًا آخر لرؤيا ناهويا.. فالمولى يتقبل صيام شهر واحد في العام، من ثمانية عشر شهرًا هي قوام السنة، فاستدلوا بذلك على أن أقل القليل مما يتقبله المولى العلي هو نصف التُّسع، قربانًا عن الكل..

وعمد بعدها القادرون من النبلاء إلى التقرب إلى المولى بنصف التُّسع، ثم يتقبلون ما تبقى من الذبيحة كعطية عُليا. هل أجابتكِ هذه القصة عن أسئلتك تيها، أم أنك غير راضية عن تفسير مجمع الكهان؟

وهل لي أن أجادل الكاهن الأكبر كابوهو فيما فسَّر، سيدي المعلم؟!

- لا أعلم تيها، ولكن ربما كان لجماعة توهو رأي آخر.

كان في ابتسامته المُحبَّة الصافية دليل على ما رآه مني من بلاهة الذهول.. وكان في كلماته إيذان لي أن أنقل لجماعة توهو رغبة المعلم المبجل ماهيزو في طرح الأمر للنقاش والمناظرة..

هل تتبدل تعاليم الرب؟!

هل تخضع كذلك لتفسيرات كبار الكهان؟!

هل للنبلاء ما ليس لغيرهم من سكان الفردوس؟!

وهل يبقى ما لهم سرًّا لا تحب الإرادة العليّة إفشاءه؟!

ربما كانت مشيئة المولى العلي أن يُنعِّم النبلاء من سكان فردوسه أكثر من غيرهم، لمكانة أجدادهم من الرعيل الأول من ساكني الفردوس، ولكن أن يصيبوا هذه النعمة بمزيد من إزهاق أرواح سكان آخرين، فكان ذلك ما استعصى عليَّ فهمه!

***

لما تركتُ الاحتفال هربًا من رائحة الذبح النفَّاذة، فاتتني خطبة عيد الرجوع الحميد.. ولكني أحفظها عن ظهر قلب على أي حال؛ فهي لا تتغير أبدًا، ولا تخرج عن التذكير بأنعُمِ المولى العلي على ساكني الفردوس، والتبشير برضاه عنهم، طالما التزموا تعاليم المعبد.. أما الآن، فيكفيني أن تخلصت من تلك الرائحة الشائهة، وأن أفترش صخور شاطئ بيروتشي ذات البشرة الملساء، زعفرانية اللون.. أتمدد بكُلِّيَّتي على صفحتها.. تلامس وجنتي وجنتَها الدافئة الخجلانة.. تحت غلالة شمس الأصيل..

أحب رائحة الصخور الدافئة، وأتوق دومًا لملامستها.. أشمِّر أسفل ردائي، فتختفي حوافه الموشّاة بأصداف شاطئ بيروتشي التي أهدتنيها هذه الصخور، لتزين ردائي الفضفاض.. أكشف ساقيَّ، وأحُك باطن قدمي وساقي على صفحة الصخرة الملساء، الدافئة، فتداعبني قشرتها في دغدغة لطيفة وأنا أتابع مرح طيور الشاطئ وامتطاءها أمواج الهواء المتدافع.. أستنشق الهواء المفعم بالملح وبالحيوية، فأشكر المولى على نعمه وعطاياه التي لا يضاهيها طعام، ولا تكافئها خصوصية اختص بها النبلاء..

ليتك كنتَ معي الآن يا شابي الحبيب..

لو كنتَ معي لاكتمل في حوزتي النعيم..

نتابع الطيور المرحة معًا، فتُسمِّي أجملها تيها، وأسمِّي أكثرها مرحًا شابي.. نتسابق ونتقافز حول الصخور، وفوق رمال شاطئ بيروتشي

الحمراء، الناعمة، محاكين بذلك تيها وشابي المحلقَين في الهواء المفعم بالحيوية..

أحبك شابي.. وأشتاق إليك!

لم يُنعِم عليَّ المولى برؤيتك اليوم.. ترى أين ذهبت؟! وماذا فعلت بك مصطبة النبلاء؟! لِمَ لمْ أصل إليك بعيني عشقي، مهما تزاحم من حولك البشر؟! كيف أخطأَت عيناي ريشاتي الثلاث الملوِّحة فوق رأسك الجميل؟! كيف لم أميزك بين النبلاء؟!

ليتني لم آتِ شابي، ولم أهمل اجتماع توهو..

ليتها لم تملأ صدري رائحة الذبح المنفرة تلك..

فقد مَنَّيتُ قلبي بلقائك، وشوَّقتُ عيني لرؤيتك، فلم أنعم إلا بذكراك فوق صخور شاطئ بيروتشي الزكية الدافئة..

وها أنا ذي أعود من السبيل ذاته المؤدي إلى المعبد، بين البحر والجبل..

شابي يتجه إلى المعبد

«أسعد المولى صباح الكاهن المبجل ساليزو، كبير مدوّني المعبد الكبير»..

لا..

«أسعد المولى صباح الكاهن المبجل ساليزو، كبير المدوّنين وحافظ الدواوين»..

لا

«أسعد المولى صباح سيدنا الكاهن ساليزو المبجل، كبير مدوّني المعبد وحافظ دواوين المعبد الكبير»..

«أسعد المولى صباح سيدنا الكاهن ساليزو المبجل، كبير مدوِّني المعبد وحافظ دواوين المعبد الكبير»..

نعم، هذه أفضل..

«أسعد المولى صباح سيدنا الكاهن ساليزو المبجل، كبير مدوِّني المعبد وحافظ دواوين المعبد الكبير»..

نعم، هذه..

البداية السليمة تصل بنا إلى النهاية المرجوَّة، بفضل العليّ.. لا يمكنني أن أخطئ البداية الصحيحة هذه المرة..

هييه أيها المولى..

أعِن خادم معبدك شابي على تجاوز ذلك اللقاء العصيب؛ فبعده إما نعيم الفردوس الذي أحلم به، وإما فردوس منقوصة النعيم. أو ربما نعيم كامل بلا روح تستقبله، بلا قلب ينعم به. تيها هي الروح وهي القلب.. وسيكتب هذا اللقاء تاريخ الأيام المقبلة. سيغرس شجرة العمر الآتي؛ فإما شجرة وارفة الظل شهية الثمر، وإما شجرة جرداء لا يُستظل بها ولا يُطعَم منها.

«أسعد المولى صباح سيدنا الكاهن ساليزو المبجل»..

ساليزو كاهن فخم في كل شيء، يسعد للمدح والإطراء والعطايا والهدايا النفيسة، وكذلك الأطعمة الفاخرة. تلك هي المقدمات السليمة لبلوغ ما أرجوه من نهاية يسطرها ساليزو المبجل، على ورقة فخمة، ناعمة الملمس، صفراء اللون.

«ساليزو المبجل، كبير مدوّني المعبد وحافظ دواوين المعبد الكبير»..

أيكفيه ما في هذه الافتتاحية من إطراء؟!

سأجعل الخدم يسبقونني إليه بسلال الشطائر المعطرة، وقطعٍ من فراء قضاعة البحر النادر..

استدرتُ للوراء، فرأيتُ سلة الشطائر تتراقص فوق رأس الخادم دانيبو، كأطباق الحواة، تكاد تسقط..

- احرص دانيبو على هذه السلة واحملها جيدًا، وإلا انقلب أعلاها على الأرض الموحِلة.. أو ضعها بجواري فوق المحمل حتى أمسك بها بنفسي.

اختلجت قسماته في ارتباك، وسرعان ما أمسك السلة بكلتَا ذراعيه قائلًا:

لا داعي لذلك سيدي.. سأحرص عليها تمامًا وأحفظها جيدًا.. حفظكم العليّ.

- لقد اقتربنا من المعبد، فتحامل قليلًا.. واسبقني مع سائر الخدم إلى الداخل حين نقترب من بوابة الاستقبال.. ساليزو المبجل ينتظرني هناك، وأريد أن تسبقني إليه العطايا..

- أمركم نافذ سيدي.

«سيدنا الكاهن ساليزو المبجل، كبير مدوِّني المعبد وحافظ دواوين المعبد الكبير، أسعد المولى صباحكم»..

نعم.. هذه أفضل!

***

دخلتُ على حضرة المبجل ساليزو، في حجرته التي لم تطأ مثلها قدماي من قبلُ..

دلفتُ إليها من ردهة طويلة، مرتفعة السقف، شحيحة الضوء، يتردد فيها رجع صوت النعال كأنه دبيب القطعان. تماثَلَتِ الأبواب المرتفعة، دقيقة النقوش، فظننتُ أني سأدلف إلى غرفة كغيرها من الغرف. وما إن توسطتها حتى تبين لي ما لم أكن أدركه أول الأمر!

الحجرة ليست حجرة كما ظننت، أو ليست حجرة كغيرها من الحجرات، تحيط بها الجدران من كل جانب. بل إن لها جدرانًا ثلاثة، أحدها جدارٌ مستوٍ، وهو المحاذي للردهة الطويلة، وفيه باب الحجرة، والآخران يتدرجان انخفاضًا في اتجاه الضلع الرابع للحجرة، وليس فيه جدار، بل سياج حجري أبيض باهر النقوش، على هيئة أحرف مفرغة متداخلة، مرَّت برهة قبل أن أفسر كلماتها..

«كبير مدوني المعبد»..

دغدغ الفضول منابت شعري، فمَدَدْتُ جذعي ومَطَطْتُ رقبتي أسترق نظرة إلى ما وراء هذا السياج..

وجدتُ قاعة نورانية، آية في الاتساع والارتفاع، لا سقف لها إلا امتداد سقف غرفة كبير المدونين، أو بالأحرى شرفة كبير المدونين

المتسعة، المُطِلة على القاعة. تُسَوِّرها من الجانب المقابل أعمدة ضخمة كأعمدة المعبد، تفصلها عن حديقة كثيفة النبات، بهيجة الألوان، تتدرج فوق مصاطب لم أتبين منتهاها.

- أتعجبك قاعة التدوين؟

أتاني الصوت الرخيم من خلفي فاستدرتُ مرتاعًا، لأجد من ورائي الكاهن المبجل ساليزو..

أسعد المولى صباح الكاهن المبجل ساليزو، كبير المدوِّنين وحافظ دواوين المعبد.

لا لم تكن هذه!

قلَّصتُ عيني ندمًا..

- أسعدك المولى شابي، وأسعد سائر نبلاء بتاتشي أبناء المعبد الكبير وأفاضل الفردوس.

أجابني وهو يرتقي مقعده المرتفع، ويرمق خجلي بإشفاق، ثم أردف قائلًا:

- لا أجد في الفردوس من هو أمهر من خدمكم في صناعة شطائر العيد، شابي.

- بل صنعَتها والدتي بيديْها تقربًا إلى الكاهن المبجل ساليزو، وأشكر المولى أن أنعم عليَّ بمرضاتكم، سيدي الكاهن المبجل..

- والدتك ماهرة في كل شيء شابي، كغيرها من نساء الدوارج الفضليات..

سقطَتْ فوق رأسي إشارته، فآلمتني كثيرًا..

لماذا يتعمَّدون تذكيري في كل مناسبة بنسب أمي؟!

أفيه انتصار لأنسابهم، أو انكسار لنسبي؟!

وما حاجتهم لكسري الآن؟!

تمالكتُ نفسي كي لا يظهر عليَّ انفعال، وأردفت شاكرًا:

- لا حرمنا المولى من فضل إشادتكم سيدي الكاهن.

- ستدوم إشادتي ما دام نجاحك وازدهار تجارتك ومكانتك التي شرفك بها المولى شابي.. أنت خادم مخلص للمعبد، ولن تدوم خدمتك إلا بدوام حالك الميسور ومكانتك الشريفة..

- جعلني المولى دائمًا حيث يرضى سيدي الكاهن المبجل ساليزو.

حاولتُ استنتاج ما يرمي إليه الكاهن..

أيقصد التجارة والمكانة حقًّا، أم أنه يرمي إلى الأمر الذي جئته من أجله؟

هل بلغك الأمر أيها الكاهن الحاذق؟!

هييه أيها المولى.. امنحني القوة والثبات..

كدتُ أتصببُ عرقًا من فرط التوتر والانفعال، فبادرتُ بتحويل دفة الحديث:

- الجو حار بعض الشيء اليوم، سيدي المبجل.

اتجه الكاهن ببصره صوب القاعة الكائنة أسفل السياج المنقوش، وأمرني دون أن يوليني وجهه:

- قُم شابي واصبب لنا قدحين باردين من شراب اللوز والكاكاو.. ستجد الإناء فوق المنضدة الوسطى.

رجَّحتُ أنه ربما لاحظ توتري وخبر سريرتي، فقلتُ لنفسي: اثبت شابي.

أتاني صوته الرخيم مستطردًا، دون أن ينظر نحوي:

- لقد بلغنا ما قصدتنا اليوم من أجله شابي.. تيها فتاة جميلة وذكية.. أظنها زاملتك في الدرس لسنوات شابي، أليس كذلك؟

- سيدي المبجل أعلم.. كنا ندرس معًا ونحن صغيران، تحت رعاية الكاهن المبجل ماهيزو الحكيم..

- ماهيزو.. ماهيزو أصبح مبجلًا وحكيمًا أيضًا؟! للفردوس غرائب، ما في ذلك شك..

- سيدي الكاهن ساليزو أعلى وأعلم! ما قلتُ ذلك إلا احترامًا للمعبد، ولفضل ما تعلمته على يد الكاهن ماهيزو، وهو من أتاح لي شرف إشادتكم، سيدي الكاهن المبجل ساليزو..

- أصبتَ شابي.. لا يُنتظرُ من خادم للمعبد شريف النَّسل مثلك إلا الصواب.

- أرجو أن أستحق إشادتكم تلك، سيدي كبير مدوِّني المعبد الكبير.

- تستحقها يقينًا شابي، ولهذا أراك تستحق ما هو أفضل من هذه الزيجة التي تسعى إلى نيلِ تصريح لإتمامها.

هو ذاك إذًا!!

لقد علم بالأمر، وما زال يرمي إليه حثيثًا حتى أتتني طعنته الأخيرة، فأصابت مني مقتلًا..

كان عليَّ أن أتلقف الطعنة في صبر وشكر..

- دام لنا ذخر نصائحكم سيدي الكاهن المبجل.. ولكن شابي الضعيف يتوق إلى مباركتكم للزيجة، التي لن يهنأ القلب ولن تسعد الروح وتطمئن إلا بها.

- هييه يا أبناء بتاتشي.. هذا دأبكم لا يتبدل أبدًا!

استدار نحوي ناهضًا كمن يستعد للأخذ بخطام بهيمته.. وأردف قائلًا:

- كنتُ صديقًا لأبيك في الأيام الذاهبة.. عايشته عندما أصرَّ على الفعلة نفسها. كان الكهان حينها أكثر تشددًا ورفضًا لإصدار مثل هذه

التصاريح بزواج نبيل من النبلاء بإحدى الدوارج. وقد نال التصريح بالإصرار والعناد، ولكنه خسر كذلك الكثير مما كان يستحق بالتأكيد.

- رجائي أن يتفضَّل عليَّ سيدي الكاهن المبجل ساليزو المدوِّن باستدعاء خادمته وخادمة المعبد تيها، لِتبيان رجاحة عقلها وتمام خلقها، والتأكد من جدارتها بمعاونة خادمكم شابي على بلوغ أعلى المراتب، خدمة للمعبد الكبير..

لو كانت بالفعل خادمة مخلصة للمعبد، ما احتجنا لهذا اللقاء شابي.. وليس أعلم منك بأنها فتاة شاردة عن ركب المعبد، بعيدة عن السبيل الذي رسمته لنا الإرادة العليا، فضلًا عن كونها من الدوارج.. اشرب شابي، اشرب.. هذا شراب النبلاء.. ربما لا تجده في أيامك المقبلة.

لا بد أن تملأ فراغ الصمت الجاثم على الغرفة كالمحمل فوق أكتاف الخدم!

لا يمكنك أن تصمت الآن شابي..

استعِن بمخزون اللباقة وحسن الفطن..

أين الكلمات؟!

أين العبارات؟!

ذابت جميعها في قدح الـ...

- شابي.. أنت ابن من أبنائي، وأبوك صديق قديم، وعطاؤه للمعبد غير مجحود. سنساعدك يا ولدي في بلوغ مقصدك، فإن كان تصريح الزواج فلك ما تشاء، وإن كان غير ذلك فقد أصبت وظفرت.

أرخى الكاهن ذراعه المثقلة بالأساور والخواتم فوق كتفي، وسيَّرني صوب سياج الشرفة.. وقفنا ننظر إلى القاعة من تحتنا، وقد تبخَّر انبهاري بها في سقفها المنعدم.. نظرتُ إلى الحديقة المتدرجة بالخارج ذاهلًا في اللاشيء، أبحث عن عبارة ناجعة تعلقت بالهواء، بينما بسط الكاهن هيمنته على الحديث مردفًا:

- ندعوك يا بني إلى أن تتدبَّر الأمر بمزيد من الإمعان؛ فإن أردت الزواج فبنات النبلاء لا ينقصهن جاهٌ أو جمال، ولا يحتجن إلى تصريح من المعبد الكبير.. هن الأجدر على معاونتك لبلوغ مرامك الأبدي ومرمى عائلتك النبيلة..

وإن أردتَ العشق، فالعشق عشق المعبد ومولاه، وخدمته على الوجه الأكمل، ولن يتأتى لك ذلك إلا باتباع التعاليم..

اذهب شابي وتدبر أمرك جيدًا، ثم عُد إلينا بعدما تتيقن مما سوف يصل بركبك إلى غاية النجاح والنماء..

اذهب شابي، وستظل قلوبنا وأبوابنا مفتوحة لك على الدوام.

شكرتُ الكاهن المبجل على ما تفضَّل به عليَّ من النصيحة والرعاية.. ووعدتُه برعاية عهده وخدمة معبده في كل وقت.. ثم دلفتُ إلى الخارج

وما زلت أوليه وجهي حتى ابتلعتني الردهة الطويلة، فلم أجد صدى لخفقات نعلي..

لم أجد إلا صوت العدم الذي يصم أذني عندما ألصِق بها محارة كبيرة، أبدية التجاويف..

تردَّدَت خلال الصمت عبارة المبجل ساليزو الأخيرة:

- دامت لك رعاية المولى ونعمته شابي.

ماهيزو في خلوة الرجوع

عدتَ حبيسًا ماهيزو..

والحق أنك لم تكن يومًا طليقًا، وإن لم تدرك ذلك في حينه..

لكنني أدركه الآن، تمامًا، وأدرك كذلك أن السجن أصل الأشياء، وإن بدت طليقة في ظاهرها.

في الرحلة، تتبدى لك الأشياء شيئًا فشيئًا.. تنقشع غلالات الوهم والبداهة، ويظهر باطن الأشياء مبهمًا، ثم ظاهرًا، فجليًّا.. ثم ترى.. فتدرك فيما تدرك أن السجن أصل الأشياء.

الروح سجنها الجسد..

والجسد سجنه الزمن..

الحلم سجنه المنام..

والوعي سجنه اليقظة..

الفعل سجنه العادة..

والعقل سجنه الكلمات..

الإيمان سجنه المعبد..

وأنت ماهيزو، أقدم السجناء!

في المعبد تمكث، سجينًا وسجَّانًا..

كنتُ سجَّانًا قبل أن أرى، ثم ألفيتني سجينًا بعدما رأيتُ، وسأسعى ما حييتُ كي أكسر القيد.

لا حيلة لي مع الزمن، ولا سلطان لديَّ على المنام، ولكنني لن أظل حبيس العادة أو أسير الكلمات.

أُمضي أيام الخلوة والعزلة في تعلم اللغة النورالجية، لغة أهل نورال والبلاد المحيطة بها. أستذكر سرًّا تلك القصاصات التي حصلتُ عليها خلال رحلة المعبد السابقة. بعضها مقتطع من دروس اللغة التي يحصل عليها الدارسون من أهل هذه البلدان، وبعضها قصاصات من أوراق أو جلود تحمل ما سطره البعض باللغة النورالجية. أخفي هذه القصاصات، حتى عن يابيتو المخلص؛ ففضحُ أمري معناه أن تطبَّق عليَّ عقوبة مغلظة، ربما تصل إلى حد الإبعاد؛ فتعلُّم لغة العصاة جريمة كبرى في شريعة الحياة البعدية، ويحظر حتى على كهنة الأسفار تعلم لغاتهم، أو حتى التعاطي معهم فيما يتعدى التجارة وتفقُّد الأحوال.. وهو ما زادني

إصرارًا على التعرف على حياة هؤلاء الذين تصمهم شريعة الحياة البعدية بالمعصية، بينما لا أرى منهم إلا ما أراه من عموم سكان الفردوس.

التعلُّم من أهم المحظورات في شريعة الحياة البعدية.. الممنوع منه يفوق المسموح بكثير، حتى ليكاد يغمره. قانون التعلُّم شديد الإلزام، لا رأفة في تطبيقه بالصرامة ذاتها على الجميع. تتدرج عقوبة مخالفته حتى تصل إلى حد الإبعاد، وهي أقصى عقوبة يمكن توقيعها في دستور الحياة البعدية.

يحظر التعلُّم على أبناء طبقة العوام حظرًا باتًّا دون استثناء، ويعاقَبُ من يخالف ذلك بالإبعاد دون إمهال. أما الدوارج فيحق لهم تعلُّم آداب الحياة البعدية ومبادئ الحساب والأرقام، ويحظر عليهم ما هو أبعد من ذلك، ويُستثنى من ينبغ نبوغًا ظاهرًا في علم مبادئ الحساب، فيُتاح له أن يحصل على إجازة من المعبد لتعلُّم مبادئ التجارة والمحاسبة، حتى يترقى في خدمة التجار من طبقة النبلاء. أما النبلاء فيلتزم أبناؤهم بتعلُّم التجارة والمحاسبة، والقراءة والكتابة باللغة الآجية، لغة أهل الفردوس، التي اكتشفتُ خلال أسفاري أنها لا تبتعد كثيرًا عن اللغة النورالجية واسعة الانتشار في البلدان التي تقصدها رحلات المعبد، فسعيتُ إلى تعلُّمها سرًّا.

لن يدوم الكتمان طويلًا، ولكنني أسعى إلى أن يمتد أمده، حتى أنجز ما انتويتُ إنجازه، فهل يمكنني إدراك ذلك؟

إمعاني في العزلة صار مثيرًا للتشكُّك. يفسره بعض المتعاطفين حزنًا بسبب مرض زوجتي وابنة قلبي أناهيا، ويفسره بعض المحبين ورعًا وتحقيقًا لمراد الخلوة، بينما يفسره المتربصون عزوفًا عن مخالطة الكهان الآخرين واستعلاء على مجالستهم، وسيدفعهم ذلك لمزيد من التلصص والتجسس على ما خفي من أمري.

ينقل إليَّ يابيتو ما يدور بينهم، فأحاول اتقاء شرورهم، ولكن إلى متى ماهيزو؟

لولا خوفي عليكِ أناهيا ما عبأتُ بمصيري أبدًا، ولولا رجائي فيكِ تيها ما سعيتُ إلى ما أسعى إليه.

دام لكِ من دمتِ له تيها..

***

سمعتُ طرقًا هينًا على الباب، وهو من غير المألوف في أيام الخلوة. رفعتُ صوتًا كاد يتلاشى من طول أمد الصمت.. «من بالباب؟» قلت، فأتاني صوت أرهفه الحنان:

- خادمكم يابيتو، سيدي الكاهن.

- أقبل يابيتو.

- عذرًا سيدي الكاهن الأعظم لمقاطعة خلوتكم..

- ألم أرشدك يابيتو إلى عدم مقاطعتنا أثناء القراءة والتدوين؟!

- أرجو أن تتقبلوا عذري سيدي الكاهن الجليل. أحد تلامذتكم المقربين يُصِر على لقائكم. شرحتُ له أهمية عدم مقاطعة خلوتكم فأصر أن...

- من يكون؟

- السيد النبيل شابي سول بتاتشي، سيدي الكاهن.

اممم.. دعه يدخل يابيتو؛ فأمره لا يحتمل الانتظار، ولكن لا تكررها ثانية.

- أمركم نافذ سيدي.

مرت برهة قبل أن يدخل عليَّ شابي، حاولتُ خلالها أن أتصوَّر الهيئة التي سيكون عليها. توقعتُ رداءً أنيقًا ونعلًا فاخرة، وربما شيئًا من حُليّ. ولكن ما وجدتُ كان أبعد من ذلك بكثير..

- أسعد المولى صباحكم سيدي الكاهن الحكيم.

- وأسعدك بدوام من تحب، ودوامك لمن تحب، شابي الودود.

- لا تمهِلوا مريدكم أن يفتح خزانة أسراره سيدي؛ فعند الكاهن المبجل ماهيزو جميع المفاتيح.

للقلوب مفتاح واحد لا غيره شابي: الحب.. وأملك لك منه الكثير.

- دائمًا ما أشتاق لكلماتكم يا معلم، ولا أرتوي من نهر حكمتكم أبدًا..

لم أكن قد استوعبتُ هيئته الجديدة بعدُ، فحدثته كما لو كان شابي الأمس:

- كان موعدنا بعد خلوة الرجوع شابي، فإن لم يكن من اللقاء بد فلا تُطِل الأمد..

- قصدتكم حين سُدَّت السبل أمامي سيدي، ولم يبقَ إلا سبيل سيدي الكاهن ماهيزو الممهَّد على الدوام.

- وبعدُ؟

- وبعدُ، فقد قصدتُ الكاهن المبجل ساليزو، كبير المدونين، من أجل استصدار تصريح بزواجي من تلميذتكم المقربة تيها سيل تيماهو؛ لكونها - كما تعلمون - تنتسب إلى أسرة من الدوارج.. ولكن عظمة الكاهن فاجأني بتوجيهي إلى عدم إتمام الزيجة، حتى لا تكون عثرة في طريقي نحو النجاح والترقي في خدمة المعبد..

- وما تقديرك شابي؟

- سيدي الكاهن المبجل يعلم كل شيء عن ولده شابي، وعمَّا تمثله ابنته تيها بالنسبة لشابي. تيها أنفس من أي نجاح يؤمل إدراكه، وأنبل من أي نبيلة فوق ظهر جزيرة الفردوس..

أدركتُ صدقًا في صوته، وتسليمًا في عينيْه، فلم أعرف أيهما يملك زمامه.

لم أشأ أن أقاطعه؛ فربما تحمِل الكلمات ما لم تبُح به العينان، فتركته يستدرك..

لا يمكنني مخالفة الكاهن المبجل ساليزو فيما يوجّه، سيدي، ولكن تيها هي كل شيء بالنسبة لي، وأفتديها بأي شيء، عدا المعبد وكهنته بالطبع.

ظلت كلماته تتقافز بين هذا وذاك؛ فكان لا بد من محاصرتها حتى ترسو..

- الكل حائر بين القلب والمعبد، والبعض حائر أيضًا بينه وبين العقل.

- بِمَ توجهونني، سيدي المعلم؟! لم أحتَج لتوجيهكم مثلما أحتاجه اليوم..

- سَل عقلك شابي، فإن لم يرشدْك فلا مفر من سؤال القلب.

- هل يُغضِب المولى أن يتزوج عبيده من النبلاء بإمائه من الدوارج سيدي، حتى إن كنَّ لا مثيل لهنّ، مثل تيها؟! أنتم أعلم الناس بها سيدي المعلم.. بعقلها وقلبها، وخُلُقِها الذي لا يُضاهَى!

هل نجح الحصار؟ ربما..

- تيها عصفورة الفردوس ولؤلؤة بحر بيروتشي النفيسة.

- إذًا فلماذا يوجهني المولى إلى تركها لمن دونها سيدي، خاصة أنه قد تعلق بها القلب منذ كنا صغيرين؟!

- وجَّهَك لهذا ساليزو يا شابي.. أما المولى فلا يملكُ أحد منا مفاتح حكمته ومرام توجيهه.

رسمَت الحيرة أساريره من جديد، فصارت أدق من ذي قبل..

أشفقتُ عليه، ولكنني تركتُه يُسقِطُ مرساته بنفسه كي أطمئن لرسو سفينته.

- سيدي، ألا يوجهنا الكهان المبجلون لما فيه مشيئة المولى العلي ورضاه؟

- أنا من هؤلاء المبجلين إن شئت، ولستُ أعرف لشجرتك أرضًا خيرًا من تيها..

خار صبري، فهَمَمْتُ ألمْلِمُ شتات الفتى الحائر..

- أُدرك حيرتك يا ولدي، ولكن الأرواح تتزاوج قبل الأبدان.. لقد زفت روحها إلى روحك قبل أن يتجاوز شعرها منبت الخصر، وقبل أن يتخضب وجهك بزغبه الأملس الداكن.

- لا تؤذي روحك يا بني. هي أغلى ما أُعطيت، فلا تفتدِ زهائد العطايا بنفائسها..

- وهل يتعطف عليَّ ساليزو المبجل ويمنحني التصريح إذًا؟!

- آمل أن تتعطف عليك تيها بالتصريح أولًا، طالما قايضتَ بينها وبين إرشادات ساليزو المبجل.

جثا على ركبتيه أمامي متعلقًا بثوبي، كفعل شابي الأمس، وأردف:

- لم أفعل سيدي الكاهن المبجل.. لم أفعل ولن أفعل.. ولكنني خفت أن أحيد عن مشيئة المولى فأُحرَم رضاه.

- المشيئة العليا تُدركها بروحك النقية شابي، قبل أن يستوعبها عقلك المُتدبر.

نهض ثانية بعدما خالط البِشر علامات الحيرة التي رسمت قسماته.

ترقرق صوته واختلجت عيناه وهو يودعني:

- أشكركم سيدي المعلم.. أشكركم كثيرًا.

ثم انهال على يدي تقبيلًا، فجذبتُ يدي مهوِّنًا:

- سبق أن قلت لك شابي: إن النبلاء لا يُقَبِّلون الأيدي.

- لستُ من النبلاء في حضرتكم سيدي الكاهن المبجل..

- ولا في حضرة تيها كذلك؟!

- نعم سيدي.. ولا في حضرة تيها..

هو شابي الأمس لا ريب..

ولكن لا مانع من تثبيت مرساته؛ كي لا تقتلعها الأيام المقبلة..

تيها وموعد مع شابي

لم تأتِ بخير أيها الصباح الجميل المراوغ، وكنت أرجو منك كل خير وسعادة.. لم أستيقظ كما يحلو لي الاستيقاظ، ولا حتى أقل من ذلك.. استيقظتُ استيقاظًا مزعجًا، مؤرقًا، ينفرط له عقد الأحلام، وتستعصي آثاره على كل ما ينتظرني من بهجة خالصة هذا اليوم.. وأنا من انتظرتُ حلول اليوم بشغف بالغ!

اليوم ليس كسائر الأيام..

هو يوم لقائي مع شابي..

يوم من الأيام التي أجد فيها لنعيم الفردوس مذاقًا، وعبيرًا، وقشعريرة تنتابني فلا تمهلني لحظة أفيق فيها من أحلامي المبهجة..

ألتقي شابي مرتين كل شهر، في غير أيام الأعياد.. أما في العيد، فألتقيه لثلاثة أيام متتابعة! أرشف فيها من نعيم الفردوس ما شئت.. تهدهِد جسدي سحائب البهجة حتى تدلف بي السعادة من بوابة الحلم المتسعة، مع نهاية كل يوم..

ولكن الصباح الحنون لم يأتِ بما ارتجيت من خير!

لم توقظني خيوط الشمس الملونة، التي تنسج أسطح غرفتي كل صباح.. لم أفِق لأجد نقرات العصافير على زجاج شباكي الملون.. حتى نداءات أمي الراجية، المتصاعدة من قبو الخبيز مع جعجعة حجر الطحين.. لم تكن ما أيقظني.. صحوتُ على صوت نشيج الخالة تيبويا ونحيبها المتهدج بلا توقف، وهي تخوض سجالًا منفردًا لا يجيبها فيه أحد!

- قلتُ له: لا تفعل بنا ذلك يا إيماهو.. ليس لنا عكاز نتعكز عليه إلا أنت.. فلم يجِب.. قلت له: إنك لم تفعل شيئًا يغضب المولى منك.. فنظر لي نظرة طويلة، وظل صامتًا.. قلت له: أريد أن أحمل أطفالك، فرد عليَّ أخيرًا..

قال لي: ليس لي أطفال يشردون، ولا زوجة تُقذَف من ورائي في هوة الإبعاد كي أحرص على الحياة.. من فعل هذه الفعلة له زوجة، ستلقى حتفها بلا ذنب ارتكبته، وله أطفال سيتذوقون مرارة اليُتم..

ما لي أنا وزوجة ذلك الوغد عدو الحق؟!

فلتنزل بهما عدالة المعبد كيفما أمر.. ما لي أنا وما لأبيه بكل ذلك، حتى نفقد ولدنا الأكبر الذي لم يرتكب جرمًا، سوى أنه لا يعبأ بأمه التي يحترق قلبها خوفًا عليه؟

سمعتُ أمي، توهاما، تجيبها بصوت شذبته حكمة السنين:

- تيبويا حبيبتي.. إيماهو شاب عطوف حنون، ولن يخذلكِ فيه المولى لنبل دوافعه.. لن يرضى الكُهان المبجلون إلا بكشف هوية السارق، عدو المعبد، لإنزال العذاب به، وسيحفظ لنا المولى العطوف ولدنا إيماهو من كل سوء.. فلا تجزعي حبيبتي.. لا داعي لاستباق الأمر.

- كيف لي ألا أجزع توهاما وأنا أرى ولدي يَقذِف بنفسه في هوة الإبعاد، بدلًا من وغد سارق طامع فيما أنعم به المولى على غيره؟! ليس آدميًا ولا أهلًا لسُكنى الفردوس من يفعل مثل هذه الجريمة، فكيف لإيماهو أن يتعاطف معه؟!

كنتُ قد هبطتُ سلم البيت إلى الطابق السفلي؛ حيث وقفت أمي توهاما والخالة تيبويا قبالة مدخل قبو الخبيز..

الخالة تيبويا هي الأخت الصغرى لأمي، تصغرها بزمن قليل لا يتجاوز الأعياد الخمسة على الأكثر، لكنها تكبرها شكلًا بالتأكيد.. تقول أمي: إن سمنتها المفرطة تُكسِبها هيئة تجاوِز حقيقة عمرها. ولكنني أظن أن كثرة الإنجاب هي السبب فيما آل إليه حالها، وهي سبب سمنتها المفرطة على أي حال.. لا أراها إلا وقد تدلى أحد ثدييها من أعلى ردائها الفضفاض، واستقر بين فكي رضيع حديث الولادة، يمتصه كي يستدر حليبه إن كان جائعًا، أو يمضغه عابثًا كي يستدر النوم.. كما لا أنظر أسفل منها إلا وأجد طفلًا صغيرًا يحبو بين ساقيها، أو يجذب

أسفل ردائها باكيًا أو لاهيًا، وقد تعلَّقَتْ به نشارة الأخشاب المنثورة على الأرضية حتى تعلقَ بها الأوساخ..

لم أرَ جديدًا هذه المرة إلا ذلك البلل الذي التمعت به وجنتاها الحمراوان، من أثر البكاء! رأفتُ لحالها أكثر من ذي قبل، وما إن وقفتُ بجوارها حتى أخذتُ أمسح وجنتها المبللة الملتهبة، دون أن أحادثها..

استدارت نحوي وهي لا تزال تغمغم بكلام متقطع:

- أيرضيكِ ما يفعله بي إيماهو يا تيها؟! حدثيه في الأمر يا ابنتي، ولا تدعيه يفعل بأمه تلك الأفاعيل.

- ما الأمر يا خالة؟ ماذا فعل إيماهو كي يستحق منكِ كل هذا السخط؟ ومن ذلك السارق الذي أحالكِ إلى ذلك الحال البائس؟!

- إيماهو يا ابنتي، كما تعلمين، يعمل محتسِبًا، في مخازن الغلال الملحقة بدار النبيل كواتو سول ماتيهو، وقد سُرق من أحد المخازن جوال ذرة مجففة، وإيماهو هو من اكتشف الأمر وأبلغ به السيد النبيل كواتو.

- حسنًا فعل، وبعدُ؟

- كلفه السيد كواتو باستجلاء أمر السرقة وكشف الجاني قبل أن ينتشر الخبر. فبذل إيماهو كل جهده واستخدم كل حيلته، حتى استبانت له الحقيقة.. ولكنه ما إن علم بالعقاب الذي ينتظر الوغد السارق، عقوبة

الإبعاد من الفردوس، حتى قرر بعناده، الذي ورثه عن أبيه وعن عائلة أبيه، ألا يكشف اسم السارق!

ولِمَ ذلك؟! السرقة من عظائم مغضِبات المولى العليّ، ولا يُتصَوَّر إلا أن يعاقَبَ السارق، حتى إن كان بالإبعاد.. فلا يستحق مثله التنعم بعطايا المولى وسكنى الفردوس!

- حفِظكِ الرب تيها.. أقسمتُ عليكِ أن تعيدي عليه هذه الكلمات يا حبة قلبي، فقد كللتُ من التوسل إليه.. أنتِ تعرفينه وتعلمين كم هو عنيد كالجذور، ومُنغلِق كالمعبد..

ربّتُّ على كتف الخالة تيبويا مطَمْئنة، فسرى لي من ارتعاشة جسدها ما ينتابُها من جزع عميق!!

- اهدئي خالة تيبويا.. كُفِّي عن النحيب أرجوكِ.. لماذا لا يريد إيماهو ذكر اسم السارق أمام كبير الكهنة؟!

غمغَمَت بكلام لم أستبنه! فاستوقفتها:

- كُفِّي عن البكاء حتى أفهمَكِ.

- إي.. إيماهو يا بنيتي لم يكن يعلم أن جزاء السارق هو الإبعاد، فلم نسمع عن سرقة قط منذ كنتما طفليْن.. ولمَّا علم بذلك تملكه الضيق، ولم يشأ أن يتسبب هو في إخراج أحد من فردوس النعيم، مهما كانت جريرته.. حدثناه أنا وأبوه.. أفهمناه أن هذا هو واجبنا تجاه المولى

المُنعِم؛ لأنه هو من أمر بذلك، ولا يستحق سارق أن ينعم بفردوسه كما قلتِ، أتمّ المولى عليكِ نعمة العقل وسلَّمَكِ من العناد!

- وهل فهم واستراح؟!

- ليس تمامًا، ولكنه استجاب، واستمر في تحرِّي الأمر، حتى استبان له واستوثق منه.. ولكنه قال إنه لن يُصرِّح باسم السارق حتى يلقى السيد زولان، كبير الكهنة، وينقل إليه الخبر بنفسه، فيمنحه البركة..

قلت له: نِعمَ الرأي يا بني.. وسألته إن كان للفاعل زوجة أو أولاد، فقال: نعم.. فقلتُ له، قُطِع لساني: يا أسفي على زوجته المسكينة، ستلحقُ به في هوة الإبعاد دون ذنب..

فكأنما ظهرت له أطياف البحار فجأة! اتسعت عيناه، وارتفع صوته، واستحال شخصًا آخر غير إيماهو أكبر أبنائي!!

تبين لي بعد ذلك أنه لم يكن يعرف أن الزوجة تلحق بزوجها في هوة الإبعاد، حتى تستكمل حياتها معه فوق أرض العصاة. ليتني ما أخبرته.. منذ ذلك الحين وهو مُصِرٌّ ألا يذكر اسم السارق، حتى لو أبعدوه هو بدلًا من الوغد السارق!!

- يا خالة.. كُفِّي عن ذلك النحيب؛ فلن يفيده بشيء. إيماهو شاب عاقل، راجح العقل، متفوق في عمله.. أعلم كذلك أن السيد كواتو يُكِنُّ له تقديرًا خاصًّا ويعامله معاملة حسنة.. سأذهب إلى إيماهو حتمًا كي أحدِّثه، ولن أبرحَهُ حتى يعود لرشده، فلا ذنب له! كما أنه لا ذنب لزوجة

السارق المجهول، ولكنها حكمة المولى التي أودت بها مع زوجها لتلقى المصير نفسه! فإن لم يستجِب لي، فسأجد من يوصلني بالسيد النبيل كواتو، كي أشرح له الأمر، فيعالجه بحكمته وتقديره؛ فهو المتضرر من السرقة، ولن يقبل أن يؤخذ إيماهو العطوف بجريرة سارق شارد عن سرب أهل الفردوس!

- لا تقلقي خالة تيبويا؛ فلن يفجعكِ المولى الرحيم في ولدك الصالح إيماهو.. أنتِ دائمًا تبذلين أغلى ما تملكين، حليب الأمومة، لأبناء وبنات جميع الناس، في البيوت والقصور على السواء.. فلن يضنيكِ المولى بفراق ولدكِ أبدًا..

- ضعي هذا الرضيع، الذي لا أذكر اسمه، حتى أتمكن من احتضانكِ خالتي الحبيبة، وكفاكِ إنجابًا؛ فلم أعُد قادرة على تذكُّر المزيد من الأسماء!

تجمد وجهها الودود على سمة العبوس والبكاء، فلم يستجِب لابتسامتي المُستجدية.. ومع طول احتضاني للخالة تيبويا، تسلل إلى قلبي الخوف والقلق على مصير إيماهو العنيد، وكذلك زوجة الرجل المجهول المسكينة!

أحدهما سيَلْقى جزاءً لا يستحقه، على فعلة لم يفعلها، أو لعله يستحقه إذا كانت تلك المشيئة العليا.. لم أعُد أدري..

أحتاج لنجدتكم سيدي ماهيزو الحكيم!

***

انشغل عقلي وتعلق وجداني بمشكلة الخالة تيبويا طوال اليوم والأيام اللاحقة.. لا أفعل شيئًا ولا أتحدث حديثًا ولا أتأمل مشهدًا إلا وتتمثل أمامي الخالة تيبويا، واقفة، أو جالسة، أو جاثية في ردائها الفضفاض، منسدلة الثدي، ذاهلة النظرة، مهزومة الكيان.. يتعلق بها الرُّضَّع والأطفال.. لا تقدر على شيء إلا البكاء والنحيب.. بينما أرى إيماهو مارًّا من خلفها، عن يمينه وعن شماله شرطة المعبد.. يساقُ إلى هوة الإبعاد مرفوع الرأس، منتصب القامة، ثابت الخطوات! ترتسم على وجهه نظرة حزينة، وراضية، بينما هو ينظر إلى اللاشيء.. لا يستجدي نبيلًا ولا كاهنًا، ولا قريبًا ولا عزيزًا!

أدحرج حجر الطحين فوق حبات الغلال اليابسة، فيدهسها راسمًا مكانها وجه الخالة تيبويا!!

أعلقُ خيوط الكتان المصبوغة فوق فرع شجرة الدلب اليابسة، بالباحة الخارجية للبيت، فأرى إيماهو يمر من ورائها في ثقته ورزانته المعتادتين!!

أراهما ولا أعرف إن كان بإمكاني مساعدتهما، أم يشاء المولى العلي غير ذلك.. تربيتُ مع إيماهو، ورضعنا معًا من أثداء الأمين نفسيهما، فعهدتُه عنيدًا، واثقًا، لا يزعزع رأيه شيء.. والمعبد لن يهدأ له بال إلا بتوقيع عقوبة رادعة على أحد ما!

هييه أيها المولى العليّ!

المعبد لا يرضيه سوى توقيع العقوبات.. وأنت لا يرضيك إلا تحقق العدل.. فلا تحمّلنا يا عليّ ما لا نطيق، بفقد إيماهو الرحيم العطوف!

كم أخاف عليك إيماهو، خوفًا أفرغ وجداني من كل أحاسيسي الأخرى!! حتى شوقي لشابي، لم يعُد يطفو على سطح مشاعري، في هذا اليوم الذي انتظرته طويلًا.. بل أخذ يغوص في أعماق نفسي حتى كدتُ لا أجده!!

عذرًا شابي.. لن تجد اليوم تيها التي تهواها وتشتاق للقائها..

سامحني، أرجوك..

شابي وموعد مع تيها

أخيرًا حللْتَ أيها اليوم العاشر من شهر نارودا، ضيفًا حبيبًا طال شوقي إليه.. فأسألك ألَّا تمضي أيامكَ مسرعة متعجلة؛ فقد استبدَّ بي الشوق أيما استبداد!

***

ألتقي تيها الحبيبة في أول كل شهر، ثم في منتصفه، فإذا وافق أول الشهر عيدًا للرجوع، امتد اللقاء لثلاثة أيام لا يُرجى بعدها نعيم، ولا تفوق لذتها نعمة. نارودا، الحبيب، أحد هذه الأشهر الساحرة، التي تمنحني تيها ثلاثة أيام متتالية، رغم أنني أضعت أغلبها في لقاء سادة النبلاء وكهنة المعبد، وكذلك السعي وراء استصدار تصريح الزواج الذي لا يصدر، فلم ألتقِ تيها إلا مرة واحدة، أول الشهر. وها أنا الآن، أستعد للقاء منتصف الشهر، الذي يوافق اليوم العاشر، حين نلتقي بلا أمل في يوم ثانٍ أو ثالث، ولكن لا بأس، تيها لا تفارقني في أية لحظة أعيشها، سواءً التقينا أم لم نلتقِ.

في يومِ اللقاء، نتوجَّه قبيل اصفرار الشمس إلى شاطئ بحيرة توهايا.

دائمًا ما تقول تيها الحبيبة: إن هذا الشاطئ يعرفنا، وينتظرنا، ويتشوَّق إلينا أكثر مما نتشوَّق نحن إليه. تقول: إن رماله بساطٌ من الزعفران، لا يفترش الشاطئ إلا من أجلنا، وإن طيوره تلوِّح برايات الاحتفال وتجوب بها السماء فرحًا باستقبالنا، وإن أشعة الشمس تتلألأ فوق صفحته المنبسطة حتى تُشيع البهجة في صدرينا، ونحن مقبلان على شاطئ البحيرة.

كم أنتِ غارقة في الخيال تيها!

أتعجبُ عندما أتذكر حديثك غير المعقول عن بحيرة توهايا، كيف شعرت ساعتها أن كل كلمة تقولينها حقيقة لا شك فيها؟! كنتُ أرى كل ما تصفينه بعيون اللهفة والهيام واقعًا متجسدًا، أكاد ألمسه، فأجدني أرى آثار أقدامنا منطبعة فوق رمال الشاطئ قبل أن نطأ موضعها، وأسمع طيور الشاطئ وحفيف أشجاره تردد ضحكاتنا قبل أن تنفرج شفاهنا، ويمر بي الوقت كأنما عشته بالأمس، فلا أشعر به، حتى يتخذ القمر مجلسه فوق عرشه السماوي، وتخبرنا نسمات الليل الباردة أن اللقاء قد أوشك على الانقضاء..

تستمسكُ يدي بيدكِ أكثر فأكثر، وتسري حرارة جسدي إلى جسدكِ الباهر، كي تقاومي النسمات الباردة، بدفء المشاعر.

لا تبرح يدي يدكِ إلا عند شجرة الليمون الحزينة، التي تقف وحيدة عند أول طريق الرجوع. نفترق بعدها وقد أخذ كل منا بعضًا من الآخر، يعيش من أجله حتى موعد اللقاء التالي..

أحبك تيها، ولا أطلب من نعيم الفردوس إلا أنتِ..

* * *

مكثتُ طويلًا تحت شجرة الليمون الحزينة، أنتظر مجيء تيها..

عادة ما تسبقني إليها، فأجدها في انتظاري حين أجيء. تبتسم عيناها أولًا، وتلحق بهما شفتاها ووجنتاها، ثم يستجيب شعرها وكل ما فيها لنوبة الفرح، فينير الكون كله، وتزداد الفردوس ألقًا وبهجة.. أشعر ساعتها بالنشوة تدنو مني، حتى تغمر كل كياني. أما اليوم فلم أجدها في انتظاري عند شجرة الليمون، ولم تسارع في اللحاق بي، فجلستُ متوترًا تحت الشجرة، أقذف بالليمونات الناضجة التي سقطت أسفل منها يسرة ويمنة، ثم أخذتُ أمشط الخيوط الذهبية التي تؤطر حافة ردائي.

لم ألحَظ مجيئها حتى وقفَتْ بمحاذاة بئر القلق التي علقتُ بها. شعرتُ بحركة ناعمة سرت ناحية جانبي الأيسر، فاستدرتُ لأجد نعلي تيها الذهبيتين، وقد كشفتا عن أصابع قدميها العاجيتين الجميلتين وأعلاهما، فانكببتُ أقبلهما في كل موضع، في وجد تام.. فإذا بها تهوي مسرعة إلى جواري، وترفع رأسي براحتيها الناعمتين بعطفٍ بالغ.

سرى صوتها خافتًا يدغدغ أذني:

- لا تفعل ذلك شابي.. لا تفعل حبيبي.

رفعتُ رأسي أتأمل وجهها الأسيل، فغمرني الشوق حتى ثملت!

- أحبك تيها.. لا أتمالك نفسي عندما أراكِ.

- وأنا أحبك.. وأعرف تمامًا ما تشعر به، وأود لو أقبِّل يديْك وقدميْك، ولكنني لا أريد أن نمكث هنا طويلًا.. دعنا نذهب إلى بحيرتنا الحانية ونرتمي في أحضانها، وتحف بنا أشجارها فتسترنا عن أعين المارة..

- عمَّا قريب سوف يُنعِم علينا المولى بالزواج، وسنأتيها محتفلَيْن، لا متخفييْن..

- أرجو ذلك يا حبيبي.. لا آمل في شيء سواه.

لمحتُ في عينيْها نظرة التياع لم أعتَدها. ليست لوعة شوق بالتأكيد.. لم تكن تيها على حالها المألوف أبدًا، بل على العكس، علت وجهها سحابة من القلق، أحالت وسن عينيْها لوعة عميقة، رغم أنها زادتها جمالًا

كانت ترتدي رداءً جديدًا ذهبي اللون من القطن الخفيف، معقودًا أعلى الصدر ومُوَشّى الحواف بالريشات الصغيرات والمنمنمات العاجية الدقيقة، آخذًا في الانفراج حتى منتصف الساقيْن، كاشفًا عن رداءٍ أبيضَ ضيقٍ من تحته، ينتهي عند ركبتيْها المستديرتين اللامعتيْن.. لم أرَ مثل

هذا الرداء البهي من قبلُ، ومع ذلك لم يظهر عليها حماسها المعتاد حين ترتدي ثوبًا جديدًا..

سألتها مشفقًا:

- ماذا بكِ حبيبتي؟! لم أركِ على هذا الحال منذ زمن بعيد.

أطرقَتْ لبرهة، مُغمضة العينيْن، فأشفقتُ عليها وملتُ بجِذعي أنظر إلى عينيْها، وأحثها على النظر إليَّ..

طاوعتني أخيرًا، وقالت:

- نعم شابي.. ثمَّة أمر يحيرني، ولا أستطيع إزاحته عن بالي!

- لعله خير!

- لا أظن.. الأمر يخص الخالة تيبويا وابنها الأكبر إيماهو، إنه يُعرِّض نفسه لما هو فوق طاقتنا جميعًا..

- أي شيء هذا؟!

- عقوبة شديدة من كهنة المعبد..

عجبتُ لقولها لما أعلمه من رقة إيماهو ومحبة الجميع له، نبلاء ودوارج! سألتها في دهشة:

- عقوبة لإيماهو؟! من قال هذا؟! وأي جرم يمكن لإيماهو هذا أن يقترفه؟!

أجابَت وما زالت مطرقة، مكروبة:

- تستّر على شخصٍ ما سرق شيئًا من مخازن السيد النبيل كواتو.. أتعرفُ السيد كواتو معرفة جيدة؟

- بالطبع! هو صديق قديم لأبي، وأصبح الآن صديقًا مقربًا لي أنا أيضًا.. أمضينا معًا أكثر من يومين في عيد الرجوع الماضي، قدمني خلالها إلى العديد من كبار التجار، وأفسح لي مجالًا هائلًا لتبادل المنفعة معهم.. أشعر كأنه يحتسبني ولدًا له!

نظرَتْ نحوي ساهمة، غائبة، فخجِلتُ مما انفلت مني من حماس.. عاجلتها مستدركًا:

- هل تودّين أن أحدثه في الأمر؟

- صدقًا؟! هييه أيها المولى العليّ! أسألك أن تكشف عن الخالة تيبويا هذه البلوى!

- ولكن لماذا يتستر إيماهو على السارق؟!

- إيماهو شخص عطوف، لا يقبل أن يتسبب في إيذاء أحد.. يقول: إن زوجة الرجل لم ترتكب أي ذنب، ومع هذا سيلحق بها ما يلحق بزوجها من إبعاد من الفردوس!

- هو شيء محزن بالفعل، ولكنها تعاليم المعبد الكبير: «المرأة تلحق بزوجها أينما ذهب».

- حتى خارج الفردوس؟!

- حتى خارج الفردوس تيها.. الزوجة ترتبط بزوجها برباط أبدي لا ينحل ولا تعيش إلا معه؛ فأينما ذهب لحقتْ به.. أتودين أن تعيشي في الفردوس من دوني تيها؟!

لم تلتفِتْ لدعابتي، وأردفَتْ مطرقة:

- ولكنها ستسكن أرض العصاة بلا جريرة إلا أن مولاها العلي منحها هذا الزوج دون غيره!

- إن كانت تلك مشيئة عليا فلا معقِّب لها.. ولكن إيماهو لا يريد أن يرى ذلك..

- هي المشيئة العليا لا محالة! وعلى إيماهو أن يدرك ذلك قبل فوات الأوان، فلا يلقي بنفسه في هوة الإبعاد بدلًا من هذين المجهولَيْن..

نظرَتْ نحوي نظرة مشفقة، وعضت سبابتها بشفتيها المكتنزتين جزعًا.. ثم سألت ملتاعة:

- هل حقًّا سيُلقى بدلًا منهما إذا لم يخبر عن السارق؟!

صمتُّ برهة، كرهتُ فيها حماقتي واندفاعي، ثم أجبتُها مضطرًا، دافنًا بصري بين قدمَيّ:

- نعم تيها.. لا أذكر أن حدث ذلك من قبل.. ولكننا تعلمنا هذا الأمر في التعاليم ونحن صغار.. أنسيتِ؟

- ربما يختار العقل أن ينسى بعض الأشياء..

مرت برهة ثقيلة الوطأة، لم أجِد فيها ما أُسَرِّي به عن محبوبتي الجميلة.. أشفقتُ عليها أيّما إشفاق، فلن يحتمل جسدها الضئيل ما يعترك بداخلها من أوجاع.. تناولتُ كفها الرهيفة كي أطمئنها:

- تيها.. لا يمكنني أن أراكِ على هذا الحال.. سوف أسعى للقاء السيد كواتو غدًا.. سأخبره أن صداقة حميمة تربطني بإيماهو، وسأرجوه أن يمنحه المزيد من الوقت حتى يستجمع شتات نفسه..

سأرجوه كذلك أن يكلف أحدًا بالبحث في أمر السارق؛ فهو ذو علاقة وطيدة بشرطة المعبد.. هل شاهد إيماهو السارق بنفسه؟

- لا ولكنه يعمل محتسبًا لدى النبيل كواتو، فكلفه بأمر البحث عن السارق.. ثم آلت الأمور إلى ما نحن فيه الآن..

- فهمت.. اطمئني حبيبتي.. لا بد أن نجد مخرجًا، وقد أضاء لنا المولى عدة نجمات، فيجب ألا نخطئها.. إيماهو قريب لكِ، وأنا قريب للسيد كواتو.. والسيد كواتو يعلم كل شيء عن أمانة إيماهو واستقامته.. أرأيتِ؟

نظرَتْ إليَّ نظرة أشرقت لأجلها شمس البحيرة ثانية..

وقالت أخيرًا: أحبك شابي.

صهرني صوتها الدافئ، فألقيتُ برأسي فوق حجرها، ناظرًا لأعلى، لعينيْها الحانيتيْن.. ثم ما إن لامسَتْ أناملُها شعري، تسوِّيه وتصففه، حتى سرى الخدر في أطرافي..

قلتُ متوسلًا:

- أرجوكِ ألا تقولي أحبك مرة ثانية الآن بصوتكِ الرهيف ذاك.. أوشِكُ أن أنصهر تمامًا، فلا أظل شابي، ولا أصلح حبيبًا.

داعبت رأسي مبتسمة، ولم تنبس..

***

مهما دنا الليل، تبزغ الأنوار بين ثناياكِ يا تيها الحبيبة..

حين تبتسمين..

ماهيزو يدوِّن

نارودا 98 / 15

اليوم الخامس عشر من الشهر السابع للعام الثامن والتسعين بعد الدينونة، خمسة أيام تفصلنا عن تمام الشهر الأول من الثلث الثاني من العام، طبقًا للتقويم الفردوسيّ.

هي خمسة أيام بيني وبينكِ أناهيا.. أشتاق إليك حبيبتي، أشتاااق.. خمسة أيام تتطاول بين دفتيْها الساعات، كي تضنيني.. خمسة أيام تحررني من محبسي في خلوة الرجوع.. خمسة أيام تحجزني عن رؤيتكِ أناهيا، وعن التبارز بجَلَد وعلم مع مرضكِ اللعين..

عندما اكتملت مراسم زفافي على أناهيا، صارت الحبيبة زوجة.

فلما ماتت أمي، أضحت الزوجة أمًّا؛ لأنها ظلت حبيبة..

أناهيا هي عطية المولى الكبرى في حياتي، هي العشق الذي ضمَّ بين طياته إرهاصات حبٍّ صغيرة سبقته.. هي الزوجة التي ظلت حبيبة، يتعاظم حبها كلما طال أمد الزواج.. هي الأم التي أنارت جميع الكهوف

التي خلَّفتها وفاة أمي.. فهي لذلك الحبيبة، والزوجة، والأم..

منَّ عليَّ المولى العلي بأن حرمني وإياها من الذرية المرجوة، فأصبحتُ ابنها الأوحد، وصارت أمي، بلا اختيار. ظننتُ أن غياب الذرية حرمان من بعض نعيم الفردوس، ولكنني أدركت بعد ذلك أن ذاك الحرمان هو أثمن عطايا الفردوس كافة..

كفاني قيدًا أن عشقت أناهيا، وتوثَّقَتْ حياتها بحياتي برباط الزواج، فبِتُّ عاجزًا عن إدراك غاياتي، خوفًا عليها من اللحاق بي في هوة الإبعاد، إذا قرَّر المعبد أنني غير مستحق للحياة الفردوسية.

يكفيني أيضًا أن يفزعني هاجس جسد أناهيا وهو يتدلى من حمالَة خشبية مرتفعة، فوق مركز فوّهة هوة الإبعاد، لا يستُرُه إلا ثوب مهترئ متسخ، يكشفُ أكثر لحمه المتدلي من طول مدة التعليق.

يقفُ كبير الكهنة على منصته الخشبية المتطاولة كالجُرف، يلقي بصوته المعدني أسباب الإبعاد على الحضور، وعلى الجسد المعلق منذ أمد. ثم تُمَرَّرُ باسم المعبد الكبير نصال السكاكين على الحبال التي تشد الجسد المعلق، فيرتجف، لا تدري إن كان يرتجف بفعل النصال المثلومة، أم بفعل الفزع. تضمر الحبال شيئًا فشيئًا، حتى إذا ما انقطع حبل، ألقى بثقل الجسد المتدلي تجاه الفوّهة المظلمة، أقرب، فأقرب.. ما هي إلا برهة، حتى يُقطَع آخر الحبال الضامرة التي كانت تُعلِّق أناهيا بالحياة البعدية، ثم...

صرخة ذات صدى ممتد، يخبو رجعه شيئًا فشيئًا حتى يستحيل الصوت إلى لا شيء.. لا يبقى منه إلا ذكرى صوت تحتفظ به الآذان التي سمعته، بينما تكف الصخور والجدران عن ترديده.

لا، أناهيا.. لن يفعل ماهيزو بكِ ذلك أبدًا.

لن يمنحكِ لكهنة المعبد كي يعلقوكِ كالذبيحة. لن يُطعِم بك الفوّهة المظلمة، مبتلعة البشر، من أجل غايات لا طائل فيها.

ولِمَ أفعل ذلك؟ ومن أجل من؟

كي أكشِف للناس ما غاب عنهم من حقائق؟ وماذا سيفيدون من الكشف الأسطوري؟! إن فعلت ذلك فلن أرى في نفسي إلا ذلك المسخ الذي كانت جدتي تقص عليَّ حكايته كي تفزعني قبل أن أنام، ذلك المسخ العائم في البحار ليل نهار، يحيل كل شيء من حوله إلى رماد. أنْشَغِلُ بأمر الناس، فأُفسد عليهم حياتهم! أهدِف إلى الإصلاح، فأُدفَع إلى الانتحار. أسعى لإنقاذ زوجتي من مرضها المُهلِك، فأُلقي بها في هوة الإبعاد. أرمي بنبالي كي أصيب كبد الحقيقة، فأصيب من زوجتي مقتلًا..

سيكتبُ التاريخ في صفحتك ماهيزو أنك دافعتَ عن حق الناس في العدل والمعرفة، فحرمتهم الرضا وراحة البال. لم يعُد في العمر بقية تستحق الاستغناء ماهيزو، إن أُبعِدْتَ ضحيتَ بأناهيا وبأملها في إدراك الشفاء. امتدت الرحلة ودنت النهاية، وما زلت تتردد بين البوح

والكتمان، حتى ضللتَ الطريق بينهما، فلم تدرك هذا ولا ذاك.

زعمتَ طيلة رحلتك أن العدل أساس البنيان، ثم أدركتَ في نهايتها أن الرضا يُبقيه قائمًا، حتى إن كان بغير أساس. فإذا كان العدل لا يُدرَك، فلا تفسِحِ المجال للأمل والطموح، حتى يحل الرضا مكان الرغبة في الارتقاء، فتتبخر الأحلام، ويهدأ البال. لا تقُض على المرتاحين مضاجعهم سعيًا وراء حلم لن يتحقق.

ارْضَ ماهيزو بما قُسِم لك، ولا تُفسِد على الراضين حياتهم بالحلم والطموح.

طوبى لمن أراح عقله وأعمل بدنه..

تيها تلتقي ماهيزو

امممم.. إ ن ن ن ن..

امممممم.. إ ن ن ن ن ن..

سأتذكرها حتمًا، إن أهملتها قليلًا..

امممممم!

* * *

أبحث أحيانًا بكلتَا يديَّ عن مفقود داخل جوال عميق، فلا أجده. تدفعه يدي اليمنى بعيدًا عن اليسرى، وتزيحُه اليسرى قبل أن تصِل إليه اليمنى، فلا تعثر عليه هذه ولا تدركه تلك! لكنني حين أهدأ ولا أستعجل الأمر، أجده يسيرًا ابتداءً، ولم يكن يستحق كل هذه المعاناة!

كذلك حال التذَكُّر.. عندما أركز عقلي وكياني من أجل اصطياد ذكرى شردت عن سرب الذكريات، يصعُب عليَّ الإمساك بها.. وما إن أتركها جانبًا وألتفت لغيرها بعض الوقت، أجدُها تتقافز أمامي كعصفور صغير جائع، يصنع جلبة كبيرة كي ألحظه، وأُعيره اهتمامي.

لا يا تيها، ليس الأمر كذلك، وأنتِ تعرفين!

ترددين ذلك حتى يفتر الجزع، كي يهدأ البال وتطمئن النفس، ولكنكِ تخادعين نفسكِ. حقيقة الأمر أنني لم أعد كسابق عهدي! لم أعُد من سماها المعلم ماهيزو الحافظة المتكلمة.. كان إذا سألني عن ديوان سبق لنا حفظه، وجدني أذكر له موضعه ومحتواه.. صرتُ الآن أكثر شرودًا وأقل قدرة على التركيز!! أجد معاناة في تذكر الأشياء التي طالما كنت في شأنها مرجعًا للآخرين.. مراسم الزفاف التي أعجز عن تذكر تفاصيلها الآن، كانت أية فتاة مقبلة على الزواج تستعين بي في مراجعتها والتجهيز لها. كنت أصوِّب للأمهات والجدات الفُضْلَيات إذا أخطأن في أمر من أمورها..

لا بد أن قوة ما تؤثر عليَّ، لا محالة!

لم أعُد تيها الأمس على أي حال، ولست أعلم ما هذا الذي حلَّ بي!

كانت ذاكرتي أكثر حيوية، وكذلك روحي وبدني. أشعر اليوم أن مشيتي مثقلة، وكأن رمال شاطئ بيروتشي صارت أكثر عمقًا وأشد ابتلاعًا لقدميَّ وهما تعبران طريقهما إلى المعبد الكبير.. حتى كائنات الشاطئ الحبيبة إلى قلبي تستغربني اليوم، ولا تشعر بالألفة المعهودة تجاهي نفسها! حتى غلالة شمس الظهيرة الناعمة لم تعد مألوفة كعهدي بها؛ فلا يمتصها جلدي، ولا ينتَفِش لها شعري كي تتخلله.. هناك أمر مختلف اليوم، يُشعرني بغربة دفينة، حتى عن ذاتي..

هذا الشاطئ بمعالمه وكائناته بضعة من كياني.. هذا السبيل محفور فوق صفحة وجداني. تعرفه قدماي كما تعرفان موضع نعلي أسفل السرير، كما تعرفان ملمسَ ساقيَّ، وملمسَ صخور شاطئ بيروتشي الدافئة.. كيف تنكره قدماي اليوم؟! وكيف لا تألفان أحواله؟!

درجت فوق هذا السبيل سنين من عمري، جيئة وذهابًا، فلم أترك تلة إلا تسلقتها، ولا صخرة إلا احتضنتها، ولا وكرًا من أوكار كائنات الشاطئ إلا وكانت لي معه ذكرى لا تُنسى، مرحة كانت أو مفزعة! حتى الممر الحجري في نهاية السبيل المؤدي إلى بوابة الاستقبال، أعرفه كباطن يدي شابي الحبيب.. أعرف كل حفرة وكل شق، كل عمود حجري وكل تمساح محنط وكل سلحفاة متحجرة.. أخطو بينها كما أخطو فوق درجات سلم البيت! فمن أين جاءني هذا الشعور الغريب؟! أمضيتُ سنين وأنا أجيء وأذهب، قاصدة إما البيت وإما حافظة الكتب التي تتوسط الممر الحجري المؤدي إلى بوابة الاستقبال، على يسار القادم إلى المعبد ويمين المغادر منه.. أذهب إليها أكثر أيام الشهر كي أعاون سيدي الكاهن المعلم ماهيزو في حفظ الكتب والدواوين. اختار لي المعلم ماهيزو هذه المهنة لعلمه بحبي للقراءة والكتب، ولحرصه على بقائي في ظل شجرته الوارفة، أنهل من علمه وأستنير بحكمته..

خيرًا فعل بي؛ فقد أتاحت لي هذه المهنة فرصًا للتعلُّم لا يمكن أن تتاح لمثلي من الدوارج، كما فتحت أمامي أبواب الحرية والانطلاق، وهو ما لا يتاح عادة للفتيات، فصرتُ أكثر التصاقًا بالطبيعة التي شُغفت

بها منذ أن بدأت أدرك عالم الفردوس، وأصبحت أكثر حركة وتحررًا من قيود النوع والعادة.. ولولا اختيار الكاهن المبجل ماهيزو لي ما استطعت لقاء حبيبي شابي ولا رفقائي في جماعة توهو..

ربما تعودَتْ قدماي أن تقطعا نصف الطرق، فلا تكملانها لنهايتها!

في الحب فعلتُ ذلك؛ فوهبت قلبي وكياني لشابي الحبيب، ولكنني لم أكمل طريق الحب حتى نهايته المرجوة، فتزوجَتْ كل من هن في مثل عمري من الفتيات، وبقيت أنا.. عند منتصف الطريق! أتطلع لحلم لا يتحقق..

كذلك فعلتُ في بحثي عن الحقيقة، فالتحقتُ بجماعة توهو، وألهبَتْ تساؤلاتي جذوة فضولهم وحماستهم، ثم... ثم ماذا؟! ثم لم أداوم على الاجتماع بهم، ولم أرافقهم في طريق البحث الدؤوب، فتوقفتُ مجددًا عند منتصف الطريق! لا اطمأنَنْتُ لما نشأتُ عليه من علم، ولا توصَّلْتُ لجديد يرتاح إليه بالي!!

حتى في الإيمان، وفي سبيلي نحو المعبد، لم تأخذني قدماي أبعد من منتصف الطريق، فدائمًا ما يجذبني قلبي إلى حافظة الكتب، ثم لا يلبَثُ أن يصدني عن استكمال الطريق، حتى بوابة الاستقبال!!

حافظة الكتب لا تتعدى دارًا متوسطة الحجم، بسيطة البناء، حوائطها من جذوع شجر الورد، بلا التصاق. تتخللها أشعة الشمس نهارًا ونسائم

الهواء ليلًا، يعلوها سقف مائل، يتوسط جناحيه شباكان، تنساب من خلالهما خيوط الضوء ليل نهار..

أُحِبُّ هذه الدار أكثر من بيتي!

أتوقُ إليها ذهابًا وأشتاق إليها رواحًا، كل يوم..

لها عبق ليس لغيرها من الأمكنة، وتتدفق من حولها الأصوات في مزيج غير معتاد: حفيف أشجار، وتغريد طيور، ووقع أقدام، وجلبة القادمين إلى المعبد والمغادرين منه.. أما أجمل الأشياء في حافظة الكتب، فهو المقعد الخشبي المُوشّى بنقوش ملونة من الأحجار والأصداف، الذي يتوسط فضاء الحافظة أسفل الشباكين تمامًا.. عادة ما يجلس عليه معلمي المبجل ماهيزو، فإذا قام لقضاء حاجة أو لاستقبال ضيف، قفزتُ من موضعي فوق الوسادة الملونة الملاصقة للمقعد، وتمددتُ عليه باسطة ذراعي وراء ظهري، ماشقة صدري ورقبتي، مستقبلة خيوط الضوء المرسلة من السماء، تحمل رسائل الكون العجيبة!

ليت قلبي يعود لطبيعته عندما أصل إلى حافظة الكتب بعد قليل..

***

لمّا أذِن لي ماهيزو المبجل بالدخول إليه في حافظة الكتب، وجدته منهمكًا في قراءة بعض الأوراق والقصاصات الجلدية، بينما تمسِك يمينه بقلم يقطر حبرًا على ورقة راقدة أمامه، في انتظار النقش على

صفحتها. لم أرَه يفعل ذلك من قبلُ أثناء وجوده في حافظة الكتب! تعجبت، ولكنني لم أستفسر منه..

نظر إليَّ بعد برهة، فإذا به يقرأ خاطري كعادته:

- ما كنتُ لأسمح لأحد بالدخول عليَّ وأنا أترجم هذه الأوراق إلا أنت تيها.

- لعله خير لا يستحقه سواي، سيدي المعلم..

- ربما تيها.. ربما.. سأُطْلِعُكِ على الأمر قريبًا.

- أنا رهن توجيهكم سيدي..

مرَّر المعلم طرف قلمه بين خصلات لحيته، متأملًا هيئتي، ومتفكرًا..

أربكتني نظرته، فابتسمتُ له وشغلتُ نفسي بمطالعة أقرب ديوان وقع عليه بصري..

ماذا وراءكِ تيها؟ رياحينُكِ جافة اليوم. تنقشين على وجهك الابتسامات، فتتشقَّق أساريركِ من صعوبة الابتسام.

كشف المعلم أغواري، فأَرَقْتُ ما في معيني من بقايا التماسك، وأفضيتُ إليه:

- نعم سيدي.. لقد تكاثرَتْ من حولي الأحزان، فلم تترك لي موضع قدم إلا احتَلَّته!

- لِمَ كل ذلك يا بنيتي؟ تكلمي..

- هييه يا سيدي الكاهن.. الأحزان كثار، ولم أعُد أهلًا لمجابهتها.. تمُر ببيتي مواكب الزفاف فلا تختارني، حتى بلغتُ الثامنة عشرة وما زلت أبيت في سرير الطفولة.. طالما طمأنني شابي أنه إذا ما أتم العشرين فلن يقف بيننا وبين الزواج حائل.. ولكنه تعثر مرارًا في استصدار تصريح بالزواج، لكوني من الدوارج، حتى خبا حرصه القديم على الإسراع بإتمام الزواج.. حتى لقاءاتنا ما عاد يحرص عليها الحرص ذاته!

- هذا حديث قديم يا ابنتي، وقد زارني شابي منذ أيام فوجدته أكثر حرصًا على إتمام أمر الزواج منكِ.. ولكنها المصاعب المعتادة في استصدار أي تصريح لا يوافق هوى المعبد..

انتظَرَني كي أردف، فلم أفعل..

احتبسَتْ الكلمات في حلقي حينما جرى ذكر المعبد.. المعبد!!

- ماذا بعد، تيها؟

- المعبد! المعبد، سيدي.. أكثر ما أُجابِهُ من أحزان تهب رياحها من ناحية المعبد!! يمنع عني حبيبي، ويمنع عن أهلي وعشيرتي أنفس أطياب الفردوس، العلم والعدل! كما يريد الآن أن يحرمني ممن أحب، ومن أعز أقربائي وأقدم رفقاء دربي، إيماهو العطوف، لذنب لم يقترفه!

لم يبِنْ التعجب على وجهه! فسألته:

- هل نمى إلى مسامعكم، سيدي، حديث إيماهو؟!

- بلغني تقرير شرطة المعبد حول حادثة السرقة.. إيماهو ضالعٌ في شأنها بلا شك، بتستره على الفاعل.. فإمّا شاهد وإما جانٍ.

- هل بيدكم الكريمة رفع أمر العقوبة عن إيماهو، سيدي؟!

- بل بيدي توقيعها فقط..

- ...!!

قرأ التعجب على صفحة وجهي، فعاجلني بالتفسير.

- أصبحتُ مكلفًا بتوقيع صكوك أحكام الإبعاد، فور صدورها من المجمع. ليس بيدي وقف إصدارها، ولا منع تنفيذها. دعينا لا نفترض توقيع العقوبة على إيماهو ابتداءً. سأقصد بيتَه فور خروجي من الخلوة، ولن أتركه حتى أعرف من صاحب هذه الفعلة الحمقاء.

- ماذا بعدُ، تيها؟

- وهل بعد كل ذلك «بعد» آخر سيدي؟!

- نعم تيها.. ليست تيها ابنتي الجسور من تسلبُها المصاعب جَلَدَها وإقبالَها على الحياة..

- سبقَتْ حكمتُكم سيدي المعلم.. أنا أجد في نفسي حالًا لم أعرفه من قبل.. لا أجد لحياة الفردوس طعمًا ولا لريحها عبيرًا منذ أيام! كأنني غريبة عن أرضها، ولا تحفل بوجودي سماؤها! أرجو أن يسامحني

سيدي الكاهن. أشعر.. أشعر بمزيد من الغربة والعزوف كلما دنوت من.. بوابة المعبد!!

حجارته الصماء تجافيني، ولا يرتد لي صوت من جدرانه! تماسيحه وسلاحفه المتحجرة تتوعَّدني، وترمقني بنظرات متغيظة!! بوابته تقابلني كالغرباء، وتوصَد أمامي قبل أن أقطع نصف الطريق إليها! أنا حائرة سيدي، حاااائرة! والتساؤلات تدُسُّ أنيابها في رأسي.. لِمَ لمْ أعُد أجد لنعيم الفردوس طعمًا ولا عبيرًا؟! أخاف أن يكون المولى العلي قد منعها عن حواسي؛ غضبًا للمعبد الكبير!!

مسحني المعلم بنظرة حانية، ثم نهض من مجلسه على المقعد الذي يتوسط الحافظة.. دنا مني وقد أجهشتُ في البكاء، بلا مقدمات..

- رفقًا بنفسكِ يا بنيّة.. المولى يحبكِ تيها.. وإلا ما كان خلَقكِ على هذه الصورة البديعة، ولا أضاء بمحبتكِ جميع القلوب.. أليس هذا ما يقوله عنكِ شابي؟

قلت وأنا لا أملك نفسي من البكاء:

- مُعلمي أعلمُ بي منه.

سحبني المعلم نحو مقعده، وأجلسني عليه.. أتى بقدح فيه ماء، فبَلَّل فيه أنامله ومسح بها أعلى جبيني ومنابت شعري، ثم أردف:

- إنه بحثُكِ عن الحقيقة تيها، هو ما يقض مضجعكِ فلا يتركك تهنئين بالحياة!

رنوتُ إليه باستغراب، فأومأ برأسه مؤكدًا وأردف:

- عندما دخلتِ عليَّ منذ قليل، كنتُ أدوِّن كل ما توصلتُ إليه في بحثي عن حقيقة الفردوس وما يحيط بها من تساؤلاتٍ لا يطمئن إليها القلب. ستساعدينني في هذا الأمر بالتأكيد، كعهدي بكِ في غيره من الأمور..

أريدكِ أن تُرتبي لي لقاءً سريًّا مع ميلزو وبنتو، فور انتهاء الخلوة.. أريد أن أستعين بهما في مسألة إيماهو.

- هل لديكم، سيدي، خطة لمعالجة أمر إيماهو؟!

- اطمئني تيها.. لن تحتجز السماء مطرها إلى الأبد.. سنعثر على الرحمة والعدل، بلا ريب.. ثقي في ذلك الأمر..

- ولكنني سمعتُ، سيدي، أن ميلزو...

قرع آذاننا بغتة نقر حاد خارج باب حافظة الكتب! ارتفع من ورائه صوت الخادم يابيتو متهدجًا وراجيًا الدخول!

ارتعدَتْ فرائصي وقمتُ أفتح له الباب، ورجلاي ترتجفان!!

- ماذا وراءك يابيتو؟!

دخل يابيتو الحافظة مترجرجًا، متعثر الخطوات، مطأطئ الرأس، تعلو رأسه أثقال من الكرب لا قِبَل له بحملها..

بل إنها الفجيعة!

لمَّا استحثته النظرات المتسائلة، تلعثم قائلًا:

- سيدي.. سيدي لقد... حدث أمر مريع! ولكنني... لكنني...

دنا منه المعلم بخطواته الواسعة وقامته الفارعة، فتهافتت هامة يابيتو حتى كادت تلامس الأرض..

بادره المعلم، عابسًا هذه المرة:

- انطِقْ يابيتو، ماذا دهاك يا رجل؟!

- سيدي، لقد... لقد... الأمر يتعلق بالسيدة.. بالسيدة المبجلة أنا.. أناهيا!!

- ماذا بها؟ انطِقْ!

- لقد... ت ت تمكن المرض ال... ل لعين من جسدها الواهن سيدي..

- أتقصد أنها تحتضر؟!

- ب ب بل.. بل انتقلت سيدي إلى حياة جديدة!

لم تمُر بي لحظة يتوقف عندها الزمن كتلك من قبلُ!!

لحظة تتوقف فيها الحياة، فلا شيء يتحرك، ولا أصوات تُسْمَع، ولا ينفُذُ إلى صدورنا هواء!

تحجر كل شيء، وكأن لعنة أصابتنا..

مكث يابيتو في مكانه لدى الباب مطأطئ الرأس، مثبت النظر أسفل قدميْه، كتمثال رجل ذليل.. بينما تحجرت ملامح المعلم ماهيزو على هيئة لم أتصورها ممكنة!

في نظرته مزيج من ذهول وروع، وكآبة خالصة، لا تكسر قيدها دموع، ولا يفرج عن مكنونها صراخ!

ثم تصَدَّعت الحياة فجأة!!

سقط المعلم ماهيزو بجوار مقعده المنقوش في ارتطام مخيف..

وحاسم!!

شابي في وداع أناهيا

للموت جلال ووقار ورهبة، مهما أشاع من مظاهر الحزن حيث حل. عندما يحل الموت، تتوقف كل المظاهر المعتادة للحياة، ويفرض الموت سلطانه، فلا يأمر سواه، ولا ينهى غيره. يتغير المشرب والمأكل والملبس بأمر الموت، وتتبدل الأصوات والأحاديث والأهازيج والتلاوات، استجابة لسطوته. فإذا ما كان المُنتقِل إلى الحياة الجديدة شخصًا له مثل ما للسيدة أناهيا، زوج الكاهن المبجل ماهيزو، من أهمية وحظوة، صار وقع الموت أكثر اتساعًا وأعظم دويًّا..

وذلك ما شَهِدتُهُ من حال الفردوس، منذ بلغني خبر موتها..

كما أن للموت أنواعًا؛ فهناك موت الفجأة.. لا يتوقعه أحد، يحل حلول البرق والرعد، تاركًا في إثره صدمة ووجيعة. وهناك موت العجز وتقدم العمر.. يأتي متأخرًا بعدما يكون أمره متوقعًا للبعض، ومُستعجَلًا لدى البعض الآخر، فيحل حلول الضيف المنتظر، فيُخلف من ورائه مزيجًا من الراحة ووحشة الفراق.

أما موت المرض فهو بين هذا وذاك، فلا يحل فجأة فيصدم، ولا يجيء متأخرًا فيُستَعْجَل.. وهكذا ماتت المبجلة أناهيا.

توجَّهْتُ إلى المعبد الكبير فور سماعي خبر انتقالها إلى حياة جديدة، قاصدًا لقاء الكاهن المبجل ماهيزو، أستاذي القديم ومعلمي أبد الدهر. ذهَبْتُ أواسيه، وأسأل المولى له الثبات والسلوان، فلم أجدْه في خلوته.

كنت أعلم أنه لا يزال أمام كهنة الأسفار المبجلين يومٌ أو يومان حتى تنتهي خلوتهم المقدسة، فعَجِبْتُ لعدم وجود المبجل ماهيزو، وطلبتُ استدعاء خادمه المقرب يابيتو، إن كان موجودًا، حتى أستجلي منه الأمر.

بعد برهة، ظهر يابيتو مهرولًا نحوي، قادمًا من ناحية القبو المفضي إلى بهو المعبد من الساحة غير المسقوفة، حيث كنت أنتظر.

انحنى يابيتو أمامي بجسمه البدين كي يُقَبِّل يدي، فبدا مثقلًا باللحم والحزن معًا. مَسَحْتُ على رأسه الأقرع، فغلبه البكاء، وأخذ يهتز أكثر من ذي قبل.

- ماذا دهاك يابيتو؟ تماسك يا رجل. المعلم أشد ما يكون حاجة لتماسكك الآن.

- نعم سيدي.. سأتماسك، أمركم نافذ سيدي!

- ليس أمرًا يابيتو، بل رجاء.. نحن لا نملك من الأمر شيئًا، ولكن الأجدر بنا أن نتماسك في الشدائد، حتى ترى منا السماء ما تحب..

- نعم سيدي، أمركم نافذ!

ابتسمتُ مشفقًا عليه، وأحَطْتُ ببدنه أجذبه كي نطوف معًا في باحة المعبد.. لم أجد حدودًا بين كتفه وظهره، وقد غاصت كل عظامه في طبقات اللحم. شعرت بمزيد من الإشفاق عليه.. كيف لخادم مثله أن يقوم بما يُكَلَّفُ به من أعمال وهو على هذه الهيئة المثقلة؟!

سألته:

- لِمَ لمْ تلحق بسيدك، يابيتو، وهو أحوج ما يكون إليك؟

- بل غادرنا المعبد الكبير معًا، سيدي النبيل، بعدما أبلغته بالخبر المفجع! سقط مغشيًا عليه!! ولكن الآنسة تيها سيل تيماهو أعانتني على إفاقته، فغادرنا جميعًا، سيدي.. ولكنه بعث بي صبيحة اليوم كي أجمع له بعض الأغراض من الصومعة ومن حافظة الكتب، فلم يسعنا المقام عندما أُغشي عليه أن نعيدها إلى خزانته الخاصة..

بُتِرَت الكلمات في حلق يابيتو فجأة واختلج وجهه.

رمقتُه أحُثُّه أن يُكمل حديثه، فتعثرت حروفه أول الأمر، ولكنه أردف:

- سيدي، لقد اكتشفتُ أمرًا! أمرًا رهيبًا لا أدري كيف أبلِغُ به سيدي الكاهن.. لقد عبث أحدهم بأغراض سيدي الكاهن أثناء غيابه، والسماء تشهد على ما أقول!

- أمُتأكد أنت يابيتو؟

- نعم سيدي، متأكد.. أنا آخر من رتَّب حاجيات سيدي الكاهن في حافظة الكتب، قبل اللحاق به بعدما أفاق. تصورتُ أنه متجه إلى صومعته أو إلى ساحة المعبد، فرَتَّبْتُ أغراضه كيفما اتفق، وأوصَدْتُ الباب كالمعتاد.. ولكنني فوجئتُ بخروجه، ولم تكن خلوة رجوعه الحميد قد انقضت بعدُ، فخرجْتُ خلفه وحاولتُ الاستفسار منه، فلم يجِبْ.. ولم أعُد إلى حافظة الكتب إلا اليوم، حينما أمرني بذلك..

- هل فُقِد أي من أغراض الكاهن المبجل؟

لا سيدي، لم ينقص شيء، ولكنني لم أجدها على الهيئة التي تركتها عليها، والحافظة لا يدخلها سوى سيدنا الكاهن، ومعاونته الآنسة تيها، ويابيتو سيئ الحظ!!

طأطأ يابيتو المسكين رأسه خجلًا، أو حزنًا.. اندثر الفارق اليسير بين رأسه وصدره.. زادني إشفاقًا عليه، فجذبته إلى صدري ولثمت رأسه الأقرع مهوِّنًا عليه:

- لستَ سيئ الحظ يابيتو.. لا تقلق، ربما دخلها أحد الزائرين قاصدًا المبجل ماهيزو، ثم دعاه الفضول أن يتفقد أغراض سيدي الكاهن.

- عفوًا سيدي؛ فدائمًا ما يحذرني سيدنا الكاهن من عبث العابثين بأغراضه؛ لذلك لا أتْرُكُ باب الحافظة أو الصومعة إلا موصَدًا بمفتاح

سيدنا الكاهن، والمفتاح لا يحمل مثله غير سيدنا الكاهن المبجل ساليزو، كبير المدونين!

- عجيب!!

- سبقت حكمتكم سيدي.. هذا ما ظننته تمامًا.. إنه أمر عجيب حقًّا وغير مطمئن.. وأخشى كثيرًا أن أُبلِغَ به سيدي الكاهن!

- لن تحتاج لإبلاغه الآن؛ فالمُصاب جلل والظرف غير ملائم.. دع الأمر لي.

- نعم سيدي، أدام المولى نبلكم وحكمتكم..

* * *

رافقني يابيتو إلى بيت الكاهن المبجل ماهيزو، فظل يهرول طوال الطريق حول المحمل الذي أُحمَلُ عليه.

يهرول أمام المحمل تارة، موجهًا وجهه إليَّ ودُبُره إلى حيث نقصِد، ثم يهرول عن يمين المحمل تارة أخرى، ثم عن يساره، بلا سبب أفهمه..

ظلت أكوام اللحم التي تكسو جسده القصير ترتجّ وتنتفض، فتشغلني عن الاستماع إليه بعض الشيء، ولكنني علِمْتُ مما سمِعْتُ الكثيرَ مما كان خافيًا عني من حياة الكاهن المبجل ماهيزو وزوجته المنتقلة السيدة أناهيا..

السيدة أناهيا سيل مائيجيه، سليلة عائلة مائيجيه، إحدى كبريات عائلات النبلاء، التي أنجبت العديد من عظماء الكهان ونجباء التجارة والصناعة في تاريخ الحياة البعدية.

ارتبطت حياتها بحياة الكاهن المبجل ماهيزو في إثر قصة حب صامتة، دامت لسنوات، هي الابنة الصغرى لكبير المدونين الأسبق بادو سول مائيجيه، الذي عمل الكاهن المبجل ماهيزو تحت رعايته، بعد ترقيته من كهانة التعليم إلى كهانة التدوين.

روى لي يابيتو، بحماس كبير، كيف دأب المعلم ماهيزو على اختلاق الأسباب لزيارة بيت كبير المدونين، لينعم برؤية الشابة الجميلة النبيلة أناهيا، ذات البشرة الخمرية والعينين الخضراوين النجلاويْن. هي كذلك كانت تتشَوَّفُ للقائه، فتدَّعي انشغال الخدم كي تقدم إليه بيديْها عصير التوت البارد وشراب اللوز المُحَلّى.

اعتذر كبير المدونين مرات عدة لكبريات عائلات النبلاء، ممن سعوا لخطبة الجميلة أناهيا، لمعرفته بتعلق ابنته المحبوبة بتلميذه النجيب، الذي أخذ نجمُه يبزغ سريعًا في كهانة التدوين وتأليف كتب التعاليم ووضع شروح ميسرة لعقيدة الحياة البعدية. حتى انتهى الأمر بالمبجل بادو أن بادر تلميذَهُ بشأن زواجه من ابنته أناهيا، بعدما يئس من إقدامه على المبادرة. فلم تدُم الخطبة إلا مقدار ما تم التجهيز لمراسم الزفاف، فكان يومًا مشهودًا من أيام المعبد، سَعِدَ كل من شهده، وسكَنَتْ مشاهدُه في أحاديث أهل الفردوس لسنوات.

ولكن السعادة الخالصة لم تدُمْ في القلوب طويلًا؛ فحل مكانها اليأس من الإنجاب.

كان المبجل ماهيزو أكثر رجال الفردوس شغفًا بالأطفال، كما كان أحب كهنة التعليم إلى صغار التلاميذ. أذكر أنني كنت أكثر من بكاه يوم ترقِيَتِه إلى كهانة التدوين؛ لذلك كان حرمانه من الإنجاب صدمة حقيقية بالغة الأثر على علاقته بزوجته ومحبوبته السيدة أناهيا، فما كان منه إلا أن انشغل عنها بالتدوين حينًا، ثم بإنشاء حافظة الكتب التي كان قد أشار بفكرة إنشائها على مجمع الكهان، ودعَّمه في إقرار أمر إنشائها حموه، كبير المدونين آنذاك، فخُصِّص لها مكانٌ بجوار المعبد الكبير، يطل على الممر الحجري من جهة اليسار حتى لا يتضرر كبار الكهنة من زوارها. وبادر الكاهن المبجل ماهيزو بإنشاء الحافظة بمفرده، ثم بترتيبها وجمع محتواها. فانشغل بها عن بيته وزوجته.

استمر الحال على هذا النحو زمنًا طويلًا، حاولَتْ أثناءه الجميلة أناهيا استدعاء الحب والعاطفة مرات ومرات. تُقابِل جفوة زوجها بالصبر والمودة، وتتقربُ إليه في فرحه وأحزانه. لا يعرف يابيتو تحديدًا متى وكيف عاد الوئام كاملًا بين الحبيبيْن، ولكنه يذكر كيف انقلبت حياة المعلم ماهيزو بعدما أصاب زوجته وحبيبته المرض، فبدت وكأنها تمثل له أكثر بكثير مما تصوره المقربون إليه.

سكن المرض العضال جسد السيدة أناهيا لأعوام، فلم يترك المعلم طبيبًا إلا استدعاه، ولا دواءً إلا جلبه إليها أملًا في الشفاء.

ولما سافر عنها في رحلته المقدسة الأخيرة، التي رافقه فيها يابيتو، طلب من تيها الحبيبة أن تبقى إلى جوارها قدر ما تستطيع، أثناء غيابه الذي تجاوز الأشهر الثلاثة، فكانت تيها تقصد بيت الكاهن في الأيام ذاتها التي كانت تخَصِّصُها لمعاونته في حافظة الكتب، فتمكث فيه الوقت ذاته، أو تزيد.

وما إن عاد المعلم من رحلته، حتى انقطع للعبادة والتأمل شهرًا إضافيًّا، هو مدة خلوة رجوعه المبارك، فما كان للموت إلا أن عجَّل بانتقال محبوبته إلى حياة جديدة سعيدة ببركة السماء، فلم يمْهِل المعلم فسحة للقائها، ولو لمرة واحدة قبل الفراق، فكان ما كان، ولم يبقَ للمعلم غير الحزن والوحشة!

تيها في وداع أناهيا

أظنك مرتاحًا الآن تابتابو..

خذ هذه..

كُلها..

لا أظنك أكلتَ شيئًا اليوم!

أحب مشاهدة يديْك الدقيقتين وهما تمسكان بالجوز، كأنك طفلٌ ماكرٌ يقضِم تفاحة، لا يود أن يشاركه فيها أحد!

كُلْ تابتابو واهنأ بحياتك، فربما يعجِّل بك الموت أنت أيضًا، فتنتقل إلى جسد إنسان بائس، يكابِدُ الهموم والآلام ليل نهار!

***

تابتابو هو آخر من اصطَحَبْتُ من أصدقائي إلى بيت المعلم ماهيزو..

كنتُ أنقل الأصدقاء واحدًا تلو الآخر إلى الفناء غير المسقوف في بيت المعلم، كي أصنع لأناهيا الحبيبة جنتها الخاصة..

ولكن لم يطُلْ بقاؤه هناك!

كانت أناهيا تقول لي إنني أشبهها تمامًا، رغم اختلاف الهيئة والقسمات! كانت تقول: إن روحيْنا نبتتا من شجرة واحدة، فأصبح لدى كل منا المكنون ذاته، وإن اختلفت الأجساد!!

تقول التعاليم: إنه عندما يموت أحد أهل الفردوس، تنتقل روحه لتسكن جسدًا جديدًا، فتختلف الهيئة ويبقى المكنون؛ ولذلك تظهر الأرواح نفسها في هيئات متباينة، وهكذا كنتُ أنا وأناهيا الحبيبة..

كنتُ أدعوها بالسيدة أناهيا، حينما استدعاني المعلم لبيته، وأمرني بملازمتها ما استطعت. وفي أول زيارة بعد سفر المعلم، دعتني أناهيا للجلوس بجوارها، على أريكتها الوثيرة، وطلبت مني أن أناديها أناهيا مباشرة، دون ألقاب. تحرَّجْتُ أول الأمر، ولكني سرعان ما استَطَبْتُ الأمر، فقد جذبتني بساطتها ولطفها، فأحبَبْتُ أن أناديها كما تشاء، وبلا تحرج.. بعد أيام، تكشَّفَ لي ما بيننا من تشابه واتفاق، فشُغِفْتُ بها وصِرْتُ لا أصبر على فراقها يومين متتاليَيْن!

أناهيا أجمل أهل الفردوس على الإطلاق..

لها ابتسامة آسرة، وصوت عذب حنون.. وعاء ملؤه الحنان، تسكُبُ في جوفه الهموم والأحزان، فيفيض حنانًا على كل ما يحيط به! وجدْتُني

أبوح إليها بكل مكنون، فتُنصِتُ إليَّ دون مقاطعة.. أطلبُ مشورتها فتمنحنيها دون أمر أو نهي.. أقصّ عليها حكاياتي مع شابي، فأجد لوعتي مرتسمة على صفحة وجهها الخمري الأثير! أُفضي إليها بما يساورني من تساؤلات وشكوك، وأنا أتحسس الكلمات، فأسمع منها ما تحفَّظْتُ في قوله وتردَّدْتُ في البوح به!!

لا أعرف كيف ستمضي الأيام المقبلة قبل أن ألقاكِ ثانية أناهيا! ولكنني أقسمتُ عليكِ في آخر لقاء، وأنا أُدلِّكُ قدميْك بزيت جوز الهند، كما أوصى الطبيب، أن تجيئي لزيارتي في أي صورة تنتقلين إليها بعد الموت.. فلا تبطئي!

كنتُ قد سألتكِ هل سأعرفكِ إذا أتيتِني في صورة جديدة لم أرَها من قبل، فلم أجد ردًا.. فأرجو أن تجيبني الأيامُ المقبلة بما لم تسعكِ الأيام أن تقوليه!!

***

كنا نجيء ونحن صغار إلى بيت المعلم ماهيزو، نلهو ونمرح، ونلعب حول بركة المياه التي تتوسط الفناء غير المسقوف، نركب على ظهور البجعات البيضاء والسلحفاة العجوز، فيلومنا المعلم، حين يرانا نفعل ذلك، لومًا رقيقًا لا غلظة فيه..

لم يكن قد تزوج أناهيا بعدُ؛ فقد تزوجها لاحقًا بعدما ترك كهانة التعليم وأصبح كاهن تدوين يُشار إليه بالبنان.

استمرت علاقتنا به وطيدة حتى تقدم به وبنا العمر.. ثم توقفنا عن زيارته عندما غادرنا عتبات الطفولة، ونضجَتْ في صدورنا رياحين الأخلاق والتأدُّب..

كان ذلك قبل زواجه بعدة أعوام..

عندما دخَلْتُ بيت المعلم ماهيزو من جديد، قبل نحو ثلاثة أشهر، عجبتُ كثيرًا! لم يكن العجب بسبب تغيُّر شهده البيت أو تجديد طرأ عليه، فما وجدتُ اختلافًا يُذكر عمَّا احتفظَتْ به الذاكرة من مشاهده.. ولكن العجب كل العجب كان بسبب مساحة البيت؛ فقد وجدتها أضيق كثيرًا مما كنت أتصوَّر!!

حدَّثْتُ أناهيا بذلك في مرة من المرات، فقالت: إن ذاكرة الطفولة ترسم الأشياء أكبر وأكثر اتساعًا؛ وذلك لضآلة أحجامِنا وقت التقاط مشاهدها!

قالت كذلك: إنه ليس للأشياء حقيقة مطلقة، وإن الحقيقة ما هي إلا ما يعتقد الخيال أنه الحقيقة؛ لذلك فالبيت متسع بالفعل في حقيقة عالم الطفولة، ولكنه تضاءل بانتقالنا إلى عالم آخر، في زمان جديد، فتغيرت الحقيقة بتغيُّرِ الزمن..

قالت أيضًا إن المرض نقلها من عالم الفردوس السابق إلى عالم آخر، ربما يكون أقل سعادة من دنيا العصاة والخاطئين!

مسَّتني أوجاعها..

شعرتُ بها تتحرك تحت جلدي، وتذوب أسفل لساني!

سألتُها عمّا ينقصها من عالم الفردوس، فقالت: كل شيء!! قالت إن مرضها ومرض أبيها حالا دون لقائهما، فصار كل منهما وحيدًا في الحياة، بعدما انتقلت والدتها إلى حياة جديدة، وانشغل زوجها المبجل بأسفاره ومعبده. قالت كذلك إن المرض منعها من متعة التنزه في ربوع الفردوس، وكانت النزهة آخر ما تبقى لها من النعيم..

كانت تماثلني في حب الطبيعة، بطيورها وجبالها وبحيراتها وجداولها، وكذلك مخلوقاتها الجميلة العابثة بلا همّ ولا حقد..

عزمتُ في نفسي أن أسعدها، ولو بشيء يسير مما افتقدَته..

سألتُ أحد الخدم قبل أن أغادر البيت أن يصحبني إلى بيت المبجل بادو سول مائيجيه، كبير المدونين الأسبق، وطلبتُ منه ألا يخبر السيدة أناهيا بطلبي هذا، حتى آتيها بأخباره بنفسي..

في صبيحة اليوم التالي، ذهبتُ إلى هناك مع الخادم، فوجدتُ بيتًا متسعًا بحق، مرتفع السقف، منقوش الجدران، ولكنه موحشُ الفراغ، فارغ من الأشياء، ومن الروح..

لما سمح لي الكاهن بالدخول عليه، وجدته رجلًا طاعنًا في السن، قعيد الفراش! عرّفته بنفسي وبأنني أجالس أناهيا منذ أيام، فبكى! بكى دونما رد أو تعليق.. قلت له إنها بخير، وإنها تفتقده وتود الاطمئنان

عليه، ولكن المرض يمنعها.. ظل صامتًا يذرف مزيدًا من الدموع، دون أن يبدي شيئًا جديدًا!

بعد قليل، سألته إن كان يود أن يكتب لها خطابًا، فحدَّق في وجهي متسائلًا! أكدتُ له أنها فكرة حسنة ستسعدها كثيرًا، وأن هذا هو ما جاء بي إليه اليوم.. عادت الحياة لقسمات وجهه، وبدأت التجاعيد تفيق من غفوتها.. سألني إن كنتُ أحسن الكتابة، فأخبرته بأنني معاونة الكاهن المبجل ماهيزو في حافظة الكتب. تشكَّلَتْ لحظتها قسمات وجهه على هيئة ابتسامة غامرة، مضيئة، أشعرتني بأن المكان غدا مألوفًا عندي!

قمت أبحث عن قلم ومحبرة وأوراق. وجدْتُ ما أردْتُ فوق منضدة مجاورة لشباك الغرفة، فمسَحْتُ التراب عن أعلاها، ثم عُدْتُ إلى الجلوس بجواره كي أكتب الخطاب..

شرع يتحدث.. فلم أجد في حديثه ما يقال عادة في الخطابات! تحدث عن أناهيا الحبيبة، وماهيزو الدؤوب، وحافظة الكتب والمعبد الكبير، والزواج والإنجاب، والأفراح والأحزان، والمرض! لم أشأ أن أُقاطعَهُ، ولم أترَدَّدُ كذلك في كتابة ما يقول، كيفما اتفق..

نظرتُ نحوه لمَّا توقف عن الكلام، فوجدته غافيًا في وسن طفولي!!

لمَّا أخبَرْتُ أناهيا بما جرى من أمر أبيها كادت تنتفض من السعادة، لولا الوهن الذي أقعدها! جذبتني نحوها وضمتني طويلًا.. فلمَّا طال بنا الصمت جذبْتُ نفسي، فإذا بها تذرف دموعًا صامتة!!

أدهشني كم تُشْبِه أباها، وعجِبْتُ كيف لم ألحَظْ ذلك الشبه من قبلُ!!

كتبْتُ لها خطابًا كي أذهب به لأبيها وأعود بأخباره بعد بضعة أيام، وقلت لها إنني أُعِد شيئًا آخر سيسعدها كثيرًا، وسأستعين فيه ببعض الخدم.. اتَّسَعَتْ عيناها النجلاوان في حماس وتطلع، وقالت إنها لن تسألني عن ذلك الشيء.. وإنه يكفي ما قمتُ به من أجلها..

في اليوم التالي، اصطحبْتُ اثنين من الخدم إلى غابة مجاورة لبحيرة توهايا، فانتقَيْتُ جذعَ شجرة جميلة، بيضاء، متراقصة الأفرع. قطعنا الجذع ونقلناه على محمل الأمتعة إلى بيت أناهيا، أعني بيت المعلم، وفي فناء البيت المفتوح ثبتنا الجذع، بجوار الحائط الملون. في الأيام التالية، صِرْتُ أجلِبُ بعض أصدقائي من الحيوانات والزواحف وطيور الزينة والفراشات إلى فناء البيت، فأسكَنْتُ بعضها الجذع المتراقص، وعدتُ بتلك التي لم تألف البيت الجديد.. أو كادت تصنع مشكلة ما..

صرتُ أُعرِّفُ أناهيا بها، واحدًا تلو الآخر، حتى صنعنا أنا وهي فردوسًا خاصة بنا في فناء البيت.. كان سنجابي اللعوب تابتابو الصغير آخر من انتويتُ أن أنقل إلى هناك من أصدقائي الحيوانات. اصطحبته معي أثناء لقائي المعلم ماهيزو، في حافظة الكتب، كي أذهبَ به بعد اللقاء مباشرة إلى بيت المعلم، في زيارتي المعتادة لأناهيا.. كنتُ قد انشغَلْتُ عنها ليومين منذ طرأ أمر إيماهو المسكين.. ولكن الموت لم

يمهلني لقاءً أخيرًا مع الحبيبة أناهيا، كي أُعرِّفَها بالوافد الجديد تابتابو..

لن أودعكِ أناهيا..

ولكني أنتظركِ في صورتكِ الجديدة..

في حياة جديدة لها حقائق أخرى غير تلك التي أعهدها!

ماهيزو يرثي أناهيا

ليس هكذا تُكتب النهايات حبيبتي. لا تُكتب بهذه القسوة. كان عليكِ انتظاري، أو فك أسري. كان عليكِ أن تأتيني محمولة، أو تأمريني فآتيكِ مخبوءًا بين أجولة الغلال، أو زكائب السماد.

كنت أحتاج إلى رؤيتكِ، ولو لمرة.

أحتاج أن أضمكِ إلى صدري، ولو لمرة.. أن تنطبق وجنتكِ الملساء على تجاويف كتفي، ولو لمرة.

أفتقد صوتكِ كثيرًا.. كثيييرًا.

أُغمِض عيني وأحاول استرجاعه مرة، ثم مرة، ثم مرات، فلا أستطيع. أُطبِق جفني تمامًا حتى أتألم، ويرتجف جلد وجهي استجداءً لصوتكِ حتى يعود، ولكن بلا فائدة. أسمعه يتردد في خيالي واضحًا، جليًّا، ولكن بلا حياة، بلا دفء، بلا روح، لا ارتجاف فيه ولا تنهد ولا حشرجة، فلا أعرف إن كان صوتكِ تمامًا، أو أن خيالًا يضللني ويعبث بي. كنت أحتاج إلى سماع صوتكِ، ولو لمرة واحدة فقط.

الآن صرتُ ماهيزو، وحسب!

كنا في السابق ماهيزو وأناهيا، فكنت جزءًا من كل. كنت أنتمي لذلك الكل، وأعيش من أجله. أما الآن، وقد صرت ماهيزو وحسب، فلا أعرف لمن أعيش، وإلى أي شيء أنتمي، وبمن أحتمي، وعمَّن أدافع وأذود.

كنتِ أناهيا، ابنتي المرحة، وأمي الحنون، وحبيبتي الدافئة، ثم ذهبتِ عني فأصبحتُ مجرد ماهيزو. أضعتُ سنين من عمري حُرِمتُ فيها منكِ، أستعيدها اليوم بمزيد من الألم والندم. يُنسيني الندم أيامي السعيدة، فلا أذكر إلا تلك الأيام التي حُرِمتُ فيها جنة القرب منكِ.

أتذكرين أناهيا كيف مَرَّت بنا سنوات الزواج الأولى؟

كنت أطوف في البيت من حولكِ كالغرباء، أمضي أكثر وقتي في المعبد وفي حافظة الكتب اتقاء لمجالستكِ والنظر إلى عينيْكِ الجميلتيْن. أتتصورين؟ لا أصدق الآن أن يكون ذلك ممكنًا، ولكنها الحقيقة البائسة. أضعتُ من عمري سنوات مفعمة بالدفء، فلا أذكر من سنواتي إلا ما أضعت، فينتفخ جوفي بالندم حتى ليكاد يفتِكُ بي.

أتذكَّر كيف بدأ الأمر في العام الثاني لزواجنا، وكنت قد انتهيتُ لتَوِّي مما ظننته آنذاك أهم ما كتبت من دواوين شرح العقيدة البعدية للأطفال. عرضته عليكِ مبتهجًا، متشوقًا لإطرائك، منتظرًا أن تحتفي به، ثم أصابتني سهام الحيرة والمفاجأة حين امتنعتِ بإصرار عن قراءة ما كتبت. بل إنك ادَّعَيْتِ عدم الاهتمام بكتب العقيدة، وأنك لا تهوين سوى قراءة كتب الحكايات والنوادر.

طلبتُ منكِ أن تقرئيه ولو على سبيل الاحتفال بما أنجزت، فرفضتِ رفضًا باتًّا، عنيدًا، مختبئًا وراء ابتسامة حانية ظلت تطفو فوق صفحة وجهكِ الجميل. ساءني ذلك كثيرًا، ولاحقتُكِ بالأسئلة والجدال حول إهمالكِ التبحر في العقيدة الأسمى، وقد نشأتِ في بيت كبير المدونين، وخطت قدماكِ أولى خطواتهما فوق أفنية المعبد الكبير وبين أركانه. أجبتِني ساعتها بأنكِ لا تعزفين عن هذه العقيدة إلا لأنكِ ابنة لكبير المدونين، درجتِ بين أركان المعبد الكبير، وقرأتِ كل ما وقعت عليه عيناكِ من دواوين المعبد وأسراره.

لم أبرح البيت يومها إلا بعدما اطلعتُ على كل ما اختبأ في جوفكِ من أسرار، وبعدما جادلتكِ طويلًا، حتى أضناني الجدل، وكدت أبغضك. كان ذلك الجدل إيذانًا بقطيعة حلت بزواجنا، تدخل على أثرها كل المحيطين بنا من الأهل والمُحِبّين، راغبين في إصلاح ما أفسدته عواصف الغضب وأتربة الفرقة. لم أذكر لهم بالطبع ما كان منكِ، رأفة بكِ وخوفًا عليكِ مما كان سيلحق بكِ من تعذيب أو إبعاد، بل اتخَذتُ من تأخر الإنجاب ذريعة في مواجهة المتسائلين عن أسباب توتر علاقتنا، تلك العلاقة التي نبتت من محبة ظاهرها لا يُنْكَر، وباطنها لا يُدْرَك.

ولكنني ذُهلتُ آنذاك مما وجدت منكِ من قناعة خالصة، لا تخالطها الشكوك، بأننا جميعًا درجنا على الأباطيل، وأن الفردوس ليست إلا وطنًا كغيره من الأوطان التي يسافر إليها كهنة الأسفار، أو حتى تلك التي لا نعرفها.

ذهلتُ أول الأمر، وانطبعَتْ على وجهي ابتسامة بلهاء، ثم أدركتُ فظاعة ما جئتِ به، فامتلأتُ حنقًا وسخطًا عليكِ كما لم أجد في نفسي من قبلُ. وما إن استعاد قلبي إيقاعه الهادئ، حتى عدتُ لرشدي. انهزم عقلي وطأطأ ضميري أمام مشاعري اللاهثة وأشواقي الجائعة، فأقسمتُ ألا أتركَكِ فريسة للضلال، فتستحقي غضب السماء ولعنتها وحدكِ.

بذلتُ في سبيل حبي لكِ كل جهد وعاطفة ومودة، كي أستميلكِ مجددًا إلى سبيل المولى العليّ، الممهد بتعاليم المعبد الكبير. ولكنني لم أجد أصلَبَ من قناعتكِ، ولا أعذب من ابتسامتك. أعجزني حنانكِ الغامر الذي لم يجافِني لحظة، في غضب أو سكينة. فلمّا يئستُ من استمالتكِ وهزمتني ابتسامتك قنعت بهجركِ حتى لا تلطخني معصيتك، ولكنني قَصَرْتُ الهجران على الانصراف إلى المعبد لمزيد من العمل والعبادة، وتجنب التحدث والتودد إليك حين أعود إلى البيت. لم أشأ أن أترك البيت، حتى لا تثار من حولنا الشكوك، أو هكذا زعمتُ لنفسي لأنني لم أطِق البعاد.

ظل هاجس كفركِ بعقيدة الحياة البعدية يتربص بعقلي، فيحول بيني وبين الانهماك في عملي بالمعبد والانشغال به، ولم أستطِع كذلك أن أصرف عن خاطري ما قصصتِه عليّ من أسرار، لم أكن لأصدقها في حينها ولو أتيت عليها بألف دليل، ولكنني لم أستطِع إنكار معقوليتها تمامًا، فظَلَّت الظنون تؤرقني وتتقلب في رأسي، حتى أرهقني الفكر وأعجزني التفسير.

جاء بين عباراتكِ ذكر الغرفة المغلقة، التي تحول دون ولوجها بوابة قصيرة من خشب عتيق، منقوش، موصدة على الدوام. كنت أعرف أن هناك غرفًا في المعبد الكبير لا يُسْمَح لأحد بدخولها، حتى كهنة التدوين وكهنة الأسفار، وهما أعلى مراتب الكهانة. كنتُ أظنها صوامع لكبار الكهنة، فلم أسْعَ لاستجلاء أمرها من قبلُ. وكنتُ قد رأيتُ تلك البوابة الموصدة بقفل حديدي صدئ كبير الحجم، لا يتناسب مع حجمها وارتفاعها اللذين لا يزيدان على خاصرتي. عجبتُ لأمرها وهيئتها قبل ذلك، ولكنني لم أُظهر لكِ اهتمامًا بما تروين، حتى لا ترجي مني تصديقًا. ولكنَّ ذكرها أثار فضولي واهتمامي، كما أثارهما مظهرها العجيب من قبل.

كنتُ أظنها مجرد صومعة مبتعدة، عجيبة الهيئة، لأحد كبار الكهان السابقين. ولكن ما ذكرتِه من أنها حافظة سرية تحوي كتبًا ورسائل ودواوين، وأغراضًا من بقايا حطام سفينة غرقت قديمًا في بحر بيروتشي.. كل ذلك فتح الطريق للظنون كي تنبش في باطن عقلي، عن ذكريات دفينة..

جَعَلْتُ أتذكر تلك الفترة التي تروين أحداثها، فتومِضُ في العقل خواطر وشواهد تستحث القلب على مزيد من الشك.

تأتيني الذكريات واحدة تلو الأخرى، من مخبئها البعيد، فتومض نجوم المعرفة في سماء الشك، نجمة وراء نجمة.

تخاطبني أصوات من الماضي البعيد، فأستمع إليها. أشاهد أحداثًا كنت أظن كهوف الزمن قد ابتلعتها إلى غير رجعة. أعيش الأيام كما عشتها في زمن الصبا، فتنقشع عنها غيوم النسيان شيئًا فشيئًا. أشعر بالانفعالات ذاتها تسري أسفل جلدي، وفوق فروة رأسي، تمامًا كما شعُرْتُ بها قديمًا.

كنت غلامًا في الثالثة عشرة عندما انشغل المعبد بصلاة الرجاء، في أيام ينشغل فيها الكهان عادة بالتهيئة لعيد الرجوع. أُمِرنا أن نصلي صلاة الرجاء من أجل عودة أسطول المعبد من رحلته، بعدما هتَّكَتْ عواصف عنيفة سطح بحر بيروتشي الهادئ، وأثارت رمال شاطئه الحمراء، فخُشِي على أسطول المعبد من مواجهة الصعاب في رحلة الرجوع.

تواترت بعد ذلك أخبار بأن السبب وراء إرجاء الإعداد للاحتفالات ما هو إلا تحطم إحدى السفن بالقرب من شاطئ بيروتشي، بفعل العواصف الشيطانية العاتية. أودت تلك العواصف بالسفينة إلى اصطدام عنيف بصخور الجزء الضارب في عمق الماء من جبل بيروتشي، جهة الجنوب. ظننا في بداية الأمر أنها إحدى سفن أسطول المعبد، فهالنا ذلك جميعًا، ولكن الأخبار تلاحقت بعد ذلك مؤكدةً أن السفينة مجهولة، وأن أطياف البحار قد استدرجتها إلى غرفات الليل وحطَّمتها.

سمعنا بعد ذلك أن المعبد أمر بعدم تداول هذه الأخبار الكاذبة، التي يتهيؤها بعض ضعيفي الإيمان والمُتأثرين بالعواصف الشيطانية، وأن

المعبد قد أصدر تعليمات مشددة بابتعاد الناس عن الشاطئ بمسافات كافية، حتى يقوا أنفسهم تلك الشرور. ثم رأينا أسرابًا من شرطة المعبد تَرْتصُّ في صفوف محاذية لساحل بحر بيروتشي، مولية ظهرها للبحر، حتى تمنع الناس من الاقتراب، وتلك كانت المرة الأولى التي أرى فيها، كغيري من الصبية والغلمان، ذلك المشهد المثير والمَهيب. أما الكبار فعاشوا أيامًا من الخوف والفزع، ضاعفت من مخاوفهم المتوارَثة حول البحر وأهواله وعجائبه.

أما الأعجب فأتت به الأيام التالية..

رأينا المعبد يُصدِرُ أوامر غير مسبوقة بإلغاء مراسم استقبال كهنة الأسفار، قبل رجوعهم بأسابيع، ثم يُلحِق تلك الأوامر بتعليمات إضافية أكثر تشديدًا بعدم الاقتراب من شاطئ بيروتشي حتى إشعار جديد، وأن من يخالف تلك الأوامر يعرِّض نفسه لأشد عقوبات المعبد، دون استثناء لنسوة أو أطفال.

أصبح الأمر مخيفًا للجميع، مع تصاعد تلك اللهجة غير المعهودة من كهنة المعبد. أخذ الناس يرددون من حولي ما درج عليه أهل الفردوس من أساطير مفزعة حول البحر: مملكة الأطياف الشريرة وملجأ القوى الخفيّة التي حُرِمَت من نعيم الفردوس.

كنت، وأنا صغير، أُضرَبُ ضربًا شديدًا إذا لامست إحدى موجات البحر قدميّ وأنا ألهو على الشاطئ. كانت أمي تغسل قدمي بالماء

العذب عدة مرات، لثلاثة أيام متتالية، تُسمِعُني في كل مرة مزيدًا من التقريع والتوبيخ والقصص المخيفة عن البحر، ثم تسألني حين تنتهي الأسئلة ذاتها:

ألم تسقط ذات مرة على وجهك فوق الشاطئ فغشّت وجهك إحدى الموجات وأذاقتك ملوحتها وسمّها؟!

ألم ترَ بعينيك كيف تخرج منه بعض السمكات والمخلوقات المسكينة ميتة بعدما ابتلعت أرواحها الأطياف الشريرة؟!

كنت أستغرب تلك الحكايات، بل وأشُكُّ في صحتها، ورغم ذلك ينتابني مزيدٌ من الخوف من أن تبتلعني أمواج البحر فلا أعود إلى أمي، إلى البيت، إلى أرض الفردوس، وتقتادني أطياف البحر إلى غورها المجهول، كما تقول الأساطير، ثم تلتهمني.

كانوا دائمًا ما يقولون لنا ونحن صغار: إن كهنة الأسفار هم وحدهم القادرون على ارتياد أغوار البحر، لِما وصلوا إليه من مكانة وقوة في الإيمان ونقاء في الروح، فلا تقوى الأطياف المُرعبة على مجابهتهم، ولا تجرؤ على التعرض إليهم بسوء. كنا ننظر إلى كهنة الأسفار بمزيج من الرهبة والإعجاب البالغ. لا شك أن لهم قوى خارقة لا تُدرَك ولا تُرى، فلا يُسمَح لغيرهم بورود ماء البحر، ولا بمغادرة أرض الفردوس. هم الذين يجابهون قوى الشر باقتدار وثبات، كي يتفقدوا دنيا العصاة، ثم يعودوا إلى الفردوس من جديد، وقد ساقت السماء مع ركبهم المبارك أرزاقَ العوام والنبلاء.

عدتُ بذاكرتي إلى تلك الأحداث، فلم أستطِع إلا أن أُذْعِن إلى قوة حجتكِ أناهيا، فيما ادَّعيتِ من رؤى ومشاهدات وقراءات في أسرار المعبد الكبير. كنتِ طفلة في الرابعة أو الخامسة عندما مرَّت بالناس تلك الأحداث، فلم تدركيها كما أدركتُها أنا وغيري. لم أكن لأصدق أن بإمكانك أن تشَيِّدي الأساطير فوق بناء من واقعٍ لم تدركيه، ولم يُسمَح للناس بتداوله.

لو أنني صدَّقتُ حديثكِ من أول الأمر، لما أهدرت أنفس أيام العمر في الهجر والبحث والضياع..

ولكن لا بأس حبيبتي..

سألحقُ بكِ أينما تذهبين..

فلا حياة لقلبي بعيدًا عن دفء صدرك..

موعد عند شاطئ بيروتشي

ضربَتْ لي تيها الحبيبة موعدًا عجيبًا هذه المرة.. عند شاطئ بيروتشي!

بعثَتْ لي برسالة حملتها صغرى بنات خالتها إلى الخادمة نينوتزي، لا تحمل اسمًا كالعادة، نقَشَتْ عليها برسمها الرشيق إحدى عباراتها البديعة:

«ستَحُطُّ الطيور جنوبًا فوق صخور بيروتشي.. بعدما أرهقتها السماء».

فهمتُ أنها تدعوني إلى لقاء هذه المرة عند الشاطئ الجنوبي لبحر بيروتشي، في الموعد نفسه. تعجبت لتغيير المكان، ولم أرتَح لاختيارها شاطئ البحر. ولكني سعدتُ أن تلقَّيتُ رسالة تحمل رسمها البديع، واسمها غير المكتوب، الذي قرأته وحدي..

حملني المحمل حتى مبتدأ سبيل المعبد، ثم أكملت الطريق المهجور بمحاذاة الشاطئ، سيرًا نحو الجنوب.

مرَّ من الوقت ما أثقل قلبي، وامتلأت نفسي بصوت الأمواج الموحِش، حتى شعرتُ بنفسٍ أخرى تدنو من ورائي. التفتُّ من حولي، فإذا هي تيها الحبيبة تقتفي أثري في هدوء..

- منذ متى وأنتِ تمشين خلفي أيتها العصفورة اللعوب؟!

- منذ تعلمتَ الطيران..

- أردتِ مفاجأتي إذًا..

- بل أردتُ أن أطأ بقدمي آثار قدميْك الكبيرتيْن..

لم نكَدْ نمشي خطوات وقد تشابكت يدانا، حتى استدارت تيها كي تواجهني..

شبَّكَتْ يديْها حول رقبتي، وارتقت بقدميْها قدميّ.. توقَّفْتُ، فأومأَت برأسها تستنكر توقفي..

تدهشني بابتكارها الدائم لأسباب العبث!

أكملْتُ السير ببطء، وحاوطْتُ خصرها النحيل خشية أن أزل بها، فسرى عبيرها يستحثني على الكلام..

- اشتقْتُ إليك كثيرًا تيها.. لِمَ تدَعين الشوق يستبد بي فوق ما أحتمل؟! كنتِ في الماضي أرأفَ بحالي منكِ اليوم.

- أوَلَسْتُ أشتاق إليك أنا أيضًا حبيبي؟

- أرجو ذلك!

- ألا تعرف مقدار حبي لك؟!

- ظننتُ أنني أعرف، وربما كنتُ مخطئًا..

أومأَتْ برأسِها مستنكرة ما أقول، ثم حَكَّت أنفي بأنفها مداعِبة، وأردفت:

- كُف عن ذلك شابي.. لم تعُدْ طفلي المدلل منذ صِرْتَ من كباار وجهاء الفردوس.

- كُفّي عن المزاح؛ فالأمر جاد بالنسبة لي، وقلبي ما عاد يحتمل!

- وأنت كفاك عبوسًا لأنك تشبه القندس تمامًا وأنت عابس..

صنَعَتْ بوجهِها هيئة ظنت أنها تحاكي شكل القندس.. فإذا بها لم تتغير.. أجمل الجميلات..

سألتها مبتهجًا:

- القندس؟!

- ها قد ابتسمْتَ وعُدتَ بشريًا مألوفًا كما كنت..

- أنا جاد تيها.. لمَ لمْ تأتي في الموعد السابق ولا الذي سبقه؟!

- سامحني حبيبي، لم أشأ أن تشاركني حزني واضطرابي منذ ما ألمَّ بالمعلم ماهيزو.. كنت أزوره كل يوم كي أرعى الحيوانات التي نقلتُها إلى بيته أيام كانت أناهيا موجودة، فأجده ذاهلًا، لا يجيب نداءً ولا يلتفت لصوت.. أضع إلى جواره الطعام، فأجده على حاله حيث

وضعتُه في اليوم التالي.. صار بطوله الفارع أنحف من فرع، وأيبس من جذع! كنت أبكيه طويلًا كلما أراه على هذا الحال؛ ولذلك أشفقتُ عليكَ من كآبتي..

- ولا تشفقين عليَّ من طول هجركِ لي؟!

نزلَت عن قدميّ، وأردفَت:

- كفاك شابي، لقد أوضحتُ لك الأمر..

جذبتُ رداءها من أعلى كتفها البضة، وقلت في صرامة:

- بعد زواجنا لن أدَعكِ تفلتين مني لحظة واحدة!

تلاشى المرح من عينيْها، وأطرقَت متسائلة:

- زواجنا؟ أما زلت تأمل في تصريح المعبد؟!

أجبْتُ بحِدة:

- ماذا دهاكِ تيها؟! وهل أيأس من أمر كهذا؟! ولِمَ أعيش إذًا؟!

فَرَقَ بيننا الصمت برهة، تأملَتْ فيها قولتي الصارمة، ثم أردفَت:

أتعرف بما أحلم شابي الحبيب؟ أحلم أن أذهب معك إلى حيث يختفي جميع البشر، ولا يبقى إلا أنا وأنت.. فلا تفرقنا مصاطب ولا يساومنا معبد.

- لا تذكري المعبد بهذه الطريقة، حبيبتي!

- أتظنني لم أعلم ما دار بينك وبين كبير المدونين؟! لا ترمقني هكذا باستغراب.. أعلم أنه حمَلك على ألا تسعى مجددًا إلى استصدار تصريح الزواج.. أعلم أن الأمر ليس طولًا في الإجراءات كما أفهمتني..

- وهل تتصورين أن أزهد في الزواج بكِ تيها؟!

- لا يا حبيب روحي، ولكنك لن تزهد في المعبد كذلك.. أما أنا فأترك من أجلك المعبد والناس، والفردوس بأكملها..

لم أجد ردًا على مقولتها، فقلت دون تفكُّر:

- أحبك تيها.

قالت بعد برهة:

- أشعر بك، ولكن الحب لا يحتاج إلى تصريح!

- نعم لا يحتاج، ولكن الزواج هو ما يلزمه التصريح..

أشارت إلى السماء وقد أضاء وجهها بالبهجة ثانية:

- فكيف تتزوج طيور الفردوس إذًا؟! أترى ذلك النورس البديع؟ لا يعبأ بطعام ولا بصيد، ويجوب السماء عابثًا خلف خليلته النحيلة تلك.

- هل سمَّيتِه شابي، أم ليس بعدُ؟

- بل سمَّيتُ خليلته تيها، وعليك أنت أن تسميه شابي.. إن شئت..

- وهل يجرؤ نورس على اللحاق بتيها النوارس إلا أن يكون اسمه شابي؟!

- فليكن شابي إذًا.. ولتفعل مثله..

أطلقَت يدي واندفعَت راكضة نحو الصخور! فصِحْت:

- انتظري! انتظري أيتها المجنونة! انتظري..

***

تسطَّحْتُ فوق صخرة كبيرة لمَّا أدركني التعب، متوسدًا ذراعيَّ، فاتكأَتْ بجواري تيها تعبثُ في شعري..

سألتها:

- لمَ جئتِ بنا إلى بحر بيروتشي اليوم؟ ألم تشتاقي إلى بحيرتنا الهادئة الحالمة؟

أشتاق إلى أي شيء يذكرني بك شابي، وما دمت معي فلا أشتاق إلى شيء.. فقط أردتُ أن أكون معك اليوم في حضرة بحر بيروتشي الثائر..

- ولكن البحيرة أكثر هدوءًا ودغدغة للمشاعر..

- وما حاجتنا إلى الهدوء وإلى الدغدغة؟ الأيام تعصف بنا في كل اتجاه، ولن يقوى على دفع ما تخلفه في نفوسنا إلا نسائم بحر بيروتشي الدافقة..

استدرتُ كي أواجهها، وأردفْتُ:

- كيف اكتشفتِ هذه البقعة النائية من الشاطئ؟!

- أعرف أنحاء هذا الشاطئ كأركان غرفتي.. هذه الصخور تعرفني أكثر مما يعرفني سريري.. نحن الآن في أقصى جنوب الشاطئ، فلا يمر بنا أحد من قاصدي المعبد مطلقًا..

أطرقتُ متعجبًا لبرهة، ثم أردفت:

- طالما عجِبْتُ لحبك هذا الشاطئ.. وهذا البحر المخيف!

- البحر مخيف!! كيف لم أدرك من قبل أنك تشبه جدتي إلى هذا الحد؟! أغمض عينيْك قليلًا.. نعم، تشبهها تمامًا!

أزحْتُ يدها عن عينيّ، مقبِّلًا أناملها، وقلت:

- كفاكِ عبثًا يا فتاة.. نعم، هذا البحر لا أمان فيه، ولا سلام..

- أرى أن شابي الطيور لا يوافقك الرأي..

- البحر مكمن رزقه.. أما نحن فلنا أرض الفردوس..

- بل هو ملهى حبه.. هذا الشابي لا يعبأ بالرزق اليوم؛ فهو مشغول بتيها السماء..

- ليتني أعرف الطيران حتى أُبهركِ مثله!

- ليتنا نسافر معًا إلى حيث لا يدركنا بشر..

- أتذهب معي شابي إلى ما وراء هذا البحر؟

- كُفِّي عن ذلك الجنون! هل يترك عاقل أرض الفردوس إلى مأوى الأطياف الشريرة؟!

- الفردوس هي حيث نكون معًا شابي، بلا رقيب ولا حسيب..

داعبتُ بسبابتي ظاهرَ كفِّها الأملسَ، وقلتُ مطَمْئنًا:

لا تقلقي يا شغاف قلبي، سنكون معًا عمَّا قريب.. أقرب مما تتصورين..

أثقل الصمت الهواء من حولنا، فتوقفت نسمات بحر بيروتشي عن الاندفاع، تنتظر أن يتكلم أحدنا.. فأردفتُ دافعًا الحديث في سبيل آخر:

- متى تذهبين إلى المعلم؟ أريد أن أقابلك في بيته، فأواسيه وأطمئن عليه، وأراكِ مرة ثانية.

- يالرقة قلبك يا شابي الماكر.. تزور معلمك كي تغازل تلميذته، بداخل بيته؟!

- فعلها هو قبلي مع زوجته أناهيا، في بيت أبيها قبل أن يتزوجا..

- أناهيا..

ترقرقت عيناها لذكرى السيدة أناهيا، فاحتضنت كفها مُهَوِّنًا:

- هوّني عليكِ تيها.. ربما تكون السيدة أناهيا أسعد حالًا الآن في حياتها الجديدة.

- أتكون هي تلك النورس الجميلة اللاهية؟ لا أظن.. فلن تحب غير ماهيزو الحزين..

- سأذهب معكِ لزيارة المعلم إذًا، وسألزم الأدب.. ما استطعت!

- ستلزمه رغمًا عنك؛ فقد أمرني أن أجلب إليه ميلزو وبنتو غدًا..

- ميلزو وبنتو؟!

- نعم.. لم ينطق أمامي بشيء آخر منذ رحلت أناهيا..

- وما حاجته لميلزو وبنتو؟!

- أظن الأمر يتعلق بإيماهو..

- آاه، إيماهو، لقد نسيت أن أسألكِ عن إيماهو! يالسوء أدبي..

لا عليك.. لن نطمئن عليه حتى يجد لنا المعلم مخرجًا، ولا أستطيع سؤاله عن تلك المسألة وهو في تلك الحالة البائسة.. أتمنى أن يكون قد أمر بمجيء ميلزو وبنتو من أجل ذلك الأمر..

- سيكون كذلك بمعونة المولى.. إذًا سأراكِ غدًا؟

نهضَت وأمسكَت بيدي تجذبني وهي تقول:

- نعم، قبل الظهيرة.. حاوِلْ أن تُنسيني أنك تشبه جدَّتي إلى هذا الحد عندما ألقاك!

ثم ركضت عائدة، فحاولت اللحاق بها صائحًا:

- تبًّا لكِ تيها.. توقفي! انتظري أيتها الخرقاء.. كُفِّي عن ذلك.. تعالي، أريد أن أقول لكِ شيئًا.. انتظري.

ماهيزو يتوثّب للانقضاض

التقيتُ على مدار ثلاثة أيام بابنيَّ وتلميذيَّ الحبيبين. ميلزو الحداد، وبنتو صانع السلال والحبال. جمعتنا جلسات مطوَّلة من الحديث المتصل، بدَّلت حياة ثلاثتنا، فلا ندري أتغيرت إلى الأفضل أم إلى غير ذلك. جلسات تخللتها الدهشة وأشعل وقودها الحماس، وانتهت إلى هم أكبر مما بدأت به.

صارحتهما بما لم أصارح به أحدًا من البشر، منذ كاشفتني أناهيا الحبيبة بحقيقة ما خبرَت من أحوال المعبد الكبير وأسرار العقيدة البعدية. قصصتُ عليهما ما لم يشهداه من حادثة تحطم سفينة مجهولة بالقرب من شاطئ بيروتشي، وكيف عمد المعبد الكبير إلى طمس أمر تلك السفينة عن أهل جزيرة الفردوس حتى لا تفتنهم عن عقيدتهم. قصصتُ كذلك ما شهدَته أناهيا الحبيبة من نقاشات محتدمة بين كبار الكهنة، إما في بيت أبيها وإما في مجمع الكهان؛ حيث كانت لا تفارق أباها في ليل أو نهار، وكان يواجه أي اعتراض يثيره وجودها بينهم بزجرهم على مبالغتهم في

التحفظ وسخافة تخوفهم من وجود طفلة في السادسة من عمرها، لا تدرك من حديثهم إلا حدة نبراته وعبوس وجوهه. كانت أناهيا الصغيرة ترسم وجوههم العابسة، المفعمة بالقلق والانفعال، على قصاصات من الورق، بينما تحتفظ في ذاكرتها بقدر من حكاياتهم وأسرارهم، وعباراتهم الفزعة الثائرة.

قصصتُ عليهما ما أدركته أناهيا بعد ذلك من صدمة بعض كبار الكهنة، كأبيها، وعدم تصديقهم لما حدث. فلم يخطر لهم ببال أن تصل إلى جنتهم سفينة تحمل نفرًا من دنيا العصاة. فيتساءلون أثناء وجودها عن معنى ذلك الأمر، ولا يرون فيه اتساقًا مع ما درجوا عليه من إيمان بحقيقة الفردوس، ودنيا ما بعد الدينونة. بينما يواجه فريق آخر تلك الصدمة الفزعة بصرامة وشدة، قد تصلان إلى حد التهديد بأن من يثبت عدم جدارته بحمل أمانة الكهانة ومسئولية الحفاظ على إيمان العباد، فليحدد موقفه من فوره، حتى يتخذ مجمع الكهان قرارًا في شأنه يخَلِّص العباد من عواقب هرطقته واهتزاز إيمانه.

استطاعت أناهيا الصغيرة في الأعوام التالية للحادث، بذكائها المتقد وذاكرتها المتلألئة، أن تستوعب كيف تمكَّن كبير الكهان، بمعاونة أقرب مساعديه وكبير شرطته، أن يسيطر على ذلك الزلزال الذي ضرب أركان المعبد، وكاد يعصف بجدرانه الثابتة الراسخة في رصانة السنين وعظمتها، أمام جموع أهل الفردوس من نبلاء ودوارج وعوام. استطاع

نهاية الأمر أن يستعيد زمام السيطرة، ويثبِّت قواعد الاستقرار من جديد، بعدما عوقب بعض الكهنة، وهُدِّد البعض، ودُفع البعض الآخر إلى مراتب أرفع، كأبيها الذي نال مرتبة كبير المدونين، واستقر على عرشها إلى ما بعد زواجي بأناهيا.

لم تكن تلك المرة الأولى التي يواجه فيها كبارَ الكهنة شيءٌ من الشكوك أو التساؤلات حول عقيدة الحياة البعدية، من داخل المعبد الكبير، وحتى من بين صفوف كبار الكهان، فلم يكن عجيبًا أن يصدر من أحد كهنة الأسفار حديثي الترقية إلى هذه المرتبة الرفيعة شيء من الاستغراب أو الاستفسار عن كنه رحلات المعبد، إذا ما امتلك الشجاعة الكافية للسؤال.

يصل كاهن الأسفار إلى هذه المرتبة بعد رحلة طويلة مع الكهانة، لا يربو علمه خلالها على علم العديد من النبلاء العارفين بعلوم الدين وأصول العقيدة، ثم يفاجَأ، إبَّان رحلته الأولى وركوبه البحر لأول مرة، أنه لا يشهد شيئًا مما كان يَرهَبه من أحوال البحر، وما كان يخشاه من جرَّاء الإبحار بعيدًا عن جزيرة الفردوس إلى دنيا العصاة، وأنه لا يصيب شيئًا مما كان يأمله من اتصال مع أهل المعصية، من أجل تفقد أحوالهم واستمالتهم إلى سبيل المعبد. لا يتعلم من هذه الرحلة إلا فنون الإبحار واستقراء السماء لتحديد الاتجاهات، ولا ينشغل أثناء تفقده لدنيا العصاة بغير التجارة وإصابة أحسن البضائع

بأبخس الأثمان، حتى يُدخِل السعادة على نفوس أهل الجزيرة، بعد رجوعه المنتظر.

يرتضي أغلب كهنة الأسفار بما يتلقَّونَه عمَّن سبقوهم في كهانة الأسفار، ما دام فيه صلاح الفردوس وأهلها، وما دام ينالهم الكثير من خيرات الرحلة، فيشكرون المولى على ما أفاء به عليهم من نعمة الأمن والسلامة، بعدما حفظهم من مواجهة قوى الشر التي انتظروها برهب، وأعفاهم كذلك من مهمة استمالة أهل المعصية إلى رحاب المعبد. فيحفظون أسرار رحلات المعبد، ويسعدون بما ينالهم من عطايا السماء وما يبلغهم من حفاوة استقبال أهل الجزيرة لهم وانبهارهم ببطولتهم. أما البعض فيتلمسون الطريق لسؤال كبار الكهنة عمَّا وجدوه في رحلتهم الأولى؛ حيث لا يقنعون بما سيق إليهم من توجيهات وشروح كهنة الأسفار القدامى، فيقابل كبار الكهنة كلًا منهم بما يليق به من إجابة.

يقابَلُ بعضُهم بمزيد من التطمين حول إرادة العلي وأوامره النافذة، التي لا يليق تجاهها السؤال والاستفسار، بينما يقابَل البعض الآخر بشيء من الوعيد إذا استمر في مراجعة الأوامر والإبطاء في الطاعة، وهؤلاء هم الندرة بين كهنة الأسفار، الذين يجري اختيارهم بدقة، ابتداء، على أساس من الطاعة والكفاءة في تنفيذ أوامر المعبد دون إبطاء أو مراجعة.

لكن الأمر في هذه الحادثة كان جللًا، والصدمة كانت مزلزلة؛ فإحجام قوى الشر عن الظهور يمكن قبوله لمعقوليته وحسنه معًا، كما أن التوجيه بعدم التعامل مع أهل المعصية إلا في البيع والشراء والمقايضة

يتم تفسيره دائمًا بانعدام الأمل في هدايتهم، واستحالة مصارحة أهل الفردوس بهذه الحقيقة حتى لا ييأسوا من رحمات السماء على العباد. أما بلوغ أهل المعصية حدود الفردوس فكان أمرًا مفاجئًا وصادمًا، يستعصي على التفسير ولم تجهَّز له التبريرات.

شكَّك بعض قدامى الكهنة ممن بلغهم الأمر في التفسير الذي ساقه كبير الكهان بعد عدة أيام من الحادثة، من أن ركاب السفينة كانوا من أهل المعصية الذين أنعم المولى عليهم بالهداية، وغشيهم برداء محبته وعطفه، فأراد أن يُبلغهم فردوسه. ولكن أطياف البحار المغتاظة لم تمكِّنهم من إتمام رحلتهم المباركة، لحداثة إيمانهم وضعف عزيمتهم في مقابلة قوى الشر.

همس بعض المشككين بعدم معقولية الأمر وصعوبة تصديقه، فكيف يكون للأطياف أن تحول دون تمام المشيئة العليا؟ وكيف لها أن تنال من أنفس أراد لها المولى الخلاص؟ كما أن ارتباك كبار الكهنة وعملهم الحثيث على إخفاء الأمر عن المسامع قد عضدا من هذه الشكوك؛ لذلك جاءت المواجهة حاسمة من جهة مجمع الكهان، حتى أغلق باب الهرطقة والخروج على أصول العقيدة وأوصده تمامًا بأقفال من الصرامة والوعيد، ثم فتح المجمع العديد من نوافذ المصالح والهبات، حتى استعاد سيطرته الكاملة على صفوف الكهان وأسرار المعبد.

كان ذلك كله مما احتفظت به الصغيرة أناهيا بداخل ذاكرتها، واستوعبته يومًا وراء يوم وهي تتقدم في العمر عامًا بعد عام، وقد امتلأ

خيالها وعقلها بما رأته من بقايا السفينة أثناء جمعِها وحِفظِها في غرف موصدة الأبواب وسراديب سرية في أغوار المعبد الكبير. فما إن كبرت قليلًا، حتى عمدَتْ إلى البحث عن مفاتيح الغرف المغلقة بين أغراض أبيها. كانت تلح عليه أن تبيت معه في صومعته، كي تتدرج في خدمة المعبد الكبير، فتتستر بأستار الليل وتعاود البحث ليلة وراء ليلة، حتى استطاعت أن تخترق خزانة الأسرار، وتفتش في أغراض أهل السفينة، بل وتقرأ بعض ما عكف أبوها على ترجمته سرًّا من دواوينهم ومخطوطاتهم. كان أبوها قد بدأ بترجمة خرائطهم ومخطوطاتهم للإفادة من معرفتهم بفنون الإبحار وعلوم الفلك، ثم استبدَّت به رغبة في البحث والمعرفة، أخذتها عنه أناهيا، فترجم كل ما وقعت عليه عيناه من دواوينهم ورسائلهم، مما وُجد في صناديقهم التي تم انتشالها من الماء. وقد تعلَّم مما وجد فن معالجة الأوراق بالزيت والدهن لحفظها من أضراس الزمن، بعدما أذهلته استحالة ما سطروه حتى على الماء، وقد نقل إليَّ ذلك الفن حينما تتلمَذتُ على يديه في كهانة التدوين، ثم علَّمْتُهُ بدوري لصغيرتي تيها، لما عاونتني في حافظة الكتب.

وجَدَتْ أناهيا فيما حمله أهل السفينة قصصًا وحكايات تحتفي بمحامد الأخلاق، ورسائل حب ولوعة، ومخطوطات تحوي صلوات وتأملات وتسابيح، فهامت حبًّا بهؤلاء القوم، وتأثرت بعبادتهم واستذكرت صلواتهم، واستراحت لما وجدته فيها من مناجاة السماء

وسؤال النجاة والعودة إلى الوطن والأحباب، أو الفردوس ونعيمها إذا ما انتهى بهم العمر.

أيقنَت أن للقوم دينًا وإيمانًا وصلاة، وأن صلة وثيقة تصلهم بالمولى العليّ، وتجعلهم يرجون فردوسه. علمَت كذلك أن للقوم وطنًا يُراد، وأهلًا محبين ينتظرون، وأملًا في أن تصل بهم عبادتهم إلى بلوغ الفردوس الموعود بحلول يوم الدينونة. صدَّقَت القوم دون أن تراهم، وآمنت بعقيدتهم مما تركوه لها في أعماق البحر من درر الإيمان وجواهر المحبة. أيقنت أن المولى قد ساق إليها السفينة والبحارة الغارقين والكهنة المنزعجين وجنود الشرطة المتراصين وأباها المأخوذ برغبة البحث والمعرفة، حتى تبلغ ذلك اليقين.

أيقنت أن الدينونة لم تحلّ بعد..

كانت أناهيا كمن اكتشف كنزًا ولا يستطيع أن يُطلِع أحدًا عليه، فنقلت ما أفاءت السماء عليها به من قصاصات التسابيح المُترجَمة إلى بيت أبيها، واحتفظت بها سرًّا، تقرأ فيها وتتعبد بها كلما سنحت لها الفرصة، في غفلة من أهل بيتها. لم تُشرِك أحدًا في سرها حتى أطلعَتْ عليه من أحبت وتزوجت، فكنت أنا من خذلها أول الأمر، ربما لعدة سنوات، حتى اطمأننْتُ إلى صدق ما جاءت به. وها أنا أستجيبُ اليوم لدعوتها بعدما اطمأننت بموتها ألا يحل بها العذاب ولا ينال منها إبعاد.

استقبل ميلزو وبنتو هذا الحديث بمزيج من الذهول والارتياح. صدَّقاني كما فعلا دائمًا، وطلبا مني الاطلاع على صلوات أهل السفينة

وتسابيحهم، ففعلت. لاحظتُ على أعينهما شدة التأثر والضراعة، فأوضحتُ لهما أنني لا أطمئن إلى صحة عقيدة أهل السفينة، ولكنني صرتُ مطْمَئنًّا إلى زيف عقيدة الحياة البعدية التي وُضِعت لخلق فردوس زائف، لا يرجو ساكنها شيئًا إلا دوام معيشته فيها، فيقنع بمكانته منها ويسلِّم إلى سلطة المعبد غاية التسليم. ولم يخرج عن ذلك التسليم فيما أعلم سوى جماعة توهو، وأناهيا الحبيبة..

- أنت ميلزو وأنت بنتو، أنتما بذرة الشك كما كانت أناهيا شجرة اليقين؛ ولذلك أستعين بكما في تثبيت شجرة اليقين، كما استعنت بكما في الماضي في بذر بذور الشك.

امتلأ الشابان اليافعان حماسًا وإصرارًا على معاونتي فيما أردت، واستفسرا عمَّا أنتوي القيام به، فطمأنتهما أني سأبعث في طلبهما ثانية عمَّا قريب. أمرتهما ألا يحدِّثا أحدًا، أيًّا ما كان، بما دار بيننا في تلك الأيام الثلاثة، وأن يخبرا الناس أنهما كانا في معونة أستاذهما حتى تجاوز محنته وعاد إلى المعبد الكبير.

شابي في نخب نجاحه

ثمانٍ وستون.. تسع وستون.. سبعووون..

اممم.. جيد..

- اجمع بقية النقود في الصندوق الفضي ثم أعِده إلى مكانه في الخزانة.

- أمركم نافذ سيدي.

- ضع هذا القنديل في الصندوق الذي أشرتُ إليه، بعدما تنظف الصندوق جيدًا، واصنع بداخله وسادة من قش حتى لا يتحطم القنديل.

- نعم سيدي.. ثم أذهبُ به إلى بيت صاحبه..

- من صاحبه دانيبو؟ أتعرف صاحبه؟

- سيدي أعرف وأعلم! أقصد إلى بيت من اشتراه، كالمعتاد!!

لا دانيبو، هذا القنديل ليس للبيع.. سآخذه معي، اصنع كما أمرتك.

- أمركم نافذ سيدي.

سيعجبكِ هذا تيها.. لا بد أن يعجبك قنديل جميل ملون الزجاج كما تحبين دومًا. لعله يليق بغرفتك الساحرة، فتستأنسين بضيائه مساء كما تأنسين لشباكنا الملون صباحًا. ولتذكريني كلما سكن الأنس نفسك الهائمة على الدوام..

لا أصبر على انتظار لقائنا المقبل حتى أزف إليك أنبائي المبهجة. لا أظنكِ سوف تتمالكين نفسك من الدهشة والسعادة.. من يصدق أن يتمكن شابي، حديث السن والتجربة، من أن يجمع قيمة دكان فخم كدكان السيد كواتو، الكائن في قلب ميدان الزهور في السوق البيضاء، أهم أسواق الفردوس، وفي مدة وجيزة كهذه؟!

صحيح أن السيد كواتو كان زاهدًا في قيمة الدكان زهدًا لا يليق بفخامته وموقعه، ولكن حبه لي ورغبته في دفعي خطوة هائلة إلى الأمام هما اللذان حملاه على ذلك الزهد.. حتى الحب والتشجيع ليسا إلا ثمرة لجهدي ونجاحي في استمالة أعظم وجهاء الفردوس إليّ، بل وإقناعهم بموهبتي ونبوغي أيضًا..

سأُهدي لكِ هذا النجاح يا حبيبة قلبي، مغلفًا في هذا الصندوق الخشبي الجميل، الذي بطَّنتُ لكِ قاعه بمسحوق الزهور المجففة وأوراق النعناع والريحان.. يحدثني قلبي أن القنديل البديع سيضيء في قلبك الحائر أملًا جديدًا، قادرًا على العبور بنا إلى الحلم الذي لا تظنينه ممكنًا، بينما أراه أكيدًا..

الأحلام تتحقق، كما كنتِ تقولين في الماضي يا بهجة الفردوس. كل الأحلام تتحقق، إذا امتلكنا ما تستأهله من الموهبة والثبات، وقد منحني المولى الموهبة.. فلا أحتاج منكِ سوى الثبات.

انتهى دانيبو من إعداد الصندوق كما وجهته، ببطئه وحرصه المعتادَين ذاتيهما، فسألته:

- هل جهَّزْتَ المحمل دانيبو؟

- في انتظاركم سيدي..

هل تأكدتَ من إرسال كل ما أمرَتْ به الوالدة المبجلة إلى القصر؟

نعم سيدي، كل شيء.. الفواكه المجففة، ومسحوق الذرة، والزبيب.. وأيضًا ملابس الخدم الجديدة.. متّعتني السماء بلقاء السيدة المبجلة الوالدة، صباح اليوم، ورأيت الزهو يملأ وجهها الكريم وهي ترفع صوتها وتقول: هل أشرف السيد شابي بنفسه على تغليف وإرسال هذه الصناديق المنمقة دانيبو؟

ها قد بدأ دانيبو في استعراض مهاراته في تقليد الأصوات والحركات! لا بد أن أوقفه عند هذا الحد، وإلا فلن ننتهي اليوم..

- كفاك ثرثرة دانيبو، احمل هذه الأغراض إلى المحمل.

- أمركم نافذ سيدي.. ثم أجبتُ السيدة بصوت مرتفع كذلك حتى تزدادَ بهجة: نعم سيدتي المبجلة، كان السيد النبيل شابي سول بتاتشي

شديد الاهتمام بما أمرتم بإرساله من حاجيات، وأشار بتوجيهات مستحدثة لم نسمع بها من قبلُ تخص التغليف والترتيب..

- صرتَ ثرثارًا دانيبو..

- بل فخور بكم سيدي، كما السيدة الوالدة.. شرُفْت بصحبتكم منذ طفولتكم وحتى اليوم، فلم أجد سعادة مثل ما أجد معكم اليوم.. فدعني أفرح.. لا أطيق انتظارًا لذلك اليوم الذي أنتقل فيه معكم إلى الدكان الجديد في قلب السوق البيضاء..

- لا أظن المبجل أبي يوافق أن تترك مكانك هنا كي تعاونني في الدكان الجديد دانيبو..

- سيدي، لا تقولوا ذلك، أرجوكم.. أنا لا أصبر على فراقكم يومًا واحدًا! أرجوكم أن تتوسطوا لي كي يأذن لي الوالد المبجل أن أرافقكم إلى هناك!

- سأفعل.. ولكن اسبقني الآن إلى المحمل..

ما هي إلا خطوات حتى التفت دانيبو الثرثار ثانية كي يستكمل ثرثرته:

- ألا تأمرون المحمل، سيدي، أن يتوقف عند دكان توارِج النجار؟

- عدنا ثانية! ولِمَ هذا؟

- هو أفضل نجاري الفردوس سيدي.. نحتاج إلى لافتة كبيرة من خشب الصنوبر شديد الصلابة، تنقش على سطحها الأحرف الأولى من اسمكم سيدي: ش، س، ب.. نبيع أجود القناديل والمصابيح.. هييه.. كم أتوق إلى ذلك اليوم!

- اممم، فكرة لا بأس بها دانيبو.. لقد فاتني أمر اللافتات.. ولكنني أرى أن الأوفق هو أن ننقش عليها لقب بتاتشي دون الأحرف الأولى من اسمي. هي تجارة العائلة على أي حال، ولم آتِ بنفقاتها من مال يخصني دون غيري..

- لا سيدي! عذرًا لسوء أدبي وتسرعي، فأنتم أحكم وأفهم! لكنني أخشى تفريطكم فيما تستأهلونه بالتواضع وإنكار الذات.. لم يفعل المبجل والدكم إلا مثل ذلك عندما بلغ العشرين من عمره المديد، وصار مؤتمرًا على تجارة العائلة.. أخذ ينقش اسمه على الواجهات كلما افتتح دكانًا أو ورشة جديدة، حتى علا اسمه وسطع نجمه فوق نظائره وبات أعظم نبلاء الفردوس! أنتم الأجدر اليوم بهذه المكانة، بما امتلكتم من موهبة فذة..

- سأفكر في الأمر دانيبو.. ربما الأوفق أن نكتب: ش، س، بتاتشي، فيرتفع اسمي واسم العائلة معًا.

- آاه، أرأيتم سيدي؟! أرأيتم كيف تتفردون بالموهبة والذكاء؟! فكرة عظيمة حقًا!

- لم أقُل شيئًا يستحق دانيبو.. هي فكرتك أنت بالأساس.. هيا كُف عن الثرثرة وانهض لعملك واستحث خطاك.. لقد أضعتَ من الوقت الكثير. أمامنا الكثير من العمل، وأريد الانتهاء من ترتيب كل هذه الصناديق في الدكان الجديد اليوم..

- أمركم نافذ سيدي.. لن أرقد اليوم إلا وقد انتهيتُ من ترتيب كل شيء. بل ربما أجد وقتًا في المساء لإعداد مزيد من الصناديق المتبقية هنا..

- إذًا اسبقني إلى المحمل دانيبو.. هيًا..

تيها تستدرك

سمعت بخبر شابي كما سمع به الكثيرون..

تناقلته ألسنة الدوارج والعوام وآذانهم في الأمسيات اليومية، التي تجمع كل طائفة منهم حول مائدة خبر من أخبار النبلاء.

هكذا عهدي بكم دومًا يا أبناء طبقتي، وكذلك أنتم يا عوام الفردوس وبسطاءها.. تنزل بكم نازلة فتتقاربون وتتكاتفون، حتى ليظن الجاهل بأمركم أنكم لن تتفرقوا ثانية.. ثم سرعان ما تستدعيكم الحاجات والأرزاق، فتتهافتون كلٌّ في سبيله، فلا يجمعكم من جديد إلا خبر من أخبار النبلاء، الذين لا يلقون إليكم بالًا، ولا يرعون لكم ودًّا!

هكذا نسي القوم أمر إيماهو المسكين..

وهكذا بلغني خبر شابي الحبيب..

بلغتني أيضًا هديته الجميلة، مع جارية بدينة لطيفة من جواري قصر بتاتشي، لم أرَها قبل هذا الصباح، سمراء البشرة، واسعة الثغر، بيضاء

الأسنان، لها ابتسامة طفولية محببة لا تفارق وجهها أثناء الحديث، ترتدي رداءً لطيفًا من أردية الخدم، تنسدل من أعلى صدرها الناهد حتى منتصف الساقين قطعة واحدة من الكتان الزهيد، غير المصبوغ، نُقِشَتْ على أعلاه لفظة بتاتشي بخيوط الصوف الحمراء والخضراء.. قالت لي بكلمات مقتضبة مغلفة بالخجل:

- بعث لكِ السيد شابي سول بتاتشي بهذه الهدية الرقيقة يا آنسة.. إيحاءً منه بحبه الغامر ورغبته الصادقة في إسعادكِ مدى الحياة.

سألتها إن كان السيد شابي هو من قال لها ذلك بنفسه، فقالت:

- لا يا آنسة، ولكنني امرأة قد علمتها السنون أن تقرأ كل شيء، إلا الكلمات والأحرف.. وقد قرأتُ معنى الهدية التي تسكن هذا الصندوق الخشبي الجميل.. مثلما التقَطْتُ إشارات مسحوق الزهور المجففة الذي يفوح عطره من داخل الصندوق، وقد امتزج بأوراق النعناع الجافة التي سحقتُها بنفسي من أجل السيد النبيل في الليلة الماضية.. كل هذه الأشياء تقول ما هو أكثر من ذلك.

شكرتُ لطفها، وطلبتُ منها أن تدلف إلى حافظة الكتب كي أسقيها قدحًا من شراب القرنفل.. نظرت نحوي إحدى عينيْها باستغراب خجِل والأخرى بامتنانٍ مبتهِج، ثم اعتذرَتْ بحاجتها إلى العودة سريعًا إلى القصر، قبل أن تشعر بغيابها سيدة القصر المبجلة؛ حيث أمرها السيد شابي ألا تحدِّث أحدًا بما أرسلها في شأنه.

عدتُ إلى مجلسي أسفل مقعد سيدي المعلم، وحيدة كحالي في الأيام السابقة منذ انتقال الجميلة أناهيا إلى حياتها الجديدة.. كنت في السابق أختلس لحظات فراغ المقعد من سيده المبجل، فارع الطول، كي أعتليه بجسمي الضئيل، ولو لبرهة، أستقبل خيوط الشمس الحريرية المنسدلة من أعلى.. ولكنني اليوم أجلس أسفل منه طيلة النهار، في انتظار سيدي المعلم الذي لا يجيء أبدًا، ولا يبرح عزلته..

فتحتُ الصندوق الموشى، فانبعثت لانفراجة غطائه عطور حقيق بها أن تفوح في ربوع الفردوس.. التقطتْ عيناي جزءًا من جسم صلب من الفخار والزجاج، برز أعلاه من أسفل وسادة من الغبار الملون.. سرى من ذلك الغبار أريج زهور برية، أو نعناع جبلي لاذع، ربما مزيج من الاثنين، فتذكرت مقولة الجارية اللطيفة. فهِمْتُ أنه خليط جديد ابتكره شابي الرقيق كي يملأ نفسي بالبهجة من جديد!

حبيبي أنت، شابي..

تتسلل يداك لتلمس قلبي مباشرة، دون حاجة لتحسس الطريق.. ولكنني أنا المقصرة، لا أنت! أنا التي تغيَّرَت مشاعرها وتحوَّلت عمَّا كان يسعدها في السابق، فلا ذنب لك. آااه.. آااه لو تحقق أملي وتأخذني بعيدًا عن كل شيء، شابي الحبيب.. بعيدًا عن البشر وأمسياتهم، عن المعبد وعقوباته، عن المصاطب والطبقات، عن الحقيقة ذاتها،

فلا يبقى إلا نحن.. أنت وأنا.. وربما الطيور، وكذلك الشواطئ، واللمسات الحريرية، والأشعة الملونة، وما يكفينا من زاد وحب!

نفضتُ الغبار الملون ذا العطر النفاذ من فوق الأسطح الفخارية والزجاجية دقيقة الصنع، فتمثَّلَ بين يدي قنديل لم أرَ أبدع منه قط، في صنعه وألوانه ونقوشه! أبهرتني ضخامة حجمه ورشاقة تكوينه ودقة نقشه وتلوينه وصناعته الفريدة!! هو بلا شك من النفائس التي أتى بها أسطول المعبد المبارك من بلاد العصاة، في رحلته الأخيرة!

أخبرني شابي الحبيب كم بذل من جهد في صياغة عريضة المطالب التي تقدم بها إلى كهنة الأسفار، صاغ فيها وصفًا دقيقًا مفصلًا للبضائع التي يرجو أن تفيء عليه بها رحلة المعبد المباركة..

أظن أن المولى قد أفاء عليه بأكثر مما طلب؛ فهو غارق منذ أشهر في التجارة بيعًا وشراءً! حتى بلغتني هديته الباهرة، مثلما بلغني خبره من أمسيات الدوارج والعوام.. أظنه أراد مفاجأتي، فلم يشأ إخباري بما آلت إليه أحواله، حتى يبلغني الخبر من غيره.

شابي يحب أن يبهرني نجاحه، مثلما يود أن تبهرني هديته، ومن حقه عليَّ أن أمنحه ذلك الشعور، فطالما منحني أرقَّ المشاعر وأعذبها.. ولكنني في قرارة نفسي لا يبهرني ما ينبهر به النبلاء، وربما لا يسعدني كثيرٌ مما يُسعِد أقراني من الدوارج أيضًا..

مكثتُ في حافظة الكتب حتى غربت الشمس، أو كادت، كي أضيء القنديل البديع وأختبر ضياءه.. تصورتُ أن يزيد الضياء من بهائه وجمال تكوينه، ولكن ليس إلى هذا الحد!! أذهلني جماله إلى حد الولع به، بعدما أضأته!

في زجاجه نقوشٌ غير مرئية، لم ألحَظْها قبل تلك اللحظة، ظهرَت جليَّة بعدما ارتقت أعلى فتيله العريض شعلة متراقصة.. نقوش أشبه بأحرف لغة غريبة متراصَّة، غير متلاصقة.. ظلت الأحرف تكبر وتصغر، تتمدد وتنكمش، كلما تراقصت من ورائها الشعلة اللعوب! أخذتُ أقلِّبُ القنديل في كل اتجاه، أراقب النقوش البديعة اللاعبة في ذهول تام!! من قام بصنع هذا؟ وكيف صنعه؟ أي عقل وراء هذه المعجزة التي لا أكاد أتصور وجودها؟

وجدتُ نقشًا آخر في قاع القنديل، أسفل الشعلة، لم ألحظه أول الأمر، فأخذتني نوبة جديدة من العجب! ماذا أراد الصانع البارع بهذا النقش العجيب؟! ولِمَ اختار له ذلك المكان غير الملاحَظ في قاع القنديل؟! هل فكر في نقش اسمه مثلًا حتى يخلِّد معجزته وإبداعه؟! لا أعلم!

خطر لي كم كنتُ أتمنى لو كانت أناهيا الحبيبة معي اليوم، حتى أُطْلِعَها على ما رأيتُ من بديع صنع البشر، وأستشيرها في أمر تلك النقوش العجيبة التي تسكن باطن الزجاج الملون وقاع القنديل.. أناهيا

أغزر مني علمًا وأوسع اطلاعًا.. حزنت لهذه الخاطرة، رغم أنها جرّت إليَّ خاطرة أخرى أشعلت في نفسي الإلهام من جديد.. لِمَ لا أذهب بالقنديل إلى المعلم ماهيزو حتى أُطْلِعه عليه وأستفتيه فيما يحيرني، ثم أسأله أن يحتفظ لي بالقنديل في بيته، أو في حافظة الكتب إن شاء، فلن أستطيع الذهاب به إلى البيت على كل حال. من ذا الذي يستطيع أن يحصل على قنديل كهذا دون أن يُهديه إليه نبيل مثل شابي؟! هي فرصة كذلك لتلمس زيارة المعلم ماهيزو والسؤال عن حاله، فقد شَقَّ عليَّ انتظاره في الحافظة كل يوم بلا رجاء، ولا إشارة منه تطمئنني أنه ما زال يذكر أمر إيماهو العطوف، وأنه في سبيله لإنقاذه قبل أن ينزل به عذاب المعبد..

بدافع من شعلة الحماس تلك، وهَبْتُ شعلة القنديل زفرة باسمة، أحالتها إلى حالها السابق.. قبل أن تشرع في الرقص!

***

أدركتني نجدة يابيتو، طيب القلب، عند الحديقة الأمامية لدار الكاهن المبجل ماهيزو، قبل أن أهوي بالصندوق الخشبي على الأرض. لم أعتَدْ أن أحمل شيئًا ثقيلًا كهذا، لمسافة كالتي بين المعبد الكبير ودار المبجل ماهيزو.

لمحتُ يابيتو يروي شجيرات الحديقة بماء حمله في دلو معدني صدئ، فناديته مستنجدة، فأتاني مهرولًا مترجرجًا كعادته.. وكعادته

أيضًا أخذ يرفع حزامه الحريري اللامع الذي يحيط بالرداء حول بطنه البارز، بعدما انزلق خطوة وراء خطوة.. التقَطَ من يدي الصندوق الخشبي الثقيل، فانبعثت بزواله الآلام في ذراعي وكتفي وصدري في موجة هادرة، خلَّفت من ورائها خدرًا ناعمًا..

لاحظ يابيتو آثار الألم على وجهي، فسألني:

- ماذا بكِ آنسة تيها؟!

- لا شيء يابيتو أكثر مما رأيت.. أشكر لك صنيعك.. لقد أنجدتني قبل أن أخِرَّ ساقطة بحِملي..

- خادمك المطيع آنسة تيها.. ولكن الصندوق ليس ثقيلًا إلى هذا الحد!

- هو صخرة من صخور شاطئ بيروتشي بالنسبة لي، فلا تجعلني أحسدك يابيتو..

أردف ذاهلًا:

- تحسدينني أنا يا آنسة؟!

- نعم يابيتو؛ فأنت شديد القوة، ولكنك تخفي قوتك تحت أكوام اللحم هذه حتى لا يحسدك من يملكون أجسامًا هزيلة مثلي..

- سيدتي!!

- خُذ الصندوق إلى سيدنا الكاهن ماهيزو المبجل، وأخبره أن تلميذته تيها تستأذنه في الدخول.

- أمركِ نافذ آنسة تيها..

نقل يابيتو الصندوق إلى جانبه الأيمن، فتأبطه بذراع واحدة وأسنده إلى جنبه اللحيم، وسار مزهوًّا بقوته يهتز يمينًا ويسارًا في خيلاء وخفة، فبدا لي أطول قليلًا من ذي قبل.. سرتُ وراءه حتى ابتلعه ظلام أول الليل الذي يسكن البيت الحزين، منذ رحلت عنه سيدته الجميلة..

***

دخلتُ على المعلم بعد أن أذِن لي، فهالني ما رأيتُ على وجهه من أمارات افتقاد الشهية والنوم.. جثوتُ على ركبتي أمامه وقبَّلتُ يده، وقلت:

- من لتيها سواكم يا معلم حتى تحيلوها إليه كل هذه المدة؟! لا أب لي فألقي عليه أحمالي، ولا معلم فيضيء لي السبيل.

خرج عن صمته كمن يقوم من رقاد طويل:

- أما المعلم، فلم أعُد نافعًا لكِ يا ابنتي ولا لغيرك.. وأما الأب، فأنتِ تعلمين قدركِ في قلبي.. أنتِ ابنتي التي لا تحمل اسمي.. أنتِ تيها سيل تيماهو بالنسبة للكون كله، إلا هذا البيت..

أنتِ هنا تيها سيل فاشوري، ابنتي التي لم تلِدْها لي أناهيا الحبيبة.

- أنا ابنتكم حتى قبل زواجكم بالسيدة أناهيا سيدي المعلم! كنت طفلة تلهو من حولكم في فصول المعبد وفي حافظة الكتب، منذ كنتم في كهانة التعليم، وحتى هنا في هذا المنزل، أنسيتم؟!

- لا يا ابنتي.. لم أنسَ، بل أظن أن السماء قد حرمتكِ الأب وحرمتني الذرية حتى يحرص كل منا ألا يفقد الآخر.. ما استطاع.

- إذًا فلِمَ الفراق يا معلم؟

- ليس فراقًا يا بنيّة، ليس كذلك بالطبع.. بل خلوة وصلاة في محراب عشق تركتُه زمنًا، والتجأت لمحراب آخر لم يكُن أهلًا لي، ولم أعُد أهلًا له..

لم أفهم تمامًا ما يرمي إليه المعلم.. ولكنه لم يقصد سوى أناهيا بهذه الكلمات المُبهمة..

قلتُ له:

- أناهيا كانت حلمًا، لا بشرًا مثلنا.. والأحلام تتبدد، ثم تعود يا معلم.. عودوا إلى عملكم الكادح كي تخلُدوا آخر اليوم إلى نوم عميق، يأتيكم بأناهيا في أحلامكم كل ليلة!

- سأعود يا بنيتي.. غدًا أعود بعدما أكون قد أتممتُ خلوة شهر، في محراب أناهيا.

- أصِدقٌ ذلك يا معلم؟! أتأتون غدًا إلى الحافظة؟!

- وهل يمازحكِ المعلم، تيها؟

- عذرًا سيدي، لم أقصد، ولكنني أشتاق إلى عودتكم أيما اشتياق!

- لا عليكِ تيها.. اذهبي فأعِدّي شطائر الملح كي نولم بها في حافظة الكتب غدًا..

- هذا أسعد خبر في حياتي!!

قمتُ أرفل في السعادة حتى كدتُ أنسى أمر القنديل، الذي أتيت المعلم من أجله.. ولكنه ذكَّرني:

- ما هذا الذي جئتِ به يحمله يابيتو؟

- آآاه.. سهوتُ عنه! انتظر سيدي، سأريكم أجمل صندوق خشبي رأيته في حياتي.. أرأيتم كم هو بديع؟

- إنه جميل حقًّا.

- ما يحمله أجمل بمرات.. بل خارقة من الخوارق سيدي المعلم.. إنه قنديل بعث به شابي مع إحدى جواري بتاتشي هذا الصباح، فأبهرني جماله، ولكنني ما إن أسرجته حتى... انتظر سيدي، سأريكم.

قمتُ أرفع القنديل فوق المنضدة الصغيرة التي تتوسط الغرفة، ثم جذبْتُ شمعة من سراج جانبي، وأطفأتُ السراج الآخر المعلق في السقف، فسادَ الظلام الغرفة، إلا من ضوء الشمعة التي أحملها..

قربتُها من جوف القنديل البديع حتى أضأت فتيلَه، ثم أطفأتُ الشمعة قبل أن تحرق إصبعي.. فلم يبقَ إلا ضياءه الونيس المُتراقص!

- أرأيتم سيدي؟!

- إنه لعمل خلاب يسلب اللب بالفعل.

- إنه مبهر يا معلم!! أرأيتم تلك النقوش كيف استوطنت باطن زجاجه فلا تلتمسها الأيدي من الداخل ولا من الخارج؟!

- هي أحرف باللغة النورالجية، نُقشت في تكوين بديع حقًّا..

- أحرف! هذا ما ظننته سيدي.. هل لكم أن تقرؤوها عليَّ يا معلم؟!

- إن شئتِ فعلتُ، ولكن ليكن ذلك سرًّا تكتمينه تيها؛ فقد تعلمتُ النورالجية دون إذنٍ من المعبد..

- هل يحظر المعبد على الكهنة أيضًا تعلم لغات هؤلاء القوم سيدي؟!

- المحظور في المعبد أكثر من المسموح يا ابنتي، فليبقَ ذلك سرًّا فيما بيننا.

- نعم سيدي.. ماذا تقول الأحرف إذًا؟

حدّق المعلم في جوف القنديل قليلًا، ثم أردف وهو لا يزال ينظر بداخله:

هي كلمات تتكون من تلك الأحرف بديعة التكوين. أحرف النورالجية لا تتشابك كي تُكوِّن الكلمات، كما في لغتنا، بل ترتص متقاربة في تكوين أشبه بالزخرفة، فتُعرف الكلمة من مجموع الأحرف في التكوين.

- هل هذه كلمة، سيدي المعلم؟!

- كل سطح من هذه الأسطح الزجاجية يحمل كلمة.. أو إن شئتِ لفظًا من ألفاظ النورالجية.

أشرت نحو السطح المقابل لي، وسألته:

- فما هذه اللفظة، سيدي؟

- الراعي.. هذه تعني الراعي.

- وهذه؟!

- الداعي.. وهذه الغافر.. وهذه الأخيرة تعني المُطْلَق.

- ألفاظ عجيبة سيدي الكاهن!!

بعد برهة من التأمل، نظر إليَّ وقد اتسعت عيناه حماسًا، كما لم أرَهما منذ زمن، وأردف قائلًا:

- أعرف اثنين منها يا ابنتي.. ولذلك يمكنني استنتاج البقية.

- أي اثنين يا معلم؟!

- المُطْلَق.. من أسماء مولى الخلائق عند أهل نورال، والغافر كذلك.. ولم أسمع بالراعي أو الداعي من قبل.. ولكنها بلا شك...

- أسماء للمولى العلي أيضًا!!

- أحسنتِ يا بنيّة.. هي كذلك بالتأكيد.. هذا قنديل شديد الخصوصية في اعتقادي. ربما تُضاء بمثله الصوامع، أو دور العبادة..

أُخِذتُ عجبًا لمقولته الأخيرة، فظننتُ أنني لم أحسن الفهم، فسألته:

- هل لأهل هذه البلاد دور عبادة سيدي؟!

قال بفتور، وكأن الأمر لا يعدو كونه حقيقة إضافية لم أسمع بها من قبل:

- بالتأكيد يا ابنتي.. هم أهل عبادة كغيرهم..

من اشترى هذا القنديل من كهنة الأسفار لا يقرأ النورالجية بالطبع، وقد أُخِذ ببهائه، وربما بهظ ثمنه، فاشتراه لصالح من أرسل في طلب القناديل الثمينة.. وقد ساقته السماء إليك دون إرادة من بشرٍ يا تيها النقية.. أظن الداعي يستدعيكِ لأمر ما يا ابنتي.

- ماذا يعني سيدي الكاهن؟!

- لا شيء تيها، لا شيء.. إلا أن الأقدارَ تسوقنا خيرًا مما نسوق نحن أنفسنا.. لا تَعرِف النعاج للمرعى سبيلًا.. فتتخبط برهة، وتسير مع القطيع برهة، ولا يتركها الراعي إلا وقد أوصلها في الموعد المعلوم.

صمَتُّ.. ولم أردِف..

لم يكن الوقت الأمثل لعلاج بطء فهمي؛ فالمعلم ما لبث أن استعاد شيئًا من حماسته السالفة.. مكثتُ أُحدِّق في قاع القنديل ربما أفسر شيئًا مما قاله المعلم، فسألني:

- أوجدتِ شيئًا جديدًا؟

أفضَيْتُ بما تبقى من حيرتي:

- هناك شيء آخر يا معلم.. توجد لفظة أخرى في قاع القنديل هنا، ربما ترَون أن تُلقوا عليها نظرة.. فربما...

- امم.. ها قد أوصلنا الراعي في الموعد تمامًا يا بنيّتي.. هذه لفظة الفردوس عندهم، ونُطقها جنة الخلد.

- جنة الخلد؟!

ماهيزو يناور

صنفان من شراب واحد: الحزن وصفاء النفس..

أيهما تجرع ماهيزو يُسكرك، ثم يسري إلى أطرافك، فتتباطأ الحركة حتى يسكن الجسد، وتتهافت الانفعالات حتى تستحيل خدرًا هادئًا، مستدامًا. وقد أثملك الحزن ماهيزو، حتى صَفَتْ نفسك بطول أمده، فلا تستعجل الحركة، ولا تنسَق وراء انفعال؛ فقد صيَّرتْك السنون أكثر حكمة، كما جعلتك الأحزان أصبر على السكون والـ...

واللاحركة..

لكل حركة ثمن.. ربما كان الثمن باهظًا هذه المرة، فوق ما يحتمله القلب. قد يكون الثمن حياة أحد تلميذيْك المخلصَيْن، ميلزو أو بنتو، اللذين تدفعهما إلى مصير غير مأمون، أو ربما يكون الثمن فقدان أعزّ ما جادت به عليك الحياة..

تيها!

كنت قد اختبرت قدرة ميلزو وبنتو على الكتمان من قبلُ، في شأن جماعة توهو، فلم تسمع بها شرطة المعبد، رغم سريانها في ربوع الفردوس سريان الدم في الجسد الحي؛ لذلك وضعت خطة سرية قوامها ميلزو الحداد، وبنتو صانع السلال والحبال..

وشخص ثالث لا أعرفه!

الخطة تعتمد على شاب جسور القلب، قوي البنية، حافظ للسر، يقبل بتنفيذ المهمة الموضوعة دون تردد أو إبطاء. رأيت أن يكون ذلك الشخص تلميذًا من تلامذتي كميلزو أو بنتو، حتى يستعين بمخزون ثقته فيَّ. تمنَّيت أن أعثر على مبتغاي في أبناء جماعة توهو، فإن لم أجده فيهم فلا بأس. أما الشرط الأهم فهو أن يكون من أبناء العوام، من العاملين في قصر كواتو سول ماتيهو، أو من المترددين عليه على الدوام، وهؤلاء كثر.

وضعت أمر الاختيار بين يدي ميلزو وبنتو، بالتشاور فيما بينهما ودون الرجوع إليَّ، حتى لا نثير ريبة ولا نفشي سرًّا. فإذا ما وجدا من يظنان أنه أهلٌ لأداء مهمة تستلزم رباطة جأشٍ وقوة بدنٍ وإيمانًا لا يتزعزع بما يؤمن به أبناء توهو، قام أحدهما بتجنيده للقيام بمهمة غير محددة المعالم بعدُ، تحت لواء كاهن موثوق في علمه وعمله لصالح العدل والخير. يقوم بالتجنيد من تتفق ظروفه واللقاء بالشخص المختار دون حاجة إلى افتعال، بينما يقوم الآخر بمراقبة الأمر عن كثب، حتى

يطمئن لحفظه للسر وحرصه على الكتمان، بل وعدم تردده في القيام بدوره الذي لم يعرفه بعدُ.

سألني بنتو عن طبيعة المهمة التي سوف يجندانه للقيام بها، فلم أجِبه.. أمرته أن يدقق مع ميلزو في الاختيار طبقًا للمعايير التي وضعتُها لهما وحسب، وأن يتركا بقية الأمر لقابل الأيام، مرهونة بنجاحهما في هذه المرحلة. كل ما عليهما فعله، إذا ما اطمأنّا إلى اختيارهما تمام الاطمئنان، هو أن ينقلا إليَّ الخبر بدقة وتكتم، حتى نشرع في مهام المرحلة التالية.

لا أعلم ما ينتظركما يا ولديَّ الحبيبيْن، ولكنه بالتأكيد أفضل مما ينتظر إيماهو رهيف القلب، هزيل الجسم، الذي اختار مصير الأبطال ولم تمنحه السماء هيئتهم، فجَرَّنا من ورائه نحو مصير لا نعرفه..

ولكن الأمر ليس كذلك ماهيزو. ليس كذلك تمامًا..

كنتَ تبحثُ عن ثغرة تخرج منها على عقيدة الحياة البعدية، أمام أعين الموقنين بها، فوجدت ضالتك في حادثة إيماهو..

ليتني كنتُ أستطيع أن أستعين بك أنت إيماهو، بدلًا من أن أقطف مزيدًا من رياحين الفردوس وشبابها، ولكن لا سبيل أمامي؛ فستخرج أنت من ساحة النضال في اللحظة ذاتها التي سأحتاج فيها للدفع بالشاب الجسور إلى قلب المشهد..

سحقًا لك ماهيزو..

تدفع بخيرة شباب الفردوس إلى مصيرٍ لا تعلمه، فوق سبيلٍ لم تطأه قدماك قبل اليوم. لو كان لك ولدٌ في مثل أعمارهم، أكنتَ دافعه إلى حيث لا تعلم؟!

سحقًا لك ماهيزو.. سحقًا لك!

شابي وقناديل المعبد

هييه أيها المولى..

الشكر لك قبل كل حال..

والشكر لك بعد كل حال..

والشكر لك على أي حال..

فأنت المستحق للشكر وحدك يا منشئ الأحوال..

اليوم يشعر شابي، عبدك وخادم معبدك، أنه صدقًا أهلٌ لتلك الخدمة، أهلٌ للقرب وللمنزلة الرفيعة. اليوم أخرج من طور إلى طور، وأنقش لقب بتاتشي فوق السحاب المرتفع وفوق نجوم السماء. اليوم أسدي إلى المعبد الكبير قسطًا من المعروف الذي غمرني به.

اليوم أفرغ من أهم صفقة في تاريخ عائلة بتاتشي، عريقة الاسم لامعة النجم في سماء التجارة، صفقة تسمو فوق الحسابات والأرقام، ولا تقاس بالعوائد والفوائد. هي كبرى الصفقات وأثمنها، وإن لم تجلب ربحًا على الإطلاق.

سبعون قنديلًا فخاريًا متماثلًا زاخرًا بالزخارف والنقوش، يحمل كل منها اسم بتاتشي منقوشًا حول قاعدته الدائرية المفرغة.. سأفرغ اليوم من تعليقها في قاعة الاستقبال، كبرى قاعات المعبد الكبير وأفخمها، وأكثرها ارتيادًا على الدوام..

بدأتُ التوصيف في عريضة المطالب التي تقدمت بها إلى كهنة الأسفار بالسبعين قنديلًا هذه. عندما قرأها الكاهن الذي تسلَّمها عجب للأمر، فسألني بفطنته وطول تجربته عن هذا المطلب بالذات:

- سبعون قنديلًا فخاريًا متماثلًا، مذهَّب الحواف، موشى بالنقوش، متوهج الإضاءة، مفرغ القاع.. أي طلب هذا يا بني؟! من يشتري منك السبعين؟! ولِمَ سبعون؟! ولم التماثل؟!

لِمَ لمْ تطلب مائة إن أردتَ بيع القنديل نفسه حتى تحين الرحلة المباركة المقبلة؟

الأجدر بك يا بني أن تجلب أشكالًا متنوعة، حتى تضمن بيعها جميعًا، وحتى لا يقصد الناس تاجرًا غيرك طلبًا للتنوع.

شكرتُ له اهتمامه، ورجوته ألا يكرر عليَّ السؤال، فلست المتأمِّر على تجارة العائلة بعدُ، وليس لي أن أناقش عريضة المطالب وحدي.

مع أنني كنتُ قد أعددت العريضة بنفسي، بالطبع، وسطرت هذا المطلب على رأس القائمة قاصدًا واعيًا لما أهدف للحصول عليه.

هذا طلبٌ لا أرجو من ورائه مالًا ولا تجارة ولا ربحًا، فحسبي أن تزدان كبرى قاعات المعبد باسم بتاتشي إلى الأبد.. صفقة لم يسبقني إلى مثلها أحد في الفردوس! ولن يستطيع غيري تكرارها من بعدُ..

لا أنسى نظرة الكاهن المبجل ساليزو، كبير مدوني المعبد الكبير، لي حين عرضتُ عليه أمر تعليق القناديل، بعد انتهائي من تجهيزها ونقش لقب بتاتشي على كلٍّ منها، نظرة ملؤها الإعجاب والعجب، عجب لأمري كيف أشغل بالي بإنارة قاعة الاستقبال، والاستبدال بقناديلها الحديدية الصدئة قناديل فخارية جديدة أجمل منها وأكثر وهجًا، وأنا ما زلت أخطو أولى خطواتي على درب المسئولية والنجابة..

أطرق في وجهي طويلًا، ثم سألني بصوته العميق:

- أنت في بداية الطريق يا بني، وعريضة المطالب تمنحك مطالبَ محدودة مقابل الصك الذي تشتريه فداءً لرحلة المعبد المباركة.. فلِمَ تستنفدها في طلب ما يستطيع المعبد جلبه لنفسه؟ ومنذ متى والمعبد يشتري من النبلاء، شابي؟!

أجبته على الفور، ودون تردد:

- هي ليست للبيع، سيدي الكاهن المبجل كبير المدونين.. هي عطية السماء وددتُ لو أُصْبِح محمَلًا يسوقها إلى المعبد الكبير، ويقدمها بين يدي سيدي المبجل ساليزو.

احتسى شيئًا من القدح الماثل بين يديه الممتلئتين حتى يتفكر برهة، ثم أنهى الحديث قائلًا:

عجبتُ لأمرك شابي.. ولكنك أحسنتَ يا بني، وأرجو لك التوفيق.

أدركتُ حينها أن الكاهن المبجل ساليزو مترددٌ في شأن ما عرضته عليه، أيستحسنه أم أن عليه أن يتدبر الأمر قليلًا..

وشَت عيناه بذلك، فعاجلته بالشكر والثناء، وقمت مسرعًا متعللًا بطول ما أضعتُ من وقته الثمين. لن يُضَيّع مني كل هذا الجهد بعدما انتظرتُ هذه القناديل طويلًا، ثم عكفتُ على رأس ذلك النحات النحيف، جاف الكفين متسخ الأظافر، سبعة أيام متصلة حتى انتهى من نقش اسم بتاتشي حول الحافة الدائرية لقاعدة كل قنديل من السبعين!

أظنكم ستزدادون إعجابًا بي، سيدي الكاهن ساليزو المبجل، بعدما ترون سماء القاعة الكبرى وقد ازدانت بنجوم بتاتشي.. ربما أسمع منكم إطراءً، أو لومًا على ما فعلت، ربما.. ولكنني في جميع الأحوال سأستحق إعجابكم العميق طويلًا، ومباركة المولى الأعظم..

***

مررتُ بحافظة الكتب بعدما اطمأننتُ أن تعليق القناديل في قاعة الاستقبال يوشك على التمام.. شعرتُ حينها بمزيج من الامتلاء التام والرضا العميق.. شعور لم أعرفه من قبل.. فسَعَيْتُ إلى الحافظة أقصد

تيها الحبيبة حتى تكتمل عندي كل أسباب السعادة الخالصة.. أهدانيها الحظ السعيد عند الباب، تفتح لي..

- تيها.. حبيبتي.

- شابي!

- هل لي بالدخول؟

- ماذا جاء بك أيها المجنون؟!

- ربما جئتُ لأراكِ..

- أنا أعمل هنا شابي، لا ألهو، والمعلم بالداخل!! أي جنون أتى بك الآن؟!

دفعَتْ الباب نحوي قليلًا حتى لا تسمح لي انفراجته بالدخول.. أحب ترددها بين البراءة الخالصة والجراءة الجنونية..

دفعتُ الباب بلطف، وأردفت:

- أنا أيضًا جئت للعمل.. وأنتِ تمنعينني عن أداء عملي.. أفسحي لي مجالًا للدخول من فضلك!

دخلتُ قاصدًا مجلس المعلم في منتصف الحافظة، وكأنني أفعل ذلك كل يوم:

- أسعدَت السماء صباح كاهن الأسفار المبجل ماهيزو.

ولك مثل ذلك شابي.. أي سحابة خير أتت بك إلى حافظة الكتب؟

- جئتُ كي أنال شرف خدمتكم وخدمة المعبد الكبير سيدي المعلم.. قد تعلمون أنني توسعت في تجارة القناديل والمصابيح، وقد أنعم المولى عليَّ بنجاح باهر فيها، كما أفاء عليَّ بما سعيتُ إلى الحصول عليه عبر رحلتكم المباركة الأخيرة من نفائس القناديل والمصابيح، على رأسها مجموعة من أنفس القناديل وأبهرها إضاءة، وددتُ لو يتفضل عليَّ المعبد بقبولها عطية من عائلة بتاتشي تنال بفضلها البركة والشرف.. وهذه القناديل يُعلَّق سبعون منها الآن في قاعة الاستقبال الكبرى.. بينما يحوي هذا الصندوق الذي أحمله إليكم قنديليْن، رأيت أن يخَصَّصا لإنارة حافظة الكتب المباركة هذه، وأطمح أن يمنحني الكاهن المبجل ماهيزو هذا الشرف.

أتتني تيها بوعاء من خشب الورد فيه ماء بارد، تطفو على صفحته بتلات الزهور المجففة.. حملته بين يديْها الدقيقتيْن، بينما تعلقت بذراعها العاجية منشفة من الكتان الأبيض.. مثلَتْ بين يدي مطأطئة، تُواري ابتسامتها الخجول تحت ستائر شعرها المنسدل في دلال عذري..

رفعتُ المنشفة عن ذراعها ببطء حتى دغدغتها، فكادت تضحك، ثم انتبهتُ عندما أردف المعلم:

- نشكر لك معروفك شابي.. ولكن الابنة الحبيبة تيها جاءت اليوم بقنديل بديع الصنع والهيئة، كي تضيء به حافظة الكتب بدلًا من هذه المصابيح النحاسية.. تيها هي الآمر الناهي في هذه الحافظة كما تعلم.. إن شاءت قبلت هديتك وإن لم تشأ فلا معقب عليها.

التفتُّ نحوها متسائلًا:

- أي قنديل تيها؟!

بثقة قالت:

- إنه القنديل البديع الذي أرسلته لي أمس الأول..

ما زال في صندوقه لم يبرحه، وليس أنسب منه لإضاءة حافظة مقدسة كهذه.

أردفتُ بصوت خافت يحمل شيئًا من اللوم:

- ولكنني وددتُ لو تنيرين به غرفتكِ، حتى يُذكركِ بي كل يوم.

- شابي، لا يمكنني اصطحاب القنديل إلى البيت، ولكنني سأستنير بضيائه كل يوم هنا..

- كما تشائين تيها!

- لا تبدو لي على ما يرام شابي..

- لا عليكِ تيها.. كما قال المعلم، أنتِ أميرة حافظة الكتب، فالأمر لكِ..

طوى المعلم قصاصة من الجلد بعدما فرغ من قراءتها، ثم رفع رأسه نحوي قائلًا:

- إن شئتَ شابي، فابعث لنا بالصانع كي يعلق القنديل الجديد حيث تشير تيها، بعدما يفرغ من قاعة الاستقبال.

التقطتُ إشارته لي بالذهاب، فتأهبتُ للخروج صاغرًا، ورددت:

- أمركم نافذ سيدي الكاهن المبجل.

تيها تشكو إلى البحر

شششششش..

ششششششش..

شششششششششش..

بيروتشي.. بيروتشي..

الآن يا بحر بيروتشي..

ادنُ مني أكثر..

امدُد نحوي بمدِّك، وابلغ بالقرب مداك..

ادنُ مني يا موج بيروتشي..

ادنُ من تيها..

المس باطن قدميها الممدودتين نحوك في استجداء..

تعالَ بيروتشي...

لا يخفي الأسرار إلا موجك..

لا يسكِن الأنات إلا صوتك..

لا يغسل الأدران إلا زخّاتك..

لطمة وراء لطمة يطهر القلب.

تستجيب الأذن وتصفو النفس..

وأنا في حاجة إلى ذلك الصفاء..

اليوم يا بحر بيروتشي، سُرق إيماهو.. سُرق من أمه الخالة تيبويا، تلك المرأة التي استلبت منها الأحزان سمنتها المفرطة، ومنحتها مزيدًا من الشيخوخة والخوار.. سُرق مني ومن أمي.. سُرق من طيور الفردوس ورياحينها اليافعة المتفتحة.. سُرق من المعلم ماهيزو ومن أناهيا الحبيبة التي لا تعرفه..

حتى أنت، بيروتشي، ربما تشعر اليوم أن إيماهو سُرق منك!

إيماهو.. آية الفردوس في الحنان والعطف..

إيماهو.. الذي جمع في وجدانه عاطفة الأمهات ورباطة جأش الآباء.. ثم سُرق من بيننا جميعًا، كما تُسرق البسمات عادة من فوق شفاه الدوارج والعوام!

لو كان طيرًا مهاجرًا لأملت في عودته.. عندما تطيب له العودة.

لو كان موجة من أمواجك، بيروتشي، لانتظرتها حتى تفرغ من اللهو، ثم تعود لتلمس قدمي من جديد!

ولكنه، كغيره من أبناء الدوارج، محروم من الاختيار.. لا يختار أين يذهب ولا متى يعود.. نحن أبناء الدوارج ليس لنا أن نختار، وقد قرر إيماهو أن يختار، فلم يجد أمامه إلا السجن، أو الإبعاد..

فاختَر إيماهو كيف تشاء!!

***

«قبضة السماء ودرع الخير»..

هكذا يسمون شرطة المعبد! فهل تقبض قبضة السماء على الشاب الضعيف، وتنصُب درع الخير في وجهه الباسم، لأنه بات خطرًا على الفردوس؟! من يصدق هذا؟!

ألا تغضب له أمواجك يا بيروتشي فتلفظها كي تهدم السجن وتحرر لنا إيماهو؟!

كن مشيئة السماء ولا تستكن لمشيئة المعبد بيروتشي، فقد خُلقَت الطيور لتحلق في السماء.. لا كي تُقَيَّد في المحابس والأقفاص!

***

ذهبتُ في الصباح إلى بيت الخالة تيبويا، كي أطمئنها وأبشرها باهتمام المبجل ماهيزو بأمر إيماهو، وهو ما استشعرته من المعلم بعد

عودته إلى حافظة الكتب، ومن حرصه على لقاء ميلزو وبنتو، ومراجعة ديوان العقوبات، خاصة أنه أولى اهتمامًا كبيرًا بباب الإبعاد: شروطه وكيفيته..

ولكنني وجدت الخالة في حال لم أرَها عليه من قبلُ: شعثاء الشعر، ضامرة الثديين، زائغة النظرة، مسندة ظهرها اللحيم إلى الحائط الطيني لغرفة الخبيز، وقد تقوست في ضعف وانكماش يجأران بالفجيعة!

جثوتُ بجوارها على ركبتيّ، باسطة كفَّيّ على كتفيْها.. كان جلدها باردًا، مبللًا بالعرق!

قلت:

- ما بالكِ يا خالة؟ هل حدث مكروه؟!

استدارت نحوي ببطء.. نظرَت إليّ نظرةً لا معنى لها دون أن تجيب! أعدتُ عليها السؤال، فأشاحت بوجهها عني وظلت صامتة..

لمحت حينها جسدًا يتحرك داخل غرفة الخبيز.. كانت ماكيلا، كبرى بنات الخالة تيبويا، ناديتُها، فجاءتني تنفض عن يديْها وردائها غبار الطحين..

بادرتها سائلة:

- ماذا جرى ماكيلا؟ هل حدث مكروه لإيماهو؟!

قالت:

- نعم تيها، قبضَت عليه شرطة المعبد منذ الصباح.. فاجؤوه في الزريبة وهو يحلب الشاة، فقيَّدوا معصميْه وساقوه كالبهيمة إلى مكانٍ ما.. ركضَتْ أمي خلفهم وهي تصرخ، حتى دفعها أحد الجنود فسقطَتْ على الأرض.. جُرحَتْ.. ولم تنبس بكلمة حتى الآن!

نظرتُ إلى الخالة مشفقة، وقلت:

- مسكينة يا خالة!

سألتني ماكيلا:

- هل تعلمين إلى أي مكان يُساق المقبوض عليهم تيها؟

- لا ماكيلا، لا أعلم.. لم نرَ مثل هذه الأحداث من قبلُ! سأذهب من فوري إلى الكاهن ماهيزو كي أُطلعه على الأمر، ونرى ماذا سنفعل.. لا تتركي أمكِ بمفردها، ولو للحظة، أسمعتِ؟

- نعم تيها، لن أتركها..

أدركتُ أن الأمر تعقَّد تمامًا، وأن إيماهو قد أصبح متهمًا حبيسًا، ولن يتم التساهل في أمره أو إمهاله المزيد من الوقت..

النبيل كواتو غاضب لفقدانه جوالًا من الذرة الجافة! ربما كان يستبقيه لإطعام فئران يربيها أحد أحفاده الصغار، أو ربما لطيوره السمينة التي يذبحها في غير أيام الأعياد!! فيبدد نصف التسع تقربًا لكهنة المعبد، ثم يتلذذ بالباقي هو وذووه!! ولذلك لن يهنأ ولا يهدأ حتى يعوضه المعبد عن الجوال المفقود، يا حبذا لو كان بجثة أحد الدوارج أو العوام،

والمعبد لن يبطئ مجددًا في تحقيق مطلب النبيل كواتو، صاحب الفضل في تغذية الطيور ورعاية الفئران الصغيرة!

أرجو أن تكون بخير، إيماهو!

أتوسل إليك ألا تجعل جثتك ثمنًا لجوال ذرة مجففة!!

وأنت يا معلم، يا من ربيتنا على التفكر والتدبر وملازمة الحق والعدل.. يجدر بك الآن ألا تغوص في مزيد من الصمت والعزلة.. ألَّا تقنع بقراءة الكتب وسطر الأوراق.. أرجوك أن تفعل شيئًا؛ فقد أشرف الكهنة المبجلون على فتح هوة الإبعاد كي يُسَرّوا عن النبيل المُستاء!! فإما أن تدركنا الآن، وإما أن نفقد صوابنا جميعًا!

ماهيزو يتعجَّل

والآن، ماذا؟ ماذا ستفعل ماهيزو؟ فسدت الحسابات وخابت التوقعات. لم تتوقع خروج إيماهو من ذلك المشهد الغائم في هذا التوقيت المبكر.. ذلك الخروج العاجل ما كان متوقعًا ولا مرغوبًا، ولن يجر عليك إلا المصاعب والارتباك.

ولكنه حدث.. حدث وانتهى الأمر.. فلن تستطيع الآن إلا أن تتدارك الزمن وتعجِّل بالخطة، قبل وقوع ما لا تُحمد عقباه..

تُرى أتعجل بإيماهو المكارِه قبل أن أستطيع إدراكه؟!

لم أستطِع استخدام نفوذي أو نفوذ الكهنة المقربين مني من أعضاء مجمع الكهان لإمهالك المزيد من الوقت إيماهو، وإمهالي أنا كذلك وقتًا لأتمَّ فيه ما انتويت. فاجأني أمر اعتقالك كما فاجأك، وأنا العضو الموقر بالمجمع الموقر! لا أعلم كيف صدر أمر اعتقالك هكذا دون أن يمر عليّ، ولكنني لن أبحث وراء الأمر الآن، حتى لا أثير المزيد من الشكوك بتعلقي الزائد بهذه الحادثة..

***

تاهيري 98 / 12

اليوم الثاني عشر من الشهر الثامن للعام الثامن والتسعين بعد الدينونة: قرار مجمع الكهان المبارك باعتقال الدارج إيماهو سول تييمو وتقييده. يسري القرار إلى حين إرشاد المذكور عن الجاني في جريمة إفساد الحياة البعدية في شأن سرقة تمت في قصر الموقر النبيل كواتو سول ماتيهو. وإن لم يفعل المذكور يُتبَع هذا القرار بقرار نهائي بتنفيذ العقوبة عليه.

تم.

***

لا أعلم كم من الوقت يُتاح لي قبل أن يصدر القرار التالي بتنفيذ العقوبة، فلا بد من البدء على عجل في تنفيذ المرحلة الثانية من الخطة قبل أن تفاجئني الأقدار مجددًا. لم يأتِني خبر من ميلزو أو بنتو، والأرجح أنهما لم يعثرا حتى الآن على الشخص المراد.

الآن يتحرك الوقت نحوي كإعصار..

إن لم أعاجله بالتحرك في الاتجاه المناسب سيفتك بي بلا ريب.

طلبتُ من تيها أن تذهب إلى دكان بنتو كي تشتري بعض السلال التي تعبئ بداخلها شطائر الملح، فتنتهز الفرصة للانفراد به وإبلاغه استدعائي لأحدهما، هو أو ميلزو، على أن يأتيني متخفيًا متحريًا السرية. أخشى

إن لم يفتضح الأمر بسبب مجيء أحد الشابين إليَّ دون مبرر مقبول، أن يتسبب في افتضاحه ما ينتابني الآن من توتر وأنا في انتظار مجيئه.. يدلف البعض إلى حافظة الكتب فلا أشعر، ثم يكلمني أحدهم فلا أنتبه، حتى يرفع صوته مناديًا أو معتذرًا.

لا يمكن أن تتساقط الأوراق مبكرًا، فيتعرى البدن ولا نجد غطاء آخر يستره.. تماسكْ ماهيزو.. فالقادم أشد.

***

- سيدي الكاهن!

- أقبل يابيتو، ما الخطب؟

- عذرًا سيدي الكاهن المبجل..

- ما هذه الجلبة بالخارج؟

- سيدي، إنه رهط من الصناع يحملون أحدهم وذراعه مضرجة بالدماء.. يقولون: إن الشاب أصيب بجرح غائر أثناء عمله بالمعبد!

- دعهم يدلفوا.

تردد يابيتو عند باب الحافظة، ثم أردف:

- وددت استئذانكم أولًا سيدي؛ فثيابهم متسخة وهيئتهم لا تليق بـ...

- دعهم يدلفوا فورًا.

- نعم سيدي..

خرج يابيتو مسرعًا، ثم عاد يتحلق من حوله رهط من الصناع..

- ادخلوا.. ادخلوا.. واخفضوا تلك الأصوات البائسة في حضرة سيدنا الكاهن المبجل.

انفضُّوا من حول بؤرة المنتصف، فإذا بولدي الحبيب، بقامته الصلبة المديدة، يستند إلى كتف يابيتو اللحيمة، فنهضتُ إليه متعجلًا:

- ميلزو! ماذا أصابك يا بني؟! ضعوه هنا، هنا.. استرح ميلزو.

استأذن يابيتو:

- هل أجيء بماء سيدي؟

- اجلب بعض الماء الساخن وعصارة الصبار ومسحوق القرنفل وقطعتين من الكتان النظيف يابيتو.. ثم اتركنا معًا.

- ربما تحتاجون عونًا سيدي..

- أشكرك يابيتو، لا حاجة لشيء إلا لما أمرتك به. الجرح طفيف.. سنطهره ونضمده سريعًا وينتهي الأمر.

ثم التفتُّ نحو رهط الصناع وقلت:

- الشاب في حاجة إلى الراحة والهدوء.. أنتم كذلك يا أبنائي يمكنكم الذهاب فلا حاجة لوجودكم.

تكلم أحدهم، وكان أكثرهم تضرجًا بدماء ميلزو الحبيب:

- أرجو أن يأذن لنا سيدنا الكاهن المبجل أن نمكث بجوار المباشر ميلزو حتى نطمئن عليه.

سألته:

- أتعملون تحت مباشرته يا بنيّ؟

- نعم سيدي، نعمل تحت مباشرته في دكان حدادة.. وقد اصطحبَنا صباح اليوم إلى المعبد حتى نتطوع بالعمل يومين في المعبد الكبير، نَبرُد القناديل الحديدية القديمة التي تم استبدالها ونطهرها، قبل أن تنتقل إلى المعبد الجنوبي. انشغلنا عن المباشر ميلزو أثناء العمل، ثم فوجئنا به وقد تضرجت ذراعه بالدماء إثر سقوط أحد القناديل عليه.

لا تقلقوا، وعودوا إلى تطوعكم، باركتكم السماء، حتى لا يضيع نصيبكم في العطاء. الجرح سطحي وسرعان ما سنضمده.. المباشر ميلزو في حاجة إلى الراحة هنا لبعض الوقت أكثر من وجودكم من حوله.

- هل يمكث أحدنا ويباشر الباقون تطوعهم سيدنا الكاهن؟

- لا حاجة يا بني.. اذهبوا جميعًا، وسأستدعيكم من فوري حين يطيب حال المباشر ميلزو. هيا اذهبوا.

تراجع الشاب مستأذنًا:

- باركت السماء يومكم سيدنا الكاهن المبجل.

حييتُه قائلًا:

- بارككم المولى وأوسعكم من مرضاته.

ثم حدثتُ يابيتو:

- أما أنت، فيمكنك الذهاب إلى البيت الآن كي تستكمل تهذيب شجيرات الحديقة.

- أمركم نافذ سيدي..

عندما خرج الجميع، عكفتُ أعالج جرح ميلزو الحبيب في صمت.. راودتني الأسئلة رواحًا وجيئة.. ماذا يكون قد دفع هذا الشاب إلى أن يفعل ذلك بنفسه؟ هو مدرك لفعله لا محالة، ولم يُصَب مصادفة.. هل تقوده محبتي إلى مزيد من الهلاك؟

أفلتني صوته المرتفع من شراك الحيرة:

- طابت يداكم وبوركت سيدي المعلم.

حدَّقتُ مليًا في وجهه الرؤوف رغم صلابة قسماته، ثم قلت:

- ماذا فعلت بنفسك ميلزو؟

- خشيتُ افتضاح أمري لو جئت متنكرًا أو متخفيًا، سيدي المعلم، ففكرت في هذه الحيلة.. كنا قد فككنا القناديل الحديدية في قاعة الاستقبال عندما أراد الكهان استبدال أخرى فخارية جديدة بها، فرأيت

أن أذهب إلى المعبد الكبير، فأستأذن كهنة الاستقبال في اقتراح نقل القناديل القديمة إلى معبد آخر، بعد أن نعالجها بالبَرْد والتزييت والصباغة، فنعيدها إلى حالها السابق، فاستحسنوا الأمر كثيرًا.. فجئت اليوم بالصناع المتطوعين، وما إن انشغل كل منهم بما كلفتُه به حتى تواريتُ عنهم وأحدثت هذا الجرح في ذراعي اليسرى.. عمدتُ إلى إسالة الكثير من الدماء، حتى إذا ما تخضبت ذراعي تمامًا صرختُ صرخة ألم، فهرعوا إليَّ وفجعوا بالمشهد الأليم الذي بالغت في إظهاره.. ثم أشرتُ عليهم بوجود كاهن معالج في حافظة الكتب، فحملوني إليكم..

- أتصيبُ ذراعك كي تلبي استدعائي، ميلزو؟

- وأقتل نفسي فداءً لكم، سيدي المعلم!

- طبت ميلزو، وطابت لك الحياة يا بني.

صمتُّ برهة، فبادر ميلزو بطرق الحديدة التي آلمتني.. قال لي:

- سيدي يحب أن يطمئن إلى ما توصلنا إليه أنا وبنتو، أليس كذلك؟

- نعم ميلزو، هو ذاك. هل سمعتَ بأمر اعتقال إيماهو؟

- نعم سيدي، ذكرت لي تيها ما حدث بإيجاز، وأسِفنا له كثيرًا.. أنا أعلم أن للشاب المسكين مكانة في قلب سيدي الكاهن المبجل، كما أن اعتقاله ربما يربك الخطة التي يحتفظ بها سيدي الكاهن، ولم يشأ تبيانها بعد..

- أصبت ميلزو! ربما تكون أقرب أبنائي إليَّ وأكثرهم فهمًا لما يدور بخلدي، وستكون أكبر عون لي فيما تعاهدنا على تنفيذه. هل وُفِّقتما يا بني في العثور على الشخص الذي نبتغيه؟

توثب ميلزو معتدلًا في جلسته، ومتحفزًا لسرد ما جرى:

- هو أحد اثنين، سيدي المعلم، وما زالت الحيرة تداعبني وتتلاعب بقراري.. قد يرى سيدي المعلم أن يطلعني على المهمة فأصير أقدر على الاختيار!

- صِف لي الاثنين، ميلزو الحبيب..

- الأول سيدي هو شاتو، قابل المواشي.. شاب قوي البدن عف اللسان، أَلِفَ الصبر على ألوان الشقاء منذ انتقل والداه إلى حياة أخرى قبل أن يبلغ الحُلُم. عمل في الحظائر كناسًا وجامعًا للروث، ثم راعيًا وسائسًا، حتى أصبح معالجًا وقابلًا للبهائم، فصار كثير التردد على قصر النبيل كواتو سول ماتيهو.. عرفته منذ أكثر من عامين، كنت أثبّت أحواض طعام وشراب جديدة في حظيرة أبقار، بينما هو يرعى بقرة هزيلة على مشارف الموت تضع حملها. ومنذ ذلك اللقاء لم نفترق قط..

سألتُه متفكرًا:

- هل حدثته في الأمر؟

أجاب:

لا سيدي، ليس بعدُ.. كل ما هنالك أنني حاورته حول مسألة إيماهو والعذاب الذي سيناله إذا أصر على موقفه النبيل، فوجدته شديد السخط على تشدد المعبد تجاه الدوارج والعوام وانحيازه الدائم إلى صف النبلاء.. رأيتُ أن أفكاره تصب في معين توهو، فعزمتُ أن أعرض عليه أمر الانضمام للجماعة، فإن وافق صار أهلًا لاختيار سيدي المعلم، فأعرض أمره عليكم حتى تروا في شأنه ما ترون.. ولكنني أرجأتُ ذلك إلى ما بعد لقائي بكم، سيدي المعلم، فربما ترون أن الشخص الثاني أكثر ملاءمة، فيكون من الأجدى ألا أكاشف شاتو، قابل المواشي، بأي شيء.

- نِعمَ الرأي ميلزو.. إذًا من الشخص الثاني الذي تقترح؟

- الثاني هو ميلزو سول أوباجي.. أنا، سيدي المعلم..

شابي يمتعض

«أراك تبذل الجهد والعرق أول النهار، تبني قصورًا من رمال، فتهدمها آخر النهار أمواج الهيام والأشواق التي تضرب شاطئك، شابي».

وماذا تراني أفعل سيدي النبيل كواتو؟!

هل أشق صدري فأنزع القلب من مخبئه الذي يحتمي فيه من بطش العقل؟ ألا يتحقق مرادكم إلا بهجري تيها؟! تيها.. أنشودة الفردوس التي لم أستعذب سواها طيلة حياتي. أيكف القلب عن ترديدها اليوم بهذه البساطة؟! أيستبدلها العقل بعدما أَلِفَها طيلة هذه السنين بقرار موجز وحاسم؟!

محال أن يكون ذلك سيدي.

لا تنتظروا من شابي ما لا يطيق. لا أحتمل فراق تيها، ولو كان فيه النعيم الأبدي الذي وُعِد به الكهنة المبجلون.

«تبذل الجهد والعرق.. تبني قصورًا من رمال»..

هل صحيح أن قدري هو التعلق بالدوارج؟!

تعلق يحول بيني وبين ما أصبو إليه من مكانة!

فاجأني النبيل كواتو بهذا الرأي الصادم في شأني. قال إنني شاب نادر، لم يكن مثلُه ليتمنى خيرًا من مثلي ابنًا له، ولكنني مصاب بنقيصة حب الدوارج والتعلق بهم.. وإن السبب يرجع لأبي الذي أصر على الزواج بواحدة من الدوارج، مخالفًا بذلك الأعراف والتقاليد ودعوة المعبد للحفاظ على نقاء الأنسال.

قال لي إن ما أتى به أبي أصاب نسله بتلك النقيصة الأبدية التي يخالني لا أرغب في الفكاك منها؛ فتارة أسعى إلى الزواج بتيها ولا أرضى عنها بديلًا، وتارة أتوسل إليه أن يصفح عمَّن أفسد الحياة البعدية حتى أُخَلِّص إيماهو من عقوبة يستحقها..

كما أنني أميل ميلًا كبيرًا نحو عائلة أمي، ولا أحمل الميل نفسه تجاه عائلة أبي النبيلة!

«أمواج الهيام والأشواق تضرب شاطئك»..

أهكذا يراني خيار أهل الفردوس؟!

يرونني امتدادًا لأبي الذي لا تلوح فرصةٌ لِلَمْزِهِ إلا أصابها أحد النبلاء!

هل يرون حبي لتيها نقيصة لا تحفل بها السماء؟!

لا   لا أظنه كذلك، ولا أرى زواجي بها إلا سعيًا نحو مزيد من مرضاة المولى العليّ.. هي خير نساء الفردوس على الإطلاق.. وإلا ما خلقها المولى على هذه الصورة البديعة.. وأنا لا أطلب إلا مزيدًا من نعمته.

لكنني رغم تحملي الكثير من أجلها ومن أجل إتمام الزواج بها، لا أجد منها ما كنت أجده في الماضي. أُغضِب من أجلها النبلاء، وأثير حفيظة المعبد، فتجُرُّني هي إلى حيث لا أشتهي.. حتى إنها تدعوني إلى الخروج من الفردوس مثلما فعلت الجميلة حواء بالمبجل آدم، أول ساكني الفردوس قبل الدينونة!!

كنت أظنها تمزح أول الأمر؛ فما زالت تردد على مسامعي الكلمات ذاتها حتى تيقنتُ من جديتها فيما تريد!

تيها لا تعجبها فردوس السماء!!

لا تحفل بأن أنعم المولى عليها بتقبل صالح الأعمال من جدها الأكبر يوم الدينونة، فأسكنه وذريته الفردوس من بعده! بل وتحلم كذلك بعالم آخر، ليس فيه سوانا..

أي جنون أصابكِ حبيبتي؟! أدرك أنك لا تستطيعين الفكاك من أحلامك وخيالاتك، ولكنكِ هذه المرة فقتِ كل توقع، حتى إنني صرت أظن أن سوءًا قد أصاب عقلكِ لإمعانكِ في إغضاب المعبد وكثرة جدلكِ حول مسلماته.. بل، وأرجو أن تسامحيني يا حبيبة، ربما تطاولكِ بعض الأحيان في حديثكِ عن الكهنة المعظمين باستخفاف لا يليق بحُرُمات المعبد الكبير!

عليَّ أن أصارح نفسي الآن بأن الأمور لم تعد واضحة كما كانت في السابق، لم يعد الصواب بيِّنًا أمامي كما كان دومًا، وقد أصبحتُ مع الأيام غير متأكد من صحة أي اختيار. صرتُ أجهل من العوام وأضل من العصاة، بسبب من يتنازعني بين العقل والقلب!

هييه أيها المولى..

إن لم تهدِني السبيل ضللت، ومشيت في ركاب الغافلين..

هييه أيها المولى..

إن كان زواجي من تيها مبعث رضاك فأنعم عليَّ برضاء المعبد والنبلاء، حتى لا يكون سببًا في خسارتي كل شيء.. أما إن كان هذا الزواج مبعث سخطك على عبدك وخادم معبدك شابي وأرجو ألا يكون كذلك - فاربط على قلبي الرهيف واجعله صخرة من جبل بيروتشي، ثم أذهِب عني ذاك الشغف الهائل بها، فلم أعد أطيق الشوق والهجران، كما لا أطيق سخط النبلاء وتقريع كهنة المعبد، وتاريخ أبي ونسب أمي.. و...

هييه أيها المولى..

لا تتركني وحيدًا عاجزًا فأضل وأُحشر في زمرة الخاسرين..

تيها تتألم

لا لا

لا يمكن أن يستمر ذلك طويلًا..

إذا زلَّت قدماي ثانية سأقع لا محالة!

تماسكي تيها! تماسكي..

أنتِ قوية، وعليكِ أن تتماسكي..

أين أنت شابي؟ وأين أنت يا معلم؟ أين أنتما؟!

لِمَ لمْ يدركني أحدكما حتى الآن؟!

أكاد أهوي من فوق هذه الصخرة الملساء الهائلة..

تُرى ما الذي صعد بي كل هذه المسافة أعلى جبل بيروتشي؟!

كيف ارتقيتُ منتصف الجبل الصامت المهول؟!

ليس هذا مهمًا الآن..

المهم أن يدركني أحدهما كما وعداني قبل أن أتسلق الجبل!!

هل صحيح أنني تسلقت كل هذه المسافة فوق الجبل؟!

إن لم أفعل فكيف وعداني إذًا؟!

لا أذكر شيئًا، ولا أستطيع الصمود إلى ما لا نهاية..

لكنني يجب أن أصمد، ليس هناك خيارٌ آخر!

إن زللت سأسقط فوق إحدى هذه الصخور الصلبة المتربصة أسفل الجبل!

تبدو صغيرة من هنا هذه الصخور..

لا، لا تنظري أسفل منكِ!!

حسبكِ النظر إلى الصخرة التي تتشبثين بها وإلى قدمكِ اليسرى التي ترتجف خوفًا ووهنًا..

أشعر أن اصطدامًا وشيكًا ينتظرني أسفل الجبل، وأرتعد خوفًا لهذا الشعور.

أخاف أن تقتلني آلام الاصطدام، وأرتعد خوفًا من أن تسيل الدماء من فمي أو من دماغي، فتفوح من جسدي رائحة الموت الكريهة!!

يكفيني ألمًا ذلك الخوف الذي يضيق خناقه حول عنقي أكثر فأكثر كلما نظرت أسفل مني، بحثًا عن شابي وعن المعلم ماهيزو..

ألا تدركان أن الخوف يعتصر بقايا الروح من جسدي المرتعش؟!

ألا يقلقكما ذلك؟! لم أكن أتصور أن الخوف يؤلم إلى هذا الحد..

أنا خائفة..

خاااائفة جدًا..

أنا خائفة شابي ي ي..

يا معلم، تيها خاااائفة!

تيها الصغيرة ترتجف خوفًا كما كانت ترتجف في الماضي، بل وأكثر!

كنتُ طفلة نحيلة تلهو من حولِك، عندما كان بعض الأطفال يخيفونني من بحر بيروتشي الذي سوف يبتلعني إذا لم أحفظ نصوص الصلاة والابتهالات..

كنتَ تتلقفني من بينهم يا معلم، فتحتويني ضمتك الدافئة الحانية، فأبكي وأبلل منتصف ردائك بدموعي الغزيرة..

كنتَ تمسح دموعي وتطمئنني أن البحر لا يبتلع الأطفال، بل يحبهم! كل الكائنات تحب الأطفال! حتى الجمادات تحبهم؛ لأن المولى أمرها بذلك..

أحتاج إليك الآن يا معلم أكثر من السابق. كان الخوف يحزنني ويبكيني، ولكنه الآن يكاد يرديني من فوق الجبل صريعة!

ربما عمد البحر ألَّا يبتلعني قديمًا، حتى يرجئني لهذه الصخور المتربصة اليوم!!

شابي ي ي ي ي...

أخاف أن تتغشاني ظلمة الليل وأنا أقف هنا وحدي، فوق هذه الصخور الصلبة الباردة..

أخشى أن يصطدم بي أحد هذه الطيور الهائجة التي تحلِّق من حولي، فيفقأ عيني بمنقاره المدبب، أو يستقر فوق كتفي فيختل توازني قبل أن تجيء لتنقذني شابي!!

أرجوك شابي ي ي ي.. أدركني!

هل أتسلق مزيدًا من الصخور؟!

ربما أبلغ قمة الجبل، أو أدرك صخرة منبسطة لا تزل قدمي فوقها..

هل يمكنني التسلق بهذه الأطراف المرتعشة الواهنة؟!

لقد خارت قواي وانتهى الأمر.. ربما بفعل الخوف أو بطول المعاناة..

لا تيأسي تيها..

لن يمر وقت طويل قبل أن يصل المعلم ومعه شابي، وينزلاني من هنا.. إن لم أختنق خوفًا!!

هه!! قدمي.. لا.. هااا..

***

- تيها!!

- هه!

- انهضي تيها، انهضي يا صغيرتي. كدتِ تسقطين ثانية. ماذا دهاكِ يا حبيبتي؟! كل مرة يقرع صراخكِ أذني فأهرع إليك لأجدكِ على وشك السقوط على الأرض. ماذا حل بكِ يا ابنتي؟!

- تيها، أجيبيني يا حبيبتي.

- لست أدري شيئًا! ولكن لا تقلقي توهاما، سأكون على ما يرام.. ألا تناوليني قدحًا من الماء؟

- إليكِ الماء يا ابنتي، ولكنني قلقة عليكِ، ويزداد قلقي كلما رأيتكِ على هذا الحال البائس. تُرى ماذا حل بكِ يا صغيرتي؟!

- إنه حلم مخيف لا أكثر.. أراني عالقة فوق جبل لا أقوى على الصعود، ولا أستطيع الهبوط.

- الحلم نفسه إذًا!

- نعم أمي، الحلم نفسه، والشعور نفسه بالوحدة والبرودة والألم.. الخوف نفسه الذي يتملّكني فلا أرى من حولي أفقًا إلا السحب الرمادية

الكئيبة، ثم يظهر من باطنها فجأة طائر أسود ينقض في اتجاهي حتى أظنه سيصطدم بي، أو يقتلع عينًا من عينيّ، فإذا به يحلق مبتعدًا، حتى يظهر غيره..

- هل أغضبتِ السماء تيها؟! هل تنسين صلواتكِ يا ابنتي؟

لا أعلم توهاما، ربما أغضبتها دون أن أدرك، أما الصلوات فلا أفعل إلا ما كنتُ أفعل في السابق، دون تغيير.

- اذهبي إلى المعبد يا صغيرتي، واسألي الكهنة أن تصفح عنكِ السماء وألا يؤاخذوكِ على تقصيركِ في طلب المرضاة يا ابنتي. لا أملكُ أن أراكِ مجددًا على هذا الحال.

- ولِمَ أسأل المعبد أمي؟! سأسأل المولى وألح عليه في السؤال.. هكذا يقول لي المعلم.. يقول: اذهبي إلى أقرب الأماكن إلى قلبك حيث تشعرين براحة وصفاء، ثم اسألي المولى ذاته، وألحّي عليه في الطلب. هكذا سأفعل..

- إن كان الكاهن المبجل قد قال لكِ ذلك، فافعلي يا ابنتي..

- نعم توهاما.. هل سمعتِ أصواتًا غريبة حول البيت قبل أن تصعدي إلى الغرفة؟!

- أي أصواتٍ يا ابنتي؟

- أصوات صراخ أو نداء أو استجداء، أو ما شابه..

- لا يا حبيبتي، لم أسمع غير صراخكِ أنتِ.. هل سمعتِ شيئًا؟!

- سمعت أثناء الحلم المفزع أصواتًا مبهمة، لم أستطِع تفسيرها ولم أسمعها في المرات السابقة، فظننت أنها أصوات تعالت حولنا، فاختلطت مع ما رأيت في الحلم!

لا يا بنيتي لم يحدث ذلك مطلقًا، وكل هذه الظنون والشرور لا وجود لها إلا في باطنكِ. يجب أن تذهبي من فوركِ إلى المعبد الكبير وتسألي الغفران.

- سأذهب حيث أمرني المعلم.

***

تجاوزتُ الألم الذي خلَّفه في نفسي ذلك الحلم المفزع، وذهبتُ إلى دكان بنتو، صانع السلال، صديق طفولتي ورفيق أرَقي الليلي مع جماعة توهو، أثناء الظهيرة..

ذهبتُ أحمل إليه سلة سبق أن اشتريتها منه لأحمل فيها الشطائر إلى حافظة الكتب، كي أنقل إليه رسالة المعلم ولفافته، خفيةً كما أمرني، متعللة بحاجتي لاستبدال سلة أكبر منها. أمُلْتُ ألا تضيع هذه الفرصة؛ فأمرُ إيماهو ما عاد يحتمل مزيدًا من التأجيل..

كان الدكان الصغير مزدحمًا، والزبائن يمتدون حتى خارج عتبته. شبَبْتُ ملوِّحة له من ورائهم حتى لاحظني بنتو، فناداني مستبشرًا:

- تيهاا!، أهلًا بكِ تيها، تفضلي.

ثم هتف بغلام يمرق من ورائه:

- كابنو.. أحضر مقعدًا للجوهرة المكنونة تيها، أميرة الدوارج.

قلتُ محاولة رفع صوتي كي يتخطى جلبة الزبائن:

- لا حاجة سيد بنتو.

فأردف باسمًا كعادته:

- لا تيها، أرجوكِ أن تتفضلي، لقد شرفتِ دكاني المتواضع بقدومكِ.. لِمَ لمْ تبعثي بأحد خدم الكاهن المبجل ماهيزو لشراء ما تبغين؟

قلتُ بعدما اقتربتُ منه متخطية الأجساد الدافئة بحرارة الظهيرة:

- ألا يرغب المباشر بنتو أن أزور دكانه؟

قال خجلًا:

- ليس ذاك يا عصفورة الفردوس.. ولكنني أخشى أن تنتظري معي طويلًا؛ فالدكان ضيق والزبائن ينتظرون منذ مدة!

جاءني الغلام بكرسي، فعبرتُ الحاجز الذي يفصل بنتو عن زبائنه وجلست.. طمأنْتُه قائلة:

- لا عليك سيد بنتو، سأنتظرك حتى تفرغ تمامًا وتتخيَّر لي سلة كبيرة تفي بأغراضي بدلًا من هذه السلة التي لا تتسع لشيء. سأعيد لك هذه وأشتري سلة أكبر.

- على الرحب والسعة تيها، كل ما في الدكان رهن إشارة منكِ.

***

مرَّ زمن لم أدركه قبل أن يفرغ بنتو من آخر زبائنه، تداعت عليَّ خلاله أفكارٌ مؤرقة وذكرياتٌ غير مفرحة..

تذكرت الحلم مرات، ورنوت إلى ذكرى أناهيا، وباحة منزل المعلم.. حتى تابتابو تذكرته، وخشيت ألا يكون قد وجد شيئًا يأكله، فلم أولِه اهتمامًا منذ أكثر من يوم..

انتبهتُ لخروج آخر الزبائن، كانت سيدة عجوزًا تلبس ثوبًا جميلًا، قليلًا ما ترتديه من هي في مثل عمرها.. فإذا ببنتو يخاطب غلامه:

- كابنو.. أوصِل هذه السلال إلى محمل السيدة، ثم ائتني من المخزن الشرقي بأكبر سلة مُبَطَّنة هناك.

- نعم، سيدي المباشر.

خرج الغلام، فخلا الدكان إلا من بنتو ومني..

التفتَ نحوي محولًا كرسيه كي يقابلني حيث أجلس، وقال:

- والآن تيها، هل تأمرين بشيء آخر؟

- نعم بنتو.. خذ اللفافة التي بداخل السلة وأخفِها قبل أن يرجع المعاون كابنو.. الكاهن المبجل ماهيزو أمرني بتسليمك إيّاها مع هذه الرسالة، وقال إنهما تخصانك أنت وميلزو وحسب.

- إنها ثقيلة.. تُرى ماذا تحوي؟

لا تفتحها الآن بنتو، واحرص ألا يكتشف أمرها أحد.. أنا لا أعرف ما تحوي، وقد أمرني المعلم ألا أحاول استطلاع أمر اللفافة أو قراءة الرسالة. أعرف أنكم تتعاونون في أمر ما يخص إيماهو، وأن المعلم لا يرغب في إطلاعي عليه، ولكني رضيتُ بالدور الذي رسمه لي.. وأتضرع إلى السماء أن يمكِّنكم من إنقاذه.. رغم أن الأمر تعقد تمامًا، ولم أعُد أرجو فائدة من أي شيء..

- لا تيها، لا ترددي ذلك! ثقي في المعلم وفي عدالة ورحمة السماء. لن يفجعكِ المولى في أخيكِ إيماهو!

- أرجو ذلك بنتو.. سأذهب الآن، ولا حاجة لأن أوصيك ثانية أن تخفي هذه الأشياء. أسعد المولى يومك.

- انتظري تيها حتى يأتي كابنو بالسلة الكبيرة، حتى لا تثيري الشكوك، ثم اذهبي متى شئتِ..

- نعم بنتو، أنت محق.. سأنتظر.

رسالة من ماهيزو

هذه رسالة أب ناصح محب إلى ابنه الحائر الصدوق، فإذا ما بلغتك يا بني رسالتي فاقرأها بتمهل، حتى تعيها وتحفظها في قلبك وعقلك، ثم عالجها بشيء من الزيت أو الماء ولقِّمها ما تشاء من إوز أو معيز، فإنها لا تعني أحدًا سواك ولن يَفيد منها غيرك.

أما اللفافة فاحفظها جيدًا، فقد جُعِلت لك حتى تلقنك درسًا في الإتقان. فاصنع من محتواها نسخة مطابقة، فلا تعرف هذه من تلك.

وأما الرسالة يا بني، فإن للظلم مخالب وأنيابًا لا تُقتلع إلا بالحيلة. فاصنع كما صنع قردة توهايا في سالف الأزمان؛ فإنه يُحكى أن قردة سكنوا شرق نهر توهايا، فتسلَّط عليهم أسد جائر يبسط عليهم نفوذه بحد المخلب والناب، فيغتصب قوتَهم وجهدهم، حتى إذا ما أبدى بعضهم اعتراضًا أو امتعاضًا داهم أوكارهم وأفزع نومهم واختطف صغيرهم بين فكيه وذهب به إلى فوهة بئر جافة عميقة، وقذف به في جوفها وهم متحلِّقون حولها في ترقُّب فزع، ثم يزأر زأرة يتفرق لها الحضور من فورهم. ثم حدث أن أتاهم قرد عجوز حكيم، ينشد معونتهم في بناء

جسر يربط ضفتي النهر، فشكوا له حالهم تحت سلطان الأسد الجائر الذي لن يسمح لهم بمساعدته وإن أرادوا. فلمّا وجد فيهم ضعفًا وجبنًا أشار عليهم أن يصنعوا شبكة من خوص وأسل، ثم يسُدّوا بها جوف البئر بحيث لا تَبين للناظر بداخلها، فيسقط الصغير المقذوف في ظلام البئر أمام الأعين، ثم تتلقفه الأذرع والحبال بعدما يزأر الأسد ويذهب. وبعدما رحل القرد الضيف تداول القردة الأمر، فانتهوا إلى عدم التجرؤ على الأسد حتى لا ينالهم بطشه إذا اكتشف الأمر. فتفرقوا عاجزين، إلا اثنين منهم، أحدهما صانع للشباك والحبال، والآخر مثّال ماهر يطوِّع الحجر والحديد، غمَّهما ما كان من القوم وقررا أن يصنعا معًا ما أشار به الضيف الحكيم، فأنقذا صغار القردة واحدًا تلو الآخر حتى علِم الباقون أن بإمكانهم مجابهة الأسد بالحيلة والمهارة. فما كان منهم إلا أن تعاونوا جميعًا على صنع شرك من الحبال والنصال الحديدية لاصطياد الأسد الغشوم.

فاعلم يا بني أنه ليس فينا القوي أو الضعيف في ذاته؛ فالقوي هو من يحسن العمل بما يملك، كان قوة أو مهارة أو حكمة.. أما الضعيف فهو من استكان وركن إلى ظاهر الأمر من قوة خصومه وقلة حيلته.

وأنا إذ أبعث إليك بهذه الرسالة يا بني فإنني أوصيك بأن تتأسى بقرَدة توهايا. فاستعن بمهارتك وانتخب من أصحابك من يعينك على بلوغ مرامك في العدل والرحمة.

انتهى..

شابي وقصر النبيل كواتو

شعورٌ عجيبٌ أن أستيقظ في الصباح فأتخذ أفضل لباس وأفخر غطاء رأس، ثم أستقل المحمل الشرفي مؤطَّر الحواشي مُقَبَّب الظهر، ثم أذهب إلى مكان آخر غير السوق أو الدكان. أشعر وكأن نهارًا طويلًا ثمينًا يتبخر من بين يديَّ فلا أملك لأبخرته جمعًا، ولكنه بلا شك شعور زائف يجب أن أتخلص منه. لن تضيع تجارتي لقضاء نهار واحد بعيدًا عن الدكان. صحيح أنني لا أثق في قدرات أبناء عمومتي في تحمل مسئولية الدكان الجديد وملاطفة الزبائن وحملهم على مزيد من الشراء، ولكنها خسارة يمكن تجاوزها إذا قيست بما أرجوه من فائدة من لقاء النبيل كواتو.

لم أعُد أعقد الآمال على استجابة أبي لما أطرحه من أفكار تخرِجنا من دائرة التجارة التقليدية الضيقة إلى دوائر الصناعة وتجارة الأسفار كما يفعل أهم تجار الفردوس؛ يقومون بإرسال البضائع التي يمكن بيعها أو مقايضتها في بلاد العصاة مع سفن المعبد، فتروج تجارتهم وتتضاعف أرباحهم وترتفع مكانتهم عند كبار كهنة المعبد.

يريد أبي أن يستمر في القيام بما قام به لعشرات السنين، وبالطريقة ذاتها، لا يبحث عن طفرة ترفع عائلة بتاتشي إلى مراتب صفوة النبلاء في الفردوس، مثلما فعل النبيل كواتو قديمًا. أما النبيل كواتو فلن يدوم لي طويلًا، ويتعيَّن عليَّ الانتفاع بوجوده واهتمامه بي وحرصه على دفعي إلى الأمام، الآن وليس غدًا. يجب ألا تحين رحلة المعبد المقبلة دون أن أتخذ الخطوة المرجوة التي تضع لقب بتاتشي في المكانة التي تليق به. يجب أن أحصل اليوم على وعد صريح من النبيل كواتو بتزكيتي عند كبار الكهنة، كي يُدرَج اسم بتاتشي في قوائم التجار أصحاب البضائع المُعدَّة للبيع والمقايضة في بلاد العصاة. يجب أن أحدد اليوم أي نوع من البضائع يمكنني أن أنفُذَ به إلى هذه الغاية.

هييه أيها المولى..

ساعدني الآن، وليس غدًا.

***

قصر النبيل كواتو أجمل قصور الفردوس على الإطلاق!

لا يضاهيه بهاءً إلا قصر المبجل زولان كبير الكهنة.

جوانبه مائلة كجدران المعبد، مبنية من حجر أبيض برَّاق، تلتمع حباته تحت أشعة الشمس طيلة النهار، كأنما التصقت بسطحه فتافيت السكر. ترتص على واجهة كل جانب أعمدة مستديرة، مهيبة، على مسافات متساوية، تعلوها تيجانٌ ملونة ومزخرفة بماء الذهب والفضة.

تتوسط الأعمدة نوافذ هائلة، متسعة، في جهتي الشرق والغرب، تستقبل الضياء ونسائم الهواء أينما حلت، ويستقر تاجٌ حجري على قمة القصر، ترتفع من فوقه شجيرات مورقة مزهرة، بينما تتدلى منه نباتات متسلقة تتمدد على واجهات القصر في بهاء أخَّاذ..

تمتد فوق مِهاده من كل جانب حديقة ليس أبدع منها على الإطلاق، قليلة الشجر، كثيفة الزهر، تفترش صفحتها أحواض المياه والورود، وترقد فوق بساط عشبها طيور سمينة كسول، تتلاعب من حولها الغزلان الرشيقة.

أمُرُّ الآن بهذه الحديقة الفتانة، متجهًا نحو بوابة الاستقبال المهيبة التي يعلوها وجه النبيل كواتو، مجسمًا في تمثالٍ حجري مبتسم، يكاد ينطق مرحِّبًا بي وأنا مقبل عليه!

لا أشك أنني سأشيِّد قصرًا كهذا يحمل صورتي، منقوشًا أسفل منها لقب بتاتشي على كل جانب، ولكن متى؟!

هل أسميه حينها قصر شابي أم قصر بتاتشي؟!

سأعرف حتمًا عندما أشيِّده، وسأسمي حديقته جنينة تيها..

ستسعدين بذلك لا شك، تيها الحبيبة.

***

دلفتُ إلى القصر فأذهلني ما رأيت!!

أيُسَمّون هذا الصرح مسكنًا؟!

إذًا فماذا نسكن نحن؟!

لم أكن أتصور أن تبلغ قصور كبار النبلاء هذا الحد من الرفاهة والفخامة! كنت أعتقد أن المعبد الكبير أفخم بناء عرفه البشر، ولا شك أنه أهل لذلك؛ لأنه أقرب الأمكنة إلى المولى العليّ وأعلاها شأنًا، ولكن هذا القصر يتجاوز المعبد الكبير فخامة وبهاء..

هو الإبهار ذاته!

كيف نسمي أنفسنا نبلاء ونقف على قدم المساواة مع هؤلاء فوق المصطبة العليا؟!

ربما تكون محقًّا فعلًا سيد كواتو في تعاليك على أبويَّ، وفي نصائحك المتكررة لي أن أقفز فوق طموح أبي وأحاول الإمساك بالنجوم، تلك التي يراها أبي مستحيلة المنال.

وبينما أنا ذاهلٌ فيما حولي؛ إذ بالنبيل كواتو يضع يده على كتفي..

- شابي.. ولدي العزيز.. مرحبًا بك في بيتك الثاني، الذي لم تزُرْه قط.

عالجتُ أثر المفاجأة بابتسامة متسعة وتحية مبتكرة:

- سيد كواتو، أسعدت السماء صباحكم الوردي المغلف بالضياء والعطور.. هل تُسَمّون هذا بيتًا سيدي؟! لقد كدتُ أظن أنني أرى حلمًا لم يوقظني منه إلا ترحيبكم بي الآن.

- آاه.. شابي ي ي.. أنت لبقٌ وظريفٌ كعادتك.. إذًا أعجبك المنزل شابي.

- أعجبني؟! أنا لا أكاد أعي روعته ولا رونقه حتى الآن، كي أدَّعي مجرد الإعجاب! هو فوق ذلك بكثير سيد كواتو!

- هل تحلم بامتلاك قصر مثله، شابي؟

- لا سيدي.. لن يناسبني مثله.. سأعيش فيه ذاهلًا عن الحياة وما فيها من متع أخرى.. وربما أهجر من أجله تجارتي وكل ما كان يطيب لي قبل امتلاكه.

- كلا شابي، أنت تستحق قصرًا مثله، وخيرًا منه إن شئت. أتعلم يا بني؟ هذا ليس قصري الوحيد، بل هو أحد القصور التي أمتلكها. ولكنني وددتُ أن تجيء إلى هنا لأن القصر بعيدٌ عن أعين المتطفلين، وكذلك ضوضاء المدينة.

- أنا أعرف من بين قصوركم منزلكم الريفي، سيدي النبيل، الذي تمت فيه جريمة السرقة.

- هااا شابي، هذا ليس منزلًا يا ولدي.. إنه مجرد مكان للراحة أتابع من داخله شؤون تجارتنا وهموم تربية الأبقار وتدريب كلاب الصيد.

- اعذرني سيدي؛ فمثل ذلك المكان يُسميه أمثالي منزلًا مهيبًا.

- شابي، أنت لطيف بالفعل.

تأبط ذراعي، وأخذ ينقلني من مكان إلى مكان وهو يردف:

- أنا لا أتصورك ترتدي معطف أبيك وأعمامك.. تفتح أبواب دكاكينك كل صباح، ثم تغلقها آخر النهار قبل أن تذهب. أنا أرجو لك أن تصبح أهم أعيان الفردوس.. تروج تجارتك وتربو أموالك حتى لا يمكنك حصرها! لقد اتخذتك ولدًا لي كما ذكرتُ لك من قبل، وأريدك ألا تخذلني.

هذا ما قصدتكم من أجله اليوم سيدي النبيل، وإنه لشرف لا أخالني أستحقه أن أكون منكم بمنزلة الابن.

- منذ اليوم ستناديني والدي النبيل، عندما نكون بمفردنا، أفهمت؟

- نعم، سيد كواتو.

سأمهلك حتى تعتاد النداء الجديد شابي، مثلما سوف تعتاد المكوث في هذا القصر الذي يُبهرك.

- مثله لا يُعتاد سيدي النبيل.. هو متجدد الإبهار، منزَّه عن الاعتياد!

- ليس لي ولدٌ يرثه من بعدي شابي.. ليس لي وريثٌ يرث ما أمضيتُ حياتي في جمعه إلا ابنة أخي، تابيلا.. لقد وهبتني السماء كل شيء إلا الذرية والأهل، وابنتي تابيلا كذلك لا أهل لها سواي!

- أكم من أناس يتمنون التقرب منكم، سيدي النبيل!

- يسعدني ذلك بالتأكيد شابي، ولكن الصداقة والود شيء، وقرابة الدم شيء مغاير تمامًا. أخاف إن انقضت حياتي هذه وانتقلتُ إلى حياة جديدة أن أترك تابيلا وحدها دون أنيس ولا جليس.

توقف عن السير واستدار مواجهًا لي، واضعًا كفه فوق كتفي، وحدَّق في مليًّا..

قلت:

- لو ألمح سيدي برغبته في تزويجها لسَدّت أفواجُ الطلاب كلَّ سبيل يؤدي إلى القصر. وعندها ستكون جوهرتكم المكنونة سببًا في ملء حياتكم بالذرية والبهجة، سيدي النبيل..

- أترى ذلك، شابي؟

- نعم سيدي، بالتأكيد!

- نِعمَ الرأي شابي، أنت شاب لا مثيل له حقًّا.. هلُمَّ بنا كي أسقيك من شراب حشيشة الليمون، ثم أدعو تابيلا كي ترحب بك..

ماهيزو يدوِّن

تاهيري 98 / 19

اليوم التاسع عشر من الشهر العاشر من العام الثامن والتسعين بعد الدينونة، رابع أشهر الثلث الثاني من العام، أو ما عُرف عند أهل جزيرة الفردوس بالدينونة، التي بدأ بحلولها تقويمهم.

أنا الكاهن ماهيزو سول فاشوري، أسطر هذه السطور الآن للتاريخ، وللبشرية من بعدي، لا أبتغي من ورائها جاهًا ولا بطولة. إن أردتُ جاهًا فسبيل المعبد المفروش بالطاعة العمياء وخمار العقل يفضي إليه حتمًا، وإن أردتُ بطولة فمضمارها البحر ورحلات الهِداية، وقد ذقت الجاه سنين طوالًا، كاهنًا مبجلًا تطأطئ لحضرته الجباه وتنحني الأجساد، كما عرفت البطولة رجوعًا من رحلات المعبد المحجوبة خلف ستائر الأسطورة والوهم.

واليوم أقدم هذه البطولة الزائفة، قربانًا للحقيقة والنور.

أنا الكاهن ماهيزو سول فاشوري، أمسك اليوم بأوراق خاوية تنتظر الحقيقة؛ فإما أن تحملها أبد الدهر، وإما أن يخفيها الطغيان فلا تصل إلى مبتغاها. الحقيقة التي احتملتُها فوق عشرة أعوام حتى قاربتُ على الستين، فأخذتُ أتأهبُ لأن أطوي شراع العمر بعدما صمد طويلًا في وجه الزمن. سأخيط من شراعي ثوبًا أبيضَ، وأودِّع الفردوس التي شُغِفت بها وبأهلها المحبين المسالمين عمرًا بأسره. سيلحق ما تبقى من روحي بما رحل منها مع حبيبتي وأنس حياتي أناهيا سيل مائيجيه، بعدما غادرتني إلى حيث لا أعلم. كل ما أعلمه يقينًا هو أن روحها الطاهرة قد التحقت بمولاها القدوس في فردوسه العالية، فلم تسكن بدن زاحفٍ أو عائمٍ أو طائر، كما لقنتُ تلامذتي وأتباعي قبل اليوم. أشعر بروحها لم تزَل حاضرة من حولي، وعندما ألحق بها سيستوي الأمر لديَّ، كُنتُ ميتًا أو ملقى في هوة الإبعاد.

أنا الكاهن ماهيزو سول فاشوري، الابن الأوسط للكاهن هابو سول فاشوري؛ فكانت محبتي لأبي سببًا في شغفي بالمعبد والكهانة التي ارتقيتُ درجاتها حتى بلغتُ أعلاها، وما أعلاها بأفضل من أدناها، فلا تَبين لك الحقيقة حتى تبلغ أعلاها، فإما أن تحرق ما أمضيتَ العمر تزرعه، وإما أن تتكئ وتستريح لتجني الثمار، وكم هي مُرة تلك الثمار.

أنا الكاهن ماهيزو سول فاشوري، أقول لكم قبل أن أغادركم: إني أحبكم، وإن الفردوس أحبُّ الأوطان إليَّ، وربما أسعدها على الإطلاق.

لا ينشد فيها الفقير مالًا فيُضنيه السعي، ولا ميسور الحال مجدًا فيُشقيه العراك. الكل راضٍ بما قُسِمَ له، فكيف له ألا يرضى وقد أُسكِن الفردوس كما علم، وقُسم له من الرزق ما لا يستحق مزيدًا عليه؟!

هي فردوسٌ بلا ريب، ولكنها ليست فردوس السماء الموعودة، ولا بضعة منها، ولا أرضى أن يحجبكم عن فردوس السماء ضلال.

ابحثوا عنها في حنايا المعبد الكبير.

ادخلوه من أبوابه الخفية.

لا تركنوا إلى ما درجتم عليه، وإن أرضاكم.

عليكم ببقايا السفينة الغارقة في سراديب المعبد المغلقة. عليكم بالبحر والترحال وسبر أغوار الحقيقة، ولا تيأسوا من سبيل المولى العليّ؛ فهو موصولٌ بخطاكم، إن أنتم فتحتم أعينكم لتروه.

تكاتفوا أبنائي وأحبتي، ودقوا أبواب الفردوس التي تستحقون.

خَطّه ماهيزو سول فاشوري في حافظة الكتب - تاهيري 98 / 19.

***

- ما هذا المفتاح، سيدي الكاهن؟

- إنه مفتاح المجهول يا بني. مفتاح غطاء هوة الإبعاد.

- كما ظننت. سأكون أنا القرد إذًا، سيدي المعلم!

- يأبى قلبي أن أدفع بك إلى المجهول، ميلزو.

- أنا لها يا معلم، لا تخشوا شيئًا..

تيها ومفاجأة سارة

أفقتُ على سماع أصوات قرع مبهجة، لم أفهم لها سببًا!

أخُطِبَتْ إحدى بنات العائلة قبلي مجددًا، أم وَضَعَت إحدى السيدات مولودًا جميلًا؟

نفضتُ غبار الحلم المزعج الذي صار لا يفارقني واستبشرتُ خيرًا، فبللتُ منديل وسادة السرير بماء الورد، من الوعاء المجاور لسريري، ومسحتُ وجهي وفركتُ عيني، وسوّيتُ شعري بأصابعي في عجلة، ثم هبطتُ درجات السلم مسرعة كي أستقبل المشهد البهيج.

الخالة تيبويا تدُكُّ برجليْها أرض الطابق السفلي، في رقصة تجاوب لها لحمُها الوفير، فتتطاير حول قدميْها نشارة خشب الورد والأوراق الجافة التي تفترش أرضية البيت، بينما تلتف من حولها بناتها يقرعن المناضد والأواني والأكواب في حيوية تامة، وبهجة تعلو الوجوه.

- ما الخطب أيتها الراقصات اللاهيات؟

صحتُ فيهن متسائلة في شغف، فاستدارت نحوي ماكيلا ووجهها يكاد ينفطر مبتسمًا:

- سيخرج إيماهو من السجن تيها، سيخرج اليوم مبكرًا! ربما يكون قد خرج بالفعل وفي طريقه إلينا الآن.

- حقًّا؟!

احتضنتُها حتى كدت أعتصرها بين ذراعي، ثم جذبتُ ذراع الخالة تيبويا وحاكيتُ رقصتها المضحكة، حتى ثملنا جميعًا بالضحك وبالبهجة.

ولكن الفضول لم يمهلني كثيرًا؛ فصعدتُ إلى الغرفة مجددًا كي أبدل ملابسي وأذهب من فوري إلى المعلم ماهيزو حتى أستبين الأمر.

***

لم أجد المعلم في حافظة الكتب، فذهبتُ مسرعة إلى بيته.

استقبلني يابيتو بوجهٍ متجهم عابس. سألته عمَّا يزعجه، فأشار عليَّ أن أطمئن بنفسي على الكاهن ماهيزو.. ثم أثار دهشتي لما قال لي: إن الكاهن المبجل يفترش الأرض في غرفته ويخيط شيئًا من نسيجٍ أبيض!

اتجهتُ نحو غرفة المعلم، فوجدته منكبًّا على قطعة من القماش الأبيض يخيطها، بينما لا يترك الأسى لملامحه المألوفة أثرًا..

- ما بالكم يا معلم؟!

نظر نحوي في صمت، وأشار إليَّ أن أجلس بجواره على الأرض.. سألته:

- هل حدث مكروه سيدي الكاهن؟ سمعت أن إيماهو سيُطلق سراحه اليوم.

- نعم يا بنيّة، أشكر المولى أن أعاده إليكم سالمًا معافى.

- إذًا فما بال الحزن بادٍ عليكم؟

- يبدو أن الخبر لم يبلغكِ جملة. لقد ظهر من يدَّعي أنه السارق، فحُبِس هو، وأُمِر بإطلاق سراح إيماهو. وهذا الشخص هو ميلزو يا صغيرتي.

- ميلزو؟! ميلزو الحداد؟!

نعم، تيها.. ميلزو الحداد، مؤسس جماعة توهو وزميلكِ في الدرس قديمًا. ما كاد القلب يستبشر بخروج إيماهو حتى غمَّه خبر ميلزو الحبيب.

- لا يمكن أن يفعل ميلزو ذلك! ميلزو يسرق؟! أنا أعرف ميلزو منذ كنا صغارًا، نلهو ونتعلم.. أنتم كذلك يا معلم تعرفونه تمام المعرفة، وتعلمون كم هو حسن الخلق عظيم الورع! أيفعل ذلك ميلزو؟!

- لا يا ابنتي، لا يفعل.. ولكنه هو من ذهب إلى المعبد الكبير واعترف بالسرقة، بل وذكر تفاصيل ما يدعيه.

صمتُّ فزعًا لبرهة، ثم أردفت:

- لا بد أن هناك أمرًا ما لا نعرفه.. ميلزو لا يفعل ذلك أبدًا!!

- صدقتِ تيها.

قالها المعلم، وعاد إلى صمته.. وإلى حياكته!

حاولتُ استعادته ثانية، فقلت:

- ما هذا الذي تخيطونه سيدي المعلم؟ دعني أكمله كي تخلدوا أنتم لشيء من النوم.. عيناكم تبوحان بطول السهاد.

تمسَّك بقطعة القماش، وأردف دون أن ينظر نحوي:

- دعيه يا ابنتي.. فإن لم أنشغل بشيءٍ ستهلكني الحسرة.

حاولتُ ثانية:

- ولكن الثوب الأبيض هذا لا يليق بكم سيدي المعلم.. إن أردتم أن أخيط لكم رداءً آخر للنوم، فعلت ذلك.

فقال:

- أشكركِ يا صغيرة.. للنوم ضروب.. بعضها لا يطيبُ إلا في مثل هذا الرداء.

لم أفهم شيئًا مما قاله المعلم، ولكنني كففتُ عن السؤال!

لِمَ صرتُ كثيرًا ما لا أفهم مقصد المعلم؟!

رسالة من شابي

ناتوري 98 / 7

أين منا أيامنا الخوالي تيها، أيام كان الهناء مبعثرًا من حولنا، كأنه زهور الفردوس.. نقطف كيف نشاء من زهور الحب، تحفنا نسائم الحرية من كل اتجاه، فلا تمنعنا مسئولية ولا تمسكنا حسابات؟! كنتُ حقًّا مطلق اليد في الحب والحياة، أعشق من أريد وقتما أريد، فعشقتكِ تيها.. كنتُ كذلك أغترف من فنون التجارة والبيع وأنتشي بالموهبة والفخر بالقدر الذي أريد، فإذا مللتُ ذهبتُ حيث أشاء كيفما أشاء، فلا تذهب بي الأشواق إلا إليك حبيبتي.

أما اليوم فقد صيَّرني العمر أسيرًا للمسئولية، حبيسًا للأرقام، خادمًا لأحلام النجاح والترقي التي تعقدها عليَّ عشيرة بتاتشي.

طالما قالت لي أمي: اهنأ شابي وارتوِ من لذات الصبا، فلن تجد مثل هذه السعادة عندما تبلغ ما تطمح إليه من العمر والمكانة. كنتُ أظنها تبالغ في تصوير ما يعانيه الكبار حتى يستحقوا الطاعة والتوقير. كنتُ

أتشوَّف للخلاص من قيود الطاعة، وأنتظر متعجلًا أن أتقلد صولجان الأمر والنهي في التجارة والحياة. ظننتُ أن في ذلك مكمن السعادة ومفتاح النعيم في الحياة البعدية، لم أدرك أبدًا أن ذلك الصولجان أثقل من أن يحمله المرء ثم يهنأ بحمله.

هو عبء حملتُه فلن أستطيع الفكاك منه أبد الدهر، حتى يحمله من ورائي شقي آخر.

الحب منحة ساقتها إلينا الحياة البعدية دون مقابل، حبيبتي.. أما الزواج فله شأن آخر.. الزواج قرار يُبنى على حسابات دقيقة لا أملك أن أغفلها. وقد عقدت رباطًا بين الزواج والحب لا أحله مهما كانت التبعات؛ فلن أتزوَّج إلا بمن شُغِفت وأحببت حبًّا صادقًا مخلصًا، لم أذُق غيره طوال حياتي، أنتِ تيها. ولكنني أجدني اليوم وقد نزِع عني سلطان القرار، فلم يعد قراري يعنيني وحسب، بل يُعنى به كل من صرتُ مسئولًا عن نماء تجارتهم وطيب حياتهم.

أنا لست بهاجركِ تيها، لستُ بتاركك لأي فتاة أو امرأة أخرى ولو عُلِّقتُ فوق هوة الإبعاد ودُفعتُ إليها دفعًا، ولكنني كلما ترقيتُ سُلبتُ مزيدًا من حريتي، وصرتُ رقمًا صعبًا في حسابات العائلة وتجارتها، فسامحيني تيها.. سامحيني إن أبطأتُ السعي نحو زواجي بكِ، فقد أثقلني صولجان الإمارة والنماء، ونال من همَّتي.

ولكن لا تحزني تيها، الأمر لا يعدو مزيدًا من الصبر والزمن. تحمَّليني قليلًا يا حاملة همومي حتى أعبر هذا الطريق الموحل الذي انغرست قدماي في وحله دون توقع، ولا تثقليني يا أُنس حياتي بالأحزان والفواجع، ولا تبادريني بالأحلام المعلقة في السماء، لا يمسكها بأرض الفردوس إلا دخان الوهم.

كوني لي كما كنتِ دومًا، سُلَّمًا يصعد بي إلى حيث اختارتني الأقدار، وجذعًا أرتكن عليه فلا أهوي. وسأبقى لكِ عاشقًا مخلصًا كما كنتُ دومًا، فعشقنا حقيقة تعلو فوق الجدل والزمن.

أحبكِ تيها، ولا أسألكِ إلا مزيدًا من الصبر.

* * *

هييه أيها المولى..

الصبح صلاة الأنوار، والليل صلاة الأسرار..

هييه أيها المولى..

المعبد بيت الأطهار، وفردوسك مثوى الأخيار..

هييه أيها المولى..

ماهيزو يترقب

اليوم تطمئن ماهيزو أن ما تحاول الخلاص منه هو الباطل بعينه؛ فلو كان حقًّا ما كنتَ الليلة على هذا الحال البائس. آن لك ألا ترتاب مجددًا أن ما كنت تمارسه من عبادة طيلة هذه السنين ليس إلا هراء، فلم تُزكِّ نفسك ولم تُطهر روحك من الخوف والاضطراب.

أنت خائف ماهيزو، خوفًا لم تعرفه قبل اليوم، ولا أظن الأيام تمهلك حتى تراه ثانية.. خوفًا ثقيل الوطأة، شديد الأخذة، يستحيل معه الجسد أعضاء متفرقة لا تلتئم: قلب مضطرب يتقافز في فراغ الغرفة، ودماغ ثقيل كأنه كرة حديدية جوفاء، وأطراف لا تأتمر بأمرك ولا تسكن برهة كي تستريح من شقائك.

ليتكِ كنتِ معي الآن أناهيا..

لِمَ تركتِني في يوم كهذا، أحتاج فيه إلى صدركِ الدافئ الممتلئ، أغوص فيه فأختبئ وأنام؟ لِمَ لا أشعر بوجودكِ اليوم كما كنت أشعر

به البارحة؟ لن يسكن قلبي حتى تلمسي روحي أناهيا. تعالي الآن، أرجوكِ.. ربما تكونين بجواري ويحول الخوف دون أن أشعر بكِ.

كنتِ بجواري أو لم تكوني، سأشكو إليك حالي على أي حال. ولكنني أقسم عليكِ بما عرفتِ من الحقيقة، أن تسامحيني على ما فعلت، إن لم تسامحيني فأستحلفكِ بعشقكِ الذي غمرني فلم يفارقني حتى اليوم، ألا تهجريني، ولو ليوم واحد، فلم يعُد أمامي الكثير من الأيام حتى ألحق بكِ.

عاتبيني كيف شئتِ، حين ألقاكِ، فحينها لن أُحرم من دفئكِ وحنانكِ، وإن أغضبتكِ.

حبيبتي أناهيا، لقد زجرجتُ بابنيَّ ميلزو وبنتو إلى حيث لا أعلم. نعم فعلت، وآسف الآن أني فعلت، ولكنني فعلت، ولا أملك أن أستعيدهما الآن. لا أملك إلا الصلاة للسماء أن ترأف بحال ماهيزو الشيخ الضعيف وألا تفجعه في ابنيْه.

أما ميلزو الحبيب، فقد أمرته أن يصنع نسخة من مفتاح الأقفال التي يوصَد بها غطاء هوة الإبعاد، وحينما أعاد إليَّ المفتاح سألني عن الخطوة التالية، فلم أتوانَ في الموافقة على إرساله إلى السجن، بدلًا من إيماهو، معَرِّضًا حياته للخطر، وبدنه للتعذيب والتجويع. حتى لو استطعت إنقاذه من هوة الإبعاد، سيعيش بسُمعة قد تلوثت بجريمة لم يرتكبها. لن يجد ما يستحق العيش من أجله.

وأما بنتو فأمرته أن يصنع شبكة من الحبال حتى يثبتها، تحت دثار الليل، في جوف هوة الإبعاد؛ حيث لا يراها الناظر من خارجها، فتتلقى الجسد الخائر المُلقى في ظلام الهوة الموحشة، كي لا يهلك. ثم يُفتح له الغطاء ويُلقى إليه بالحبال في الليلة التالية، فيتسلق الجدار الحجري ويعود إلى الحياة مرة أخرى، فيُجابِه المعبد الكبير وقد نُفِّذَت في شأنِه عقوبة الإبعاد وعاد من جديد.

وقد اخترتُ الليلة موعدًا لتثبيت الشبكة، حتى يتستر بنتو بالليل وبالمحاق، فلا أعرف إن كان قد استطاع تحريك الغطاء الثقيل بمفرده، أو أن الأعين والآذان قد أدركته قبل إنجاز مهمته.

أنا أخشى عليه كثيرًا أناهيا، ليتكَ رفضتَ، بنتو، ما كلفتُكَ به. ليتكَ رفضتَ وأقلتني من هذا العذاب الذي أجد الليلة.

ليتكَ ميلزو ما أقدمتَ على تلطيخ سمعتك بأدران الجريمة وتعريض نفسك للهلاك في سبيل غاية لا تعلمها.

هذان الشابان يحبانني أناهيا ويخلصان لي؛ ولذلك أقدما على ما يفعلانه الآن. وأنا أزعم أنني لو كان لي ولدٌ ما زاد حبه في قلبي على حبهما، ثم أجدني ألقي بهما إلى المصير المجهول، دون تورع.

هل تصبو إلى معجزة ماهيزو؟

أتريد أن تعيد المُبعَدَ إلى الحياة، ثم تراقب المعبد وهو عاجز عن التفسير والتعليل، فلا يدرك ما أدركه في السابق في حادثة السفينة الغارقة؟!

أتعبث بأقدار ابنيْك كي تقض مضاجع الكهان؟!

ليس هذا قلب أب ما تحشو به صدرك وحق السماء.

هييه أيها المولى..

سامحني على ما فعلت بأحبابك.. فلم أقصد إلا إرشاد الناس إلى سبيلك..

هييه يا رب.. هييه أيها المولى!

أنقذ ابنيَّ، وألحقني بأناهيا، وخلِّصَني من قسوة العذاب..

***

تناهى إليَّ صوتُهُ خافتًا، لاهثًا، ولكني لم أنتبِه، ربما لانشغال ذهني..

- سيدي المعلم.. سيدي.. سيدي!

- من هناك؟! ارفع صوتك أيها المنادي وأرِني وجهك!

- سيدي، أنا بنتو سيدي.

قمتُ قاصدًا مصدر الصوت، فإذا بخياله يتحرك في الشرفة من وراء الستار..

- بنتو! كيف صعدتَ إلى الشرفة يا ولدي؟! تعالَ يا بني، ناولني يدك.. امم.. تعالَ، ادخل، حمدًا للمولى العلي أن بلغتَ مأمنًا.

- كيف جرت الأمور يا بني؟ هل شعرت بأحد يراقبك أو يتبعك؟! هل تمكنتَ من فتح هوة الإبعاد؟! هل أعدتَ غطاءها تمامًا كما وجدته؟!

لم أكن قد أجلستُه بعد، ولم أُسقِه شيئًا.. أغفلني الاضطراب عما وجب عليَّ فعله..

- عذرًا يا بني، استرِح، استرِح أولًا لا حاجة أن تتكلم الآن حتى تستريح.

- أنا بخير سيدي.. سأروي لكم كل شيء.. فقط أشعر بشيء من الإعياء، ربما لأنني لم أنَم منذ يومين، وكنت أفعل كل شيء وأنا في غاية الخوف والإجهاد.

- ستطيب يا ولدي. استرِح قليلًا وسأجيء لك بشراب البرقوق كي تستعيد بأسك.

- لم أعرف الخوف كما عرفته الليلة بنتو، فما بالكَ أنت يا صغيري؟ ليتني ما دفعتُ بك إلى كل ذلك.

- أبدًا سيدي المعلم! لقد جئتُ اليوم بأفضل ما فعلتُ طيلة حياتي.. يجب أن نفضح أكاذيب المعبد على مرأى من الناس جميعًا، حتى ينكشف لهم السبيل الحق! بعدما ننقذ ميلزو من جبروت الكهنة وظلمهم..

- ميلزو! تُرى كيف حاله الآن ذلك المسكين؟!

- لا تخشَ عليه سيدي المعلم، ميلزو رجل قوي جَلد.. والشبكة التي صنعتها تحتمل عشرة كميلزو أو يزيد. وقد ثبَّتُّها تثبيتًا شديدًا بالدُّسُر الصلبة التي أعدها ميلزو، وتركها لي مع المفتاح.

- طمأنتكَ الملائكة يا بني.. أواثق أن أحدًا لم يشعر بك بنتو؟

تعالت أصوات غريبة متداخلة بالخارج، وأخذَتْ تقترب وترتفع، حتى هزّت كياني!

قمتُ أستطلع الأمر..

- يابيتو! يابيتو! ما هذه الجلبة بالخارج؟!

أقبل يابيتو يتخبط في ارتباكه، يعلو وجهه الجزع:

- سيدي! ما هذا؟! متى حضرتَ إلى هنا أيها المباشر بنتو؟!

- دعكَ منه.. ما هذه الجلبة بالخارج؟!

- سيدي.. إنها شرطة المعبد سيدي، تستأذن في مقابلتكم و.. وتفتيش المنزل.

دفعتُ بنتو نحو الشرفة آمرًا:

- اختبئ بنتو!!

ولكنه عاجلني في يأس:

- لقد دخلوا بالفعل، سيدي المعلم!!

تيها في براثن الألم

القمة لم تعُد بعيدة، ومع هذا فالوصول إليها يبدو مستحيلًا..

أي عذاب هذا الذي خصتني به الحياة؟ ولماذا؟

منذ متى والضباب الكثيف يسود أجواء الفردوس إلى هذا الحد؟!

يالشدة ما ارتفعتُ عن سطح شاطئ بيروتشي!

لا، لا تيها!! لا تنظري أسفل منكِ ثانية!!

أي صوت عجيب ذلك الذي أسمعه؟!

كأنه صوت امرأة تستجدي وتنتحب!

كيف يأتيني صوت كهذا وقد ارتقيتُ كل هذا الارتفاع؟!

أنا حقًّا أتألم!

الآلام تتعاظم كلما استبدت بي هذه الوحدة المقيتة..

كلما ارتقيتُ نحو قمة الجبل!!

ولكن الخوف يتلاشى شيئًا فشيئًا.. وهذا عجيب أيضًا!

هل يتلاشى الخوف كلما تعاظم الألم؟!

ألا يحتمل الجسد كليْهما فيدفع بأحدهما الآخر؟!

فليكن ذلك..

الألم أيسر احتمالًا من الخوف.. مهما عظُم..

لن أخاف مجددًا، شابي..

افعل كما تشاء يا حبيب أيامي وطفولتي..

لن أخاف ثانية، وإن لم تأتِ لنجدتي..

أشعر أن المعلم قريب مني، وأنه لن يركن إليك، وسيأتي حتمًا لإنقاذي..

ما بال الأصوات تزداد لوعة كل حين؟!

***

هه!!

إنه الحلم مرة أخرى! لا يتركني ذلك الحلم السقيم أبدًا، حتى يملأ جوفي بإحساس كئيب بالوحدة. سأهلك حتمًا فوق هذه الفردوس المجنونة إذا استمرت الحياة على هذا النحو!

لقد جُنّت الفردوس بالفعل! الفجائع تأتي متلاحقة كأنها أمواج البحر، وقد رأيت كثيرًا منها حتى باتت لطماتها غير مفجعة على الإطلاق..

صرتُ أستقبل الحوادث الجنونية فأعجب لها ساعة، ثم أجدني أنغمس في مزيد من الحزن والوحدة. لم أعُد أنهارُ ولا أفقد صوابي كما كنت أفعلُ في الماضي؛ فقد عايشتُ وحوش الحزن والوحدة حتى ألفتها مع الأيام.

ربما لم أعُد أبحث عن السعادة كما كنت في السابق، وإلا فكيف لم أذهب لرؤية إيماهو منذ خروجه من السجن؟! كيف أسعد وقد استعدتُ حبيبًا كي أفقد الباقين؟! كيف أفرح لرؤية إيماهو وأنا أجدُ على هيئته آثار الشقاء الذي يلاقيه الآن ميلزو الجسور، وكذلك المعلم ماهيزو الغارق في الأحزان؟ آااه.. نسيت أيضًا بنتو المسكين! يذوق هو الآخر مرارة الوحدة والخوف بداخل السجن. تُرى ماذا دهاك أيها المعبد المظلم؟! أضحيتَ سجنًا يبتلع الأحباب، ولا يلفظهم حتى يبتلع المزيد منهم، بِنَهمٍ لا يخبو.

ما هذا الجنون؟!

كنتُ أعلم أن المعلم قد أعد خطة لم يفصح عنها إلا لميلزو وبنتو من أجل إنقاذ إيماهو من السجن، ولكنني لم أتصور أبدًا أن الخطة تقتضي أن يُفتدى إيماهو بكل هؤلاء!

هل حدث خطأٌ جنوني أودى بهم جميعًا، أم أنهم أقدموا على مجابهة إرادة السماء كما تقول أمي توهاما، فعاقبتهم دفعة واحدة؟!

لن أتمكن من مقابلتك سيدي المعلم هذه المرة لاستجلاء الأمر..

لا أذكر أبدًا أني مكثت في البيت لأيام عديدة هكذا، بلا مرض مُقعِد. حتى حافظة الكتب لم أعُد أذهب إليها. كيف تطؤها قدماي وقد خلت من روح المعلم ماهيزو، بلا أمل في عودته؟!

هل حقًّا لم يعُد هناك أمل في العودة؟!

لم يدخل أحد السجن ثم خرج منه إلى مكان آخر، غير هوة الإبعاد، إلا إيماهو.. هكذا تقول أمي للأسف..

لقد أصبحت الحافظة قبرًا مظلمًا بعدما افتقدت سيدها الكاهن الذي أنشأها وملأها بروحه ومخطوطاته، وربما إن ذهَبْتُ إليها ذكَّرْتُ المعبد بي، فأمر بالنَّيْل مني أنا أيضًا!!

تُرى أي تهمة يمكن أن يبتدعها لي المعبد الكبير إن أراد إبعادي؟!

لن تناسبني التهمة التي ابتكروها للمعلم ولبنتو المسكين.

«تعطيل إنفاذ إرادة السماء»..

يا لَهُ من مسمى رهيب.. هل يملك الإنسان أن يعطل إرادة السماء؟! إنها إرادة المعبد تلك التي حاولوا تعطيلها..

أتعجبُ كيف أقدم على ذلك الفعل هؤلاء الأبطال! أرجو أن تسامحني أيها المولى العلي فيما نعتهم به، ولكنهم شجعان بلا ريب، وإن عدّهم كبير الكهان من العصاة..

هييه أيها المولى!

لم أتوجه إليك منذ مدة.. ولكنني ألتجئ إليك اليوم فلا تخذلني. لا حاجة عندي بحياة تخلو من حنان شابي، ومن حكمة المعلم ماهيزو! فإما أن ترد إليَّ محبة شابي وأبوة الكاهن ماهيزو، وإما أن تبعدني عن كل هذا، فلا حاجة لي إلى فردوسٍ بلا أحباب..

هييه أيها المولى!

أرجو أن تسامحني، وأسألك أن تجعل أمي تسامحني كذلك..

سامحيني حبيبتي توهاما..

تُرى ماذا تحمل لي الأيام المتربصة؟!

***

لم يكُن لقائي بشابي هذه المرة كسائر المرات.. لم أرتَح له.. ولم يُفْضِ إليَّ بكل شيء.. حاجزٌ ما يرتفع بيننا، لا يمكنني تجاوزه، ولا يسعى هو إلى هدمه.. بل ربما يرتفع به شابي كل حين! شيء ما تغيَّر، في نفسه وفي نفسي.. لم يعُد يكترث لهمومي، ولا يحرص على لقائي كسابق عهده.. ثم جاءت تلك الرسالة التي بعث بها كي... كي تقضي على ما علق في قلبي من أمل!

- شابي.. أرجوك.. أفلِت يدي.

- لماذا، تيها؟! ماذا حل بكِ، وبي؟ هل صرنا غريبين إلى هذا الحد؟!

- الحياة ذاتها صارت غريبة شابي.. أمهلني بعض الوقت ربما أعود لطبيعتي.

- أُدرك أن رسالتي الأخيرة أغضبتكِ، ولكِ كل الحق، ولكنني اعتدتُ أن أصارحكِ بكل شيء.. الأمور أصبحت صعبة للغاية ولا أملك للأقدار دفعًا، ثم إنها...

- ليست الرسالة، شابي.

- فماذا إذًا؟! أنتِ تعرفين كم أحبكِ، وكم أرغب في الزواج بكِ، وأود ألا يتأخر ذلك لحظة واحدة.. ألا تعرفين ذلك؟! بل تعرفينه تمامًا، وإلا فلستِ تيها التي جمعني بها حبٌّ غامرٌ عمرًا بأسره..

ربما أكون مقصرًا في حقكِ إذ لم آتِ للقائك في المرة السابقة، ثم بعثتُ إليك بتلك الرسالة الصادمة، ولكنني أواجه ما لا أحتمل! أنا أعمل فوق طاقة البشر، وأواجه النقد والتقريع بسبب إصراري على الزواج بكِ، من الكهان والنبلاء على السواء!

سامحيني حبيبتي.. لم أقصد إهانتكِ، ولكنها التقاليد الجامدة والشروط البالية التي لا أملك منها فكاكًا.

- قولي شيئًا تيها.. أفتقد صوتكِ وبسمتكِ ووجودكِ كله!

- لا أريدك أن تعاني بسببي شابي.

- لا تقولي ذلك تيها.

- ألم تطلب مني الحديث؟ اسمعني إذًا.. أنا لا أسألك فوق ما تستطيع، فلا يدرك أحدنا حقيقة الأشياء والأحوال حتى تقذفه الحياة أسفل ركبها. ربما لا أفهم سبب هذا العناء الذي تدفن نفسك فيه، ولماذا تستعجل كل شيء، ولكنك أعلم بمآ يناسبكَ وما تنتظره منك عائلتك..

أما عن زواجنا فلن أستعجلك كما تستعجل أنت النجاح والثروة، ولكني أسألك ألا تبادرني بالأشواق والمحبة كلما قابلتني، وألا تبعث إليَّ بالهدايا والرسائل؛ فأنا منشغلة هذه الأيام بما أصاب المعلم وتلميذيْه.. أحتاج إلى مزيد من الجلد والصبر، ولا حاجة لي بهذه العاطفة.

تيها، حبيبتي، أنتِ تعلمين قدر المعلم في نفسي، وكذلك قدر الباقيين، ولكنني أتوسل إليك ألا تبدي اهتمامًا أو انزعاجًا بالغًا بشأنهم..

- لا عليك بي شابي، سأعتني بأمري فلا تقلق.. أنا لا أذهب صوب المعبد ولا ألتقي النبلاء الذين تقابلهم وتخاف أن يمسني السوء من قِبَلِهم.

- أخاف عليكِ إن سُمِع منكِ ما لا يرضاه المعبد بشأن احتجاز المعلم والصبييْن أن...

- ليسا صبييْن شابي!! هما رجلان.. كانا منذ سنوات زميليْن لك في الدرس!

- لم أقصد، حبيبتي! هكذا يسمونهما في معرض الحديث عن ذلك الأمر.. إنهما صديقاي بلا ريب، ولكن المعبد غاضبٌ أيّما غضب، ولا أريدكِ أن تزجي بنفسكِ في ذلك الأمر فيلحق بكِ الأذى!

- اطمئن شابي. أنا أطلب منك شيئًا وحيدًا أرجو ألا تخذلني فيه..

- مُريني، تيها.

- أريدك أن تلتقي المعلم وتطمئن عليه.

- المعلم؟! كيف ألقاه؟! لا أظن أن يُسمَحَ لي بلقائه حبيبتي!

- أخالُكَ قد صِرتَ من ذوي النفوذ الآن شابي. قل لهم أي شيء.. قل لهم إنك تستطيع التأثير عليه وستحاول أن تدفعه إلى استنكار ما أمر به تلميذيْه. قل لهم أي شيء يحملهم على السماح لك بلقائه.

- الكذب بذرة الشرور تيها.. هكذا تعلمنا ونحن صغار.

- المعلم هو من علمك هذا!! وهو الأحوج اليوم لما تُسميه كذبًا! إن شئتَ فافعل، وإن لم تشأ فلن أُكرهك على ما لا تريد، ولكن أرجوك ألا تحدثني مرة ثانية عن الحب والتضحية وكل هذه السخافات..

- سخافات؟! اهدئي حبيبتي، أنا حزين لرؤيتكِ على هذا الحال. سأفعل هذا من أجلكِ، إن وسِعَني ذلك، وأرجو أن تطمئننا السماء على المعلم، حتى تهدئي بالًا

أرسل إليَّ جاريتك بأخبار المعلم فور لقائك به، وأرجوك أن تساعده إن استطعت، فطالما غمرك بحبه وحنانه.. وأعِدُك ألا أطلب منك شيئًا آخر شابي.

شابي في المعبد الكبير

رأيت العجب العجاب هذا الصباح..

ذهبتُ إلى المعبد الكبير في صحبة تابيلا، حتى تشفع لي لدى المبجل بأمر الرب كبير الكهنة زولان، كي يسمح لي بلقاء الكاهن ماهيزو في محبسه. رجوتُ تابيلا أن تساعدني في هذا الأمر، لما لها من مكانة خاصة لدى حضرة كبير الكهنة، وما لي من مكانة خاصة لديها. كانت تلك هي المرة الأولى التي أكون فيها بصحبة فتاة غير تيها، وبالطبع لن أستطيع سرد هذا الفصل من حكاية اليوم أمامها. ولكنني فعلت ذلك من أجلها على أي حال.

تابيلا فتاة لطيفة، مُحبة للعطاء، ولم أكن لأجد فرصة كهذه للقيام بما رجتني تيها أن أفعله..

لم أتصور أن تكون قاعة كبير الكهنة بهذا الحجم ولا هذه الفخامة التي تفوق كل تصور.. لها باب كسائر أبواب قاعات المعبد الكبير،

فلا تشعر وأنت تقف بصدده أن يخفي من ورائه كل هذا السحر. القاعة مستديرة الجدران، مرتفعة السقف، بيضاء اللون، ذهبية النقوش، ليس لها مثيل فيما رأيت قبل اليوم. أرضيتها من رخام أبيض متلألئ السطح كمرآة. جدرانها بيضاء مصقولة، لم يُترَك فوقها موضع كف إلا ونقش بماء الذهب الخالص. تصطف حول محيطها أعمدة رخامية بيضاء، في لون الأرضية الباهرة، موشاة بالنقوش الذهبية البديعة. يعلوها سقف مقبب هو أبدع ما في القاعة وأبهر ما يتخيله المرء في الضخامة ودقة الزخارف وتباينها حجمًا. تتسع الزخرفة عند قاعدة القبة، وتضيق في اتجاه أعلاها، وكأنها ترتقي بأبصارنا إلى السماء..

تتوسط القاعة مصطبة متسعة، على هيئة ثلاث درجات مستديرة متدرجة، ترتقيها من أي جهة لتجد عرش كبير الكهنة المبجل.. عرش ذهبي باهر الهيئة والشموخ، مرتفع الظهر، بارز الزخارف، مستدير القاعدة، يستقر فوقه المبجل بأمر السماء زولان، كبير الكهنة، بجسده الناحل الضامر، وقد جلس في كامل حلته الكهنوتية المقدسة. دثاره المُوشّى بخيوط الذهب، المُؤطّر أعلاه بريشاته النادرة المصبوغة بماء الذهب والفضة، يفضي عليه هيئة غامرة البهاء، تامة الإبهار، بينما ازدان رأسه المُوقَّر بتاج الكهانة، ذي الطوق الذهبي المحيط بجبهته الشامخة، والريشات الأربع التي تؤطر الرأس المهيب من كل جانب.

ارتقيتُ درجات المصطبة المستديرة الرخامية، ألحق بتابيلا التي اتجَهَتْ إلى حيث يجلس كبير الكهنة، غارقًا في صمته وجلاله.

قبَّلَتْ تابيلا رأسه المخفي أسفل التاج، فانحنيتُ بدوري مقبِّلًا كتفه اليمنى، ثم تراجعتُ خطواتٍ إلى الوراء، ناظرًا أسفل قدميّ. انحنَتْ تابيلا نحو أذنه اليسرى، وأسرَّت له حديثًا طويلًا لم يجِبها أثناءه ولو بإيماءة من رأسه الصغير، ثم أنهى الحديث أخيرًا بإشارة شعرتُ بها وأنا لا أزال مطأطئ الرأس متوجهًا بكلِّيَّتي نحو العرش المهيب.

أحسستُ بها تنسحب إلى الوراء، بعدما قبَّلَت رأس المبجل زولان ويده، ثم أحسَستُ بها تجذبُ يدي وتسحبني إلى الوراء دون أن تستدير، حتى درجنا فوق أرض القاعة، ومررنا عبر بابها، فأحسَستُ بدقات قلبي وهي تستكين شيئًا فشيئًا، حتى اختفى رجعها من صدري وأذني.. وعُدْتُ أتنفس بانتظام من جديد.

سألتُ تابيلا فور استعادتي لأنفاسي:

- ماذا قلتِ لكبير الكهنة؟

قالت في جدية:

- لا شأن لك.. يكفيكَ أن وافق وحسب. ولكن اجعل لقاءك بذلك المارق مقتضبًا، فلن أنتظرك طويلًا.

- أمركِ تابيلا.. لا أعرف كيف أشكر لكِ هذا المعروف.

- فكِّر مليًّا حتى تجِد الطريقة المناسبة..

ثم كان أن رأيتُ أعجب ما رأيتُ على الإطلاق!

كنتُ أتبع ذلك الشرطي العملاق الجهم في اتجاه بوابة الخروج، حتى ظننتُ أنه يصطحبني إلى الخارج، فلم أفهم إن كانت الزيارة قد تأجلت إلى يوم آخر أو أن سجن المعبد ليس في محيط المعبد الكبير على الإطلاق.. ثم إذا به يجذبني ويمرق بي من وراء أحد الأعمدة الضخمة، فيدلف عبر فتحة ضيقة غير مرئية في الجدار تعجبت أن اتسعت لمروري منها دون احتكاك بجوانبها!

وجدتُني أتبعه في دهليز ضيق، حتى لتكاد كتفاي أن تلمسا الجدران على الجانبيْن.. يمشي برهة، وأنا أتبعه، ثم يتوقف فجأة فأكاد أصطدِمُ به! أقف فلا أرى من وراء جسده الهائل شيئًا.. أسمع صليل مفتاح أو حديد صدئ يحتك ويصطك، ثم أجدني أمرق خلفه أسفل باب حديدي، معلَّق فوق الرؤوس!

بعد عدة مرات، أفضى بنا الدهليز إلى قاعة مظلمة عطنة، تقبع تحت صمت ثقيل، لا يشق فضاءه إلا حفيف الخفافيش المتهاوية من سماء القاعة الظلماء!

ساقني الشرطي في صمت نحو الجانب الأيمن من هذه القاعة، ثم توقف.. فتح بابًا حديديًّا مررنا من خلاله، فغرقنا في ظلام كئيب مقبض.. شعرتُ حينها بالندم أن أقدمت على المجيء إلى هذا المكان، وتذكرتُ تيها، ولُمْتُها في خاطري.. ثم سمِعْتُ صوت احتكاكٍ ارتَعَدَتْ له فرائصي، ظهرت في إثره شعلة صغيرة تحوم من حولي حتى استقرت برهة، فأضاءت شعلة أكبر منها أنارت الفضاء المحيط بها..

ظهرت الجدران البالية المتقاربة، والسقف المطأطئ فوق الرؤوس يكاد يلمسها!

تمكنتُ بعد برهة من رؤية التفاصيل التي تتذبذب من حولي، على ضوء الشعلة المضطربة.. حتى رأيتُ وجه المبجل ماهيزو يقبع في زاوية الحجرة التي صرتُ أدرك أبعادها.. بينما تلاشى وجود الشرطي الضخم دون أن ألحَظ خروجه.

- المعلم!!

تفوهت داهشًا..

- اقترب، شابي.

رد المعلم..

أردفت مرتبكًا:

- كيف أصبحتم سيدي؟ جئتُ لأطمئن عليكم، ولا أجد ما يُطمئِن على الإطلاق!

- لا عليك يا بني. لقد هرِمتُ، ولن يضيرني أن أُقبَرَ مبكرًا بعض الشيء.

زادتني ابتسامته الواهنة ارتباكًا، فقلت:

- لمَ تقولون ذلك يا معلم؟! لا، لا يمكن أن يستمر بقاؤكم في هذا المكان الخانق أكثر من هذا!

- لا خلاص يا بني.

- الخلاص في أن تُفهِموهم، سيدي المعلم، أن ما يظنونه في شأنكم ليس صحيحًا! بل لا يمكن أن يكون صحيحًا!! قل لهم سيدي إنكم من حماة عقيدة الحياة البعدية، وطالما حفظتم المعبد والدواوين.. لا يمكن أن يُظَنَّ بكم السوء سيدي الكاهن المبجل!

- لا فائدة يا ولدي. سأموت حتمًا، فلا أريدُ أن أفقد كل شيء قبل أن أموت. لربما يذكر التاريخ أن الكاهن ماهيزو حاول أن يدفع الظلم والضلال بكلتا يديْه، حتى انتهت به الأقدار في هوة الإبعاد.

هالني ما قاله الكاهن.. فلم أكن لأصدق حتى هذه اللحظة ما يتناقله النبلاء من خبره.. سألته فزعًا:

- أي ظلم؟ وأي ضلال، سيدي المعلم؟! لقد ظَلَمتُم أنفسَكم وحق السماء!! هل صدقًا حاولتم تعطيل أمر الإبعاد؟!

أجابني بهدوءٍ لم أفهمه.. ربما لوهن أصابه:

- اهدأ يا ولدي. لقد صنعتُ ما ظننت أن فيه مشيئة السماء ومرضاة المولى، وأنا راضٍ تمامًا عمَّا صنعت وعمَّا سألقى في سبيله.. إلا أنني زجَجْتُ بابنيَّ فيما أكره لهما، ولم أستطِع رغم تلك التضحيات أن أجعل رسالة السماء في أيدي العباد..كما أمُلْت.

لم أكن لأصبر على قوله أكثر من ذلك.. أردفت ذاهلًا:

- أي رسالة سيدي الكاهن المبجل؟!

- شابي.. إن كنتُ حقًّا لا أزال المعلم المبجل ماهيزو بالنسبة لك، فاصنع لي معروفًا أخيرًا.. ولا تخشَ شيئًا، فلن أحتمل أن أجر مزيدًا من الضرر على أبنائي وأحبتي.

- مُرني، سيدي!

- كنتُ قد كتبتُ عريضة دفاع كي ألقيها على الحضور يوم المحاكمة، ولكنني الآن لم أعُد أثِقُ أنني سأُمنَح محاكمة عادلة تتيح لي حق الدفاع قبل توقيع العقوبة. لقائي الأخير بكبير الكهنة زولان أكد لي مدى تخوفهم من حديثي. ربما أُمنَع عن الحديث حتى يوم الإبعاد. بل ربما يكمَّمُ فمي يوم الإبعاد، فلا تُسمَعُ مني كلمة وداع واحدة.

- أتريدني أن أقرأها بدلًا منكم سيدي الكاهن؟!

- لا يا بني، لا تعجل، لن أطلب منك ما لا تُطيق. كن هادئًا ورزينًا، فقد صِرْتَ اليوم من أعيان النبلاء، فلا تجُرنَّكَ الحوادث إلى انفعال يكشف باطنك أو حديث يهتز له موقفك.

- نعم سيدي المعلم.. فماذا إذًا؟!

قام من مجلسه مترنحًا، فمددتُ له يدي كي يستند إليها.. ذكرتني لمسته الحانية بمعلمي ماهيزو.. ماذا تُراه قد أصاب أهل الفردوس؟!

استخرج شيئًا من ردائه وأردف:

- لا يعلم بأمر العريضة أي امرئٍ سواك، شابي. خذها وسلِّمها لتيها، سرًّا. ولا يقلقك شيء، فلن يعلم بها أحد مطلقًا ولا بمن حملها.. لا تقلق كذلك بشأن تيها، فلن أطلب منها سوى أن تحفظها، فربما تصل كلماتي إلى أجيال لن ألتقيها، وربما لن تلتقوها أنتم كذلك.

لم أُعقِّب، ولم أكن متيقِّنًا ما أنتوي فعله.. الأمر جلل، ولكني لن أسمح لثوب المعبد أن يلطخه جور.. للمعلم حق في الدفاع مهما أتى من فعل..

انتبهتُ لصوت المعلم يقول:

- لم أسألك عسيرًا شابي، فلا تتردد في منحي آخر ما أطلب من هذه الحياة الـ...

رددتُ رغم ما ألمّ بي من خوف:

- أمركم نافذ سيدي الكاهن.. ولكني أرجوكم أن تعودوا عمَّا قلتم، إن كنتم قد جئتم بما يُساء فهمه! لا يمكن أن تكون نهاية حياتكم الحافلة بالوعظ والتعليم وخدمة المعبد مثل هذه النهاية المؤسفة التي تصفون.

- دعكَ من كل ذلك شابي. خذ العريضة وحسب. أسرع بإخفائها قبل أن يرجع الشرطي.

- أمركم سيدي.. ألا تحتاجون شيئًا آخر؟ هل آتي لكم بطعام أو نبيذ أو ملبس أو أي مطلب؟

- لا شابي، لا شيء إلا العريضة.. وأن ترعى تيها من بعدي، وتُعجِّل بالزواج بها، فلا أطمئن عليها إلا زوجة في كنفك.

- نعم سيدي. أسأل السماء أن تُعينني على ما أمرتني به سيدي الكاهن.. حفظتكم الملائكة.

- وأنت كذلك شابي الحبيب. ربما صِرْتَ من أعيان النبلاء اليوم، فلم تُقَبِّل يد معلمك كما كنتَ تفعل في السابق، ولكن دعني أحتضنك لمرة أخيرة قبل أن أرحل عنكم.

- سيدي!!

ارتميتُ في حضنه كما كنت أفعل في السابق، آلمتني عظامه التي برزت كثيرًا!

ماذا تُراه قد حدث لأهل الفردوس؟!

مبارزة ماهيزو الأخيرة

هيبه.. نفسًا واحدة لم أنقذ..

أرى الأيام قد انقضت، ورحلت عني السنون. لم يبقَ لديَّ إلا صور صامتة، لا صوت فيها. لِمَ تذهب الأصوات فلا تعود؟ صوت أمي.. صوت أناهيا.. تراتيل أبي وأناشيد الفصل.. دعاء جدتي والحكايات المرعبة عن البحر والأطياف. كيف كان صوت الموج؟ لا ليس كذلك تمامًا.

الموت ينتظر.. أسعى جاهدًا كي أصل إليه. وأخشاه..

ماذا بعد؟ ماذا بعد الموت؟ هل أرى أناهيا، أم أنه العدم؟

هناك فردوسٌ لا ريب، لن تطأها قدماي بالطبع. فلم أنتشل نفسًا من الضلال. من العذاب لم أنقِذُ نفسًا واحدة.

عرفتُ الباطل، نبذته، ولكنني رغم ذلك لم أدرك الحق. هو موجود في مكان ما بالطبع. ولكن أين؟ لا أعرف شيئًا.

أَللحق صوت؟!

كانت أمي تلاطف أبي فتقول: أنت صوت الحق..

لا أبالي الآن؛ فقد ذهبت الأصوات جميعها إلى غير رجعة.

الطريق وعر.. والألم فوق الاحتمال..

الصبر لب الإيمان.. والإيمان ثمرة الفهم..

أين أجد الثمرة؟

سأموت، ولم أفهم بعدُ..

الفردوس لم تخلَق لمثلي. يكفيني أن سكنتها سنين، أو هكذا ظننت.

صرتُ آلف الظلمة. أرى الصور أوضح في الظلام. أرى أمي تحمل الخبز فتقضمه، وتمضغه مضغًا هينًا، ثم تأخذ بعضًا منه من فيها وتمُدُّه نحوي.. ألتقمه من بين أصابعها المبتلة، دافئًا وليِّنًا، يَسْهُلُ عليَّ بلعه.

يعجبني رداؤها كثيرًا، ولكنني أكره أن يراها فيه الزوار الكثيرون المترددون على أبي، الكاهن عظيم الشأن.

أرى صديق طفولتي ميموزو، وقد أخذ الضياء يخبو في عينيه الدقيقتيْن، حتى صار يتخبط في أجساد الأطفال ويتعثر في الإوز المتفلِّت بين الأقدام.

- احذَرْ ميمو! أمسِكْ بيدي ميمو..

- إليك عني! لا أحتاج مساعدة قط..

- لماذا تكره أن أساعدك ميمو؟!

تُراه كان يرى الأشياء أوضح بعدما سكنت عينيه الظلمة.. أرى الأشياء أوضح الآن، بعدما أُسكِنتُ الظلمة والصمت.

- ألا ترتدين ثوبكِ الوردي أناهيا؟

- ألم تجهِدكَ صلاة الليل أيها الكاهن اللعوب؟

اللون الوردي يسطع لامعًا في ظلام الحجرة، أناهيا.

* * *

«المبجل بأمر السماء كبير الكهنة زولان»..

اننن. للضوء آلام تعتصر المقلتيْن، فتذرفان دموعًا حارقة!

- كيف أصبحتَ اليوم ماهيزو؟

- لا أظنني نمتُ بعدُ، سيد زولان.

- إنه الصباح المشرق ماهيزو.. نام جميع أهل الفردوس ومخلوقاتها، واستيقظوا مستقبلين يومًا جديدًا هانئًا من أيام النعيم.. ألا تشتاق لذاك النعيم؟

- الشيخوخة لا تعرف النعيم.

- لقد أمهلتُكَ طويلًا كي تعود لرشدك ماهيزو.. صدقني يا ولدي.. أصعب ما يواجه المرء أن يفقد أحد تلامذته. وأنا لن أفقدك فحسب.. بل ستنتشلك أطياف الشرور من بين يديّ!

- أفي الفردوس أطياف شرورٍ سيد زولان؟

- هييه.. تتكَشَّف الحقائق للإنسان يومًا بعد يوم.. فندرك ما لم نكن ندرك من قبلُ..

تدركون الحقائق ثم تخفونها عن الناس، فتملكون بين أيديكم مفاتح الحقيقة.

الناس جميعهم حراسٌ للحقيقة.. وللحقيقة مراتب وطبقات لا تدرَك إلا ببذل الجهد والصبر على التعلُّم. قُلْ للظمآن إن ثمة ماء أسفل قدميْه.. فانظر، هل يصدقك؟ ولكنك إن تحمله على حفر بئر يبلغ الماء ويدرك غاية الحقيقة التي كانت خافية عنه.

- إذًا نساعدهم على الحفر، ولا ننكر وجود الماء، ما دمنا نملك مكنون الحقيقة، حقيقة السفينة الغارقة، والغرف السرية في المعبد الكبير، ومخطوطات أهل نورال..

صه ماهيزو!! الآن تأكدتُ لي الظنون أيها المارق النجس!! تتجسس على أسرار المعبد، وتفتش في أرواث العصاة من أهل البلاد الغارقة في الكفر؟!

لم أصدق ما نقله إليَّ زملاؤك من احتفاظك بقصاصات أوراق تحمل كلامًا مبهمًا، لم يتمكنوا من فك طلاسمه! ولكنهم أحسنوا صنعًا أن جعلوك تحت المراقبة الدائمة من شرطة المعبد، أنت ومن يطوف بمدارِكك من الشبان الزنادقة.

- الآن فهمتُ كيف استدعيتَ الأطياف وسلمتها روحك الدنِسة! تلك الأطياف التي سرقت لك مفتاح هوة الإبعاد، أليس كذلك؟! ليس الأمر إنقاذًا لمجرمٍ من تلامذتك إذًا! بل إنك تسعى لكي تفسد على الناس دينهم كما فعلتَ بنفسك!!

- تخشَون إذًا كشف الحقائق للناس، سيدي كبير الكهان.

- اصمت ماهيزو! لا أريد أن أسمع صوتك بعد الآن. أتحسب الناس يصدقونك أيها المارق الدنِس؟! لو خبروا بأمرك لأكلوك حيًّا، انتقامًا لمعبدهم!!

- خلِّ بيني وبينهم، وسأرضى بالعذاب لو أتاني من قبلهم.

- صه ماهيزو، صه!!

- خسارتي فيك فادحة ماهيزو.. كيف أمْكَنْتَ الأطياف الشريرة منك إلى هذا الحد، فأفسدَت عليك عقلك الراجح ويقينك الثابت؟

اسمع ماهيزو.. ما تظن أنك قد كشفته ما هو إلا ضرب من الخيال يا بني، فإما أن ترجع عنه، وإلا أودى بك إلى جحيم أرض العصاة!

لكل بيت أسرار يا ولدي، لا يدركها إلا الخواص من أهله. فلا يكشف هؤلاء الخواص أسرار بيوتهم حتى تستقيم لهم شؤونها، ورغم ذلك لا تخدش السرية جوهر الحقيقة ماهيزو، وإن لم يدركها الكثيرون.

ما لون ذلك الثوب الذي ترتديه، ماهيزو؟

- أبيض سيدي، هكذا كان قبل مجيئي.

- ترى لو أتيت قومًا آخرين يسمونه أحمر، وحاولتَ أن تحملهم على ما تعتقد، أتراهم يتبعونك؟ الحقيقة هي ما أجمع القوم على أنه الحقيقة، فاستقامت بها حياتهم، فإن لم تستقِم سعوا إلى حقيقة غيرها حتى تستقيم لهم الحياة.

الفردوس حقيقة يلمسها الناس، فيهنؤون بها ويسعدون. أتُراهم يحْفَلون بك لو نزعتها من بين أيديهم؟ لو تركتك وأطيافك تمرحون في فردوس السماء بهذه الهرطقة، ربما قاتلك الناس، وانقلبوا قُتّالًا بعدما عاشوا عبّادًا أطهارًا يصلون للمولى حمدًا وعرفانًا.

لا تلُمْني يا بني إن لم أجد مكانًا لمارقٍ مثلك في ربوع الفردوس. وداعًا ماهيزو..

يا جنود!!

* * *

باسم المعبد يُنفَّذ قضاء كبير الكهان، كلمة السماء وسيد سكان الفردوس، المبجل بأمر السماء زولان سول توبييه.

نص الحكم:

«يحلَقُ رأسُ المارق ماهيزو سول فاشوري، ويجرد من ملابسه إلا ما يستر سوأته، ويُقطع لسانه الذي نطق بما أملتهُ عليه الأطياف الشريرة.

ينفذ باسم المعبد الكبير.

انتهى».

تيها وحلم أخير

تابتابو.. تابو..

تعالَ تابو، تعالَ..

لم أشأ إزعاجك.. أنت من صممت أن تنام إلى جواري. قلت لك إن نومي مضطرب هذه الأيام.. لعلك صدقت الآن..

لا تنظر إليَّ هكذا بلَوْم!

لو رأيتَ ما رأيتُ لحزِنْتَ من أجلي..

هذه المرة، رأيتُني لا أزال عالقة فوق جبل بيروتشي، قريبة جدًّا من قمته المنبسطة. كنت أجاهد حتى أرتقي آخر صخرتين ملساوين تفصلانني عن أعلى الجبل. كنت في غاية من التحفز والحيرة، أريد أن أبلغ مصدر الصوت الملتاع. انزلقت إحدى رجليَّ فجُرِح باطن ساقي اليمنى وأنا أحاول أن أتسلق الصخرة الأخيرة.

تألمت كثيرًا تابو، وزاد من آلام الجرح ذلك الضباب الكثيف والهواء البارد المتحرك. تحاملت، واعتمدت على قدمي اليسرى، وتشبثتُ بشدة

بتلك الصخرة الأخيرة حتى ارتقيتها. تلفَّتُّ حولي أبحث عن مصدر الصوت.

كان يأتيني هكذا تابتابو: أاا إي ي وو وو.

صوت واهنٌ مكلوم، يشق الضباب الكثيف، فلا يصلني منه إلا رجع مكتوم..

عرجتُ فوق قمة جبل بيروتشي المنبسطة، لا أرى من حولي أبعد من نهاية هذا السرير. كنت أخشى الاصطدام بشيء، أو التعثر والسقوط فوق رجلي المجروحة، ولكني واصلت السير نحو مصدر الصوت، كأنه يناديني ويستنجد بي. كان الصوت يعلو شيئًا فشيئًا. شعرتُ أنني أقترب منه كلما تقدمت.

مااا مي ي ي مو وو...

أحسَسْتُ بأنني أوشكت على بلوغ مبتغاي. هرولت.. حجلت.. هذه المرة تعثَّرْت.. هويتُ فوق السطح الأملس..

رأيتُ على مبعدة ذراعين من رأسي باطن قدميْن! قدمَي أنثى متصلبتيْن، تتشبثان بيأس بالسطح الأملس. زحفتُ نحوهما. عرفتُ هاتين القدميْن، كما عرفتُ ذلك الثوب المهترئ الذي يتطاير أعلاهما.

رأيتهما من قبل.. إنها أناهيا.. ليست سوى أناهيا.

زحفتُ بمحاذاة الجسد الممدد.. ناديتُ أناهيا بصوتٍ متقطع، فلم تُجِبْ.

ماهيزووو.. تماسك ماهيزووو..

تمدَّدْتُ بجوارها، فإذا برأسي عند حافة الجبل. كانت أناهيا تدلي ذراعيْها من أعلى حافة الجبل. ذراعاها ترتجفان، تتصببان عرقًا وقهرًا رغم البرودة والارتفاع والهواء المضبب. يتشبث بهما المعلم ماهيزو وهو يتأرجح في الهواء، يجاهد كي تبلغ إحدى قدميه صخرة من صخور الجبل. كأن الصخور تبتعد عنه كلما حاول أن يدركها.

اصمد ماهيزووو.. اصمد ماهيزووو..

كُماه الواسعان يتدليان فوق لحيته.. عروقه نافرة كأنها الأفاعي تسبح أسفل جلده.. عيناه اليائستان تذرفان الدموع، فتستقر حول مقلتيْه.. أنفه المصبوغ بالبرد والمرض يشير إلى السماء متضرعًا!

هالني المشهد، فمدَدْتُ يدي أحاول التقاط ثوب المعلم كي أجذبه.. انزلقت يدا المعلم فجأة! حاول التشبثَ بأنامل أناهيا، آخر أمل له، ولكن.. بلا فائدة. هوى.. هوى نحو سفح الجبل، ولا يزال مادًّا ذراعيه وأنفه إلى السماء، مستجديًا ولائذًا بمن هو أعلى!!

عيناه الجاحظتان لا تفارقان خيالي الآن تابتابو. مشهد مريع.. انطفأ من ورائه كل شيء. لا يزال صوت ارتطام الجسد بسفح الجبل يتردد في أذني بلا انقطاع.

سيموت المعلم، تابتابو.. هكذا يقول الحلم..

حذرتني أحلامي السابقة عدة مرات، ولكنني لم أفهم.. ربما لم أرِد أن أفهم! ولكن المشهد هذه المرة لم يدَع لي مهربًا من الفهم.

سيُقذَفُ بالمعلم في هوة الإبعاد حتمًا. لن ينجيه منها حب أناهيا ولا تعلق تيها. في الحلم، كان وجهه يختلج عجزًا وبؤسًا واستجداءً. لا يقوى على شيء. وهكذا حاله الآن، ما عندي شك!

أتعلم تابتابو؟ إذا حدث ذلك حقًّا، وسيحدث حتمًا، فلن أقوى على الحياة في هذه الفردوس يومًا واحدًا. سأذهب وراءه! نعم تابو، لا تنظر إليَّ هكذا! سأرحل عن الفردوس كما فعلت أناهيا، وكما سيُفعَلُ بالمعلم ماهيزو. سألحق بهما، تابو..

أتذكر أناهيا؟ كنتُ سأبعثُ بكَ إلى منزلها، أتذكر؟!

ذهبت أناهيا، وبقينا أنا وأنت. حزِنَّا لرحيلها أيامًا، ولكن الحياة استمرت، فلا ضير، تابتابو. عندما أذهب، ستعيشُ من بعدي كما عشنا أنا وأنت بعد أناهيا. كفاك عبوسًا..

هل ستفتقد السرير؟

إن كان الأمر كذلك فلا تقلق تابو.. سأجعل لك فتحة في الجدار، محاذية لفرع شجرة البرقوق التي تمرح فوقها. تسلَّل إلى الغرفة وقتما يروق لك ذلك، وانعَمْ وحدك بالسرير.

ألا يروقك ذلك تابو؟

لن تفيد مني بعد اليوم؛ فقد مضى عهد السعادة والخيال بالنسبة لي.

فكِّر في الأمر تابو.. ستجدني محِقة.

***

ما عاد لقائي بشابي أسعد لحظات الحياة كما كان في السابق.. السعادة باتت فاترة.. يخالطها كثير من القلق.. والإحباط!

لم تعُد البحيرة تحتضن مجيئي، ولم تعُد تُسَلّي وحدتي في انتظاره.. كنت كثيرًا ما أسبقه إليها، فأمكث تغمرني السعادة والشوق، حتى يجيء.. بِتُّ أنتظره فلا يأتي! ثم يتعلل بأي شيء.. صار رواحي وجيئتي أقرب للعادة، لا اللهفة.. يحملني الواجب إلى البحيرة، وليس الأمل.. ودائمًا ما يعود بي الإحباط..

في لقائنا الأخير، وجدتُ طيفه يتحرك خلف شجرة الليمون عندما بلغتُ مشارف البحيرة.. شكرت السماء أن سبقني شابي، ولو لمرة.. شيء ما في قلبي ما زال يتعلق بشابي، وينبض أملًا في لُقْياه.. ورغم ذلك فلم أجد في نفسي اللهفة ذاتها، بل كان الارتباك والتوتر.. ربما أكون أنا السبب، أو ربما لما خلَّفَتْهُ في نفسي الأحلام من جزع..

احتضَنْتُ ملابسه، فلم أجدْهُ هو بداخلها.. تعلَّقْتُ بباطن كفه الأملس، ولكنني لم ألمس روحه..

بعد حديث طال أو قصر، لا أدري، سألني:

تيها.. أنت لا تعتنين بنفسك على الإطلاق! ماذا حَلَّ بك حبيبتي؟!

سألته كما لو كان قد أذنب في حقي، ولم يكن قد فعل:

- أترى السعادة تتراقص من حولي، شابي؟!

قال كأنه سمع مني كلامًا آخر:

ما زالت السعادة تحمل لنا الكثير تيها؛ فنعيم الفردوس لا ينفد.. وكل ما دونه إلى زوال.

- الأحبة أيضًا إلى زوال، شابي.. لِمَ لم تبعث لي بالجارية بأخبار المعلم ماهيزو؟

اختلجت قسماته، ربما أربكه العتاب.. أردف:

- لم أُرِدْ أن يعرف أحد أنك تهتمين بهذا الأمر، ولا حتى الجارية. أكثر النساء ثرثرة هن الجواري.

- ولكنك قابلت المعلم، أليس كذلك؟!

- بلى حبيبتي، قابلتُه واطمأننت عليه. هو في أحسن حال.. كل ما في الأمر أنه قلقٌ عليكِ.

قلت، وكأن نحلة لدغتني:

- قلقٌ عليَّ أنا؟! أيشغل باله بي وهو أسير الظلام والوحدة؟!

فعلّق ملطفًا:

- تعلمين كم أنتِ غالية لديه، كما هو غالٍ لديكِ.. صِرْتُ أغار منه ذلك الشيخ المحظوظ.

- محظوظ في انتظار الموت!!

رنَوْتُ إلى البحيرة المتلألئة بسطح متوتر..

أردف:

- لِمَ تفترضين ذلك، حبيبتي؟ ربما يطلقون سراحه بعدما يستجوبونه بشأن ما حدث.. لم يقُم بفعل شيء بنفسه. لقد اعترف ميلزو بما فعل، دون إجبار من أحد، وبنتو هو من فتح هوة الإبعاد، وربما حاول أن يسُدَّها! أما ذهابه إلى منزل المعلم بعد فعلته فليس دليلًا على شيء.. ولكن ما يقلقني هو شيء آخر.

- ماذا هو؟!

- سمِعْتُ أحاديث تتردد في المعبد الكبير عن وجود أوراق كان المعلم يُدَوِّن فيها ترجمة لأقوال تنال من عقيدة الحياة البعدية نيلًا شديدًا!

- هل وقَعَتْ أيديهم على أوراق تخص المعلم؟!

- لعله حدث بالفعل! أظن أنها الأوراق التي نسيها المعلم ولم يعتنِ بها يابيتو جيدًا، يوم انتقلت السيدة أناهيا إلى حياتها الجديدة.. لا أفهم لِمَ فعل المعلم ذلك، ولكنني أثق أن ثمة سببًا لم يُفْصِح عنه بعد..

- لِمَ لمْ تذكر لي شيئًا من هذا من قبلُ؟!

كنتِ في غاية من الأسى ساعتها، ولم أشأ إزعاجكِ بما لا يستحق.

- ألا يستحق أمر مثل هذا اهتمامك شابي؟!

جذبْتُ يدي من تحت كفه، ومشيتُ نحو حافة البحيرة..

تبعني مردفًا:

- ليس كذلك حبيبتي، ولكنني... ربما انتظرتُ طويلًا حتى نسيتُ الأمر.

- ذهب المعلم إلى غير رجعة إذًا.. حتى لو لم يثبت عليه شيء في أمر هوة الإبعاد، سيُبعِدونه لاستخدامه لغة العصاة، بل وترجمة أقوالهم أيضًا. لن ينجو من فعلة كهذه أبدًا، هكذا علمتُ من قبل!

- هوِّني عليكِ حبيبتي. ستُنجيه السماء تعطفًا ورحمة. طالما قَدَّم المعلم الكثير للعباد وللمعبد..

- سيُقذف به في هوة الإبعاد شابي! رأيته في الحلم يسقط إلى غير رجعة..

- أي حلم؟!

- شابي، يجب أن أتوَصَّل إلى هذه الأوراق التي كتبها المعلم..

نظر إليَّ مبغوتًا.. ثم صاح بي بعد برهة:

- كفاكِ جنونًا تيها!! لقد طاوعتكِ في المرة السابقة تقديرًا لقلقكِ بشأن المعلم. ولكن الأمر لا هراء فيه الآن!! لن أفعل ذلك مجددًا.. لا أنا ولا أنتِ كذلك. ارتكاب مثل هذه الحماقات سيودي بكِ إلى مصير المعلم نفسه!

- أنت أيضًا تعلم أن المعلم سيُقذف في الهوة إذًا!!

- تيها.. أنا خائف عليكِ يا صغيرتي.. كفانا مغامرة بأنفسنا، ولنلتفت إلى حياتنا وأحلامنا بدءًا من الآن.

- أريد هذه الأوراق شابي..

صمتَ طويلًا محدِّقًا كتمثال.. ثم أردف:

- سأعطيكِ شيئًا آخر تيها.. تردَّدْتُ في الأمر، واستقر بي الرأي ألا أعطيكِ إياه.. ولكنني سأغيِّر رأيي لو وعدتِني أن تنسي أمر هذه الأوراق اللعينة إلى الأبد.

- عمَّ تتحدث؟

- عديني أولًا..

- أعدك أن أفعل كل ما أستطيع حتى لا أُلحِق بنفسي الأذى.. أنا أيضًا خائفة شابي! ولكني لن أعدك بأكثر من ذلك..

- لا فائدة!

- عمَّ كنتَ تتحدث شابي؟ كفاك مراوغة!!

- طلب مني المعلم أن أسلمك مخطوطة.. عريضة دفاع كان قد أعدها ليوم المحاكمة.. أظنه قرر العدول عنها لسبب ما..

توارت يده بداخل ردائه الحريري، ثم خرجَت بشيء، لم يكن كباقي الأشياء إذ قرأتها..

بعد قليل سألني:

- لمَ تبكين الآن، تيها؟!

محاكمة ماهيزو

هواااء.. أخيرًا!!

هواء طازج، لم يُستنشق مرات ومرات من قبل، حتى امتُصَّت منه أنفاس الحياة.. حمدًا لك أيها المولى العليّ. لا بد أنني كنت أعيش بلا هواء تلك المدة الفائتة في السجن.. املأ صدرك ماهيزو من عبير أرض الفردوس، من أنفاس الصباح، من رائحة الخبيز في البيوت المستيقظة، من أبخرة الاستحمام وعبق الأجساد الدافئة المبللة. عبِّئ صدرك ماهيزو من هواء الفردوس.. قبل أن تبتلعك الهوة الخاوية.

كنتِ فردوسًا أم لم تكوني، لا فرق لديَّ الآن. يكفيني ما ألقاه فيكِ من نعمة لا تزايلني حتى وأنا أخطو بلا إرادة نحو الموت. يكفيني ذلك الهواء الذي يملأ جسدي المحتضر بالحياة، كلما فرغت منه.

لم تكن ظلمة السجن تزعجني.. تعيش الصور في وجداننا، وبين أهدابنا، مهما خبا الضياء.. ولا الصمت كذلك ضايقني؛ فالصمت صديق قديم عايشته زمنًا طويلًا، حتى صار أفضل عندي مما سواه.

أكثر ما كان يعوزني هو هذا الهواء النقي.. هواء أملس شفافٌ يحمل إلى الصدر أنفاس الطفولة.. تلك الأيام العامرة بالغفلة والهناء..

متى تطايرت تلك الأيام من ذاكرتك ماهيزو؟

لا أذكر كم مضى من الأعوام منذ مشيت هكذا، حافي القدميْن. شعور تام بالحرية والبداهة، لو عرِفَهُ الحراس لضنُّوا عليَّ به، ولألبسوني نعلي كي لا تدوم لذته.. تنطبع قدماي فوق تراب الفردوس، وتنقش آثارهما على السطح الحميم، وأنا أُساق إلى المحاكمة كما تساق البهائم إلى المذبح. أُساق معصوب العينيْن، مقيد المعصميْن، حافي القدميْن. أُجَرّ بلا إرادة، بلا قدرة على دفع المجهول. ربما أثارت هيئتي الإشفاق، ولكن ما في قلبي من حب لوطني، وشغف بالحياة فيه، يسري خدرًا في بدني، فلا يخلِّف من ورائه إلا الرضا..

ربما أودع الفردوس أعمى وأبكم، بل ربما أصم كذلك بعدما غابت عن أذني الأصوات الحبيبة مذ فارقتني، ولكن ذلك كله لا يزيدني إلا حبًا للوطن وولعًا بكل ما فيه..

- يا مبجل.. يا مبجل.. أتذكرني؟

أشعر كمن يخطو أولى خطواته فوق الأرض، فتدغدغه الحصباء ويتخلل أصابع قدميه فتات الأرض. عدت إلى سيرتي الأولى.. رضيعًا يمشي مسحوبًا من يديْه، لا يقوى على التعبير، ولا يعي ما يحيق به..

- يا مبجل.. كنتُ تلميذًا لكم يا مبجل.. أيها المبجل ماهيزو.

إنه يحدثني أنا، ذلك الملهوف! ألا ترى حالي يا بني؟ كيف أعرفك من وراء هذه العصابة؟ وكيف أهتم لشأنك وأنا مغادر هذه الحياة، بحلوها ونعيمها، إلى حيث لا أعلم؟ حتى لو عرفتك يا ولدي فهيهات أن أجيبَ لك نداءً؛ فقد مضى عهد الكلام.. سامحني يا بني.

- يا مبجل.. ألا تسدي إليّ نصائحك المملة كما كنت تفعل دومًا؟! ألا تريد أن تحدثني أيها المبجل؟ خُذْ هذه إذًا!

اممم م م...

لمَ فعلتَ هذا يا بنيّ؟! تُبجِّلُني ثم تقذفني بحجر؟! ألا يصدك عن فعلك سني أو هيئتي، أو سابق عطائي لك؟

تُرى كيف صارت هيئتك اليوم ماهيزو؟ لا بد أنك صرتَ أشعث الرأس أغبر الثياب مدمم اللحية والنحر. أتعلم ماهيزو؟ ربما صرتَ كريه الرائحة أيضًا، دون أن تشعر!

هييه أيها المولى..

اختَر لي من النهايات ما شئت.. وأمِتني متى شئت وكيف شئت.

هييه أيها المولى!

أشكر لك تمام نعمتك على عبدك ماهيزو المسكين، أن جردته من رداء الحكمة الزائفة ومن تاج الوقار الذي لم يستأهله قط. أشكرك أن أعدتني إلى سيرتي الأولى، ماهيزو سول فاشوري، رث الهيئة، مُنعدِم البأس، مهزوم الكيان، مجردًا من الوجاهة والكبرياء..

الكبر بيت الشرور، وحسبي يا عليّ أن أفرغته من قلبي، فلم يبقَ منه شيء!

هييه أيها المولى!

أسألك أن تميتني على حالي هذا. أسألك أن تتجاوز عمّا فعلتُ عمرًا بأسره. أسألك أن تُلحِقني بأناهيا الحبيبة وبأمي الرحيمة، كي تُطيِّبا جراحي وتُهدهدا روحي، وتُلبساني لباس الحب والحنان من جديد، فيُستر به ما انكشف من عورات نفسي..

هييه أيها المولى.

أشكرك على هذه النهاية..

«الكاهن المجنون.. الكاهن المجنون.. الكاهن المجنون»..

***

«سكوت.. سكوت..

آمركم باسم المعبد أن تصمتوا جميعًا وإلا تنزلَت عليكم النقم..

سكوت..

ها أنتم تجتمعون يا أهل الفردوس اليوم، كي تشهدوا يومًا بائسًا من أيام العذاب. أيام كانت السماء تمنعها عنكم، رأفة ورحمة بكم، وإمعانًا في محبتكم؛ فقد أُسكِنتم فردوس السماء، فمُنِحتم نعيمًا لا ينقطع، ورزقًا لا ينفد، وأُسبغت عليكم الرحماتُ كأمطار رقراقة، فلا جوع ولا هَمّ،

لا عُري ولا غَمّ، لا عذاب ولا عقاب، بعدما أُفسح لكم في فردوس السماء مكان.

ولكن الإرادة العليا جعلت لكم أيامًا استثنائية، تتذكرون فيها ما كنتم قد رُحمتُم من لقياه، بل ترونه رأي العين حتى لا تُنسيكم العادة ما أفاءت به السماء عليكم. فهل عساكم تتذكرون فتبتغوا مزيدًا من التقرُّب والتعبُّد؟

هذا يوم في عداد الاستثناء، بل هو فوق كل استثناء. يوم نذير ووعيد شديد من ولي شديد. ينذركم فيه أنه لا شيء مستحيل في وقوعه، إذا أتيتم بما يستأهله من مقدمات بائسة. وبعد وقوع ما تشهدون عقوبته اليوم، فلا شيء مستحيل. فاحذروا أهل الفردوس أن تقعوا في شراك الفتن، وادفعوا أبناءكم فوق سبيل المعبد دفعًا، وألقوا بهم في أحضان التعبد والإخلاص لمولاكم العطوف. أجزلوا الهبات والصلوات للمعبد أكثر من أي وقت مضى، فما حدث اليوم لم تشهد مثله الفردوس من قبل، وهو نذيرٌ لما هو آتٍ من بعد.

أمام أعينكم اليوم فتنة كبرى لم تشهدها فردوس السماء قبل اليوم. نفسٌ ضلت بعدما أرشدَتْ إلى سبيل المعبد آلاف الأنفس، فلا شيء مستحيل. تشهدون اليوم كاهنًا يمرُق، عابدًا يفقد رشده، خادمًا للمعبد الكبير يخرج عن طوره وطوعه، فلا شيء مستحيل. أسكنه المولى أرفع درجات النعمة وألبسه أفضل أردية الإيمان، فانتهت به الأطياف الشريرة أن مرق عن سبيل المعبد، فما بالكم بكم أنتم أيها الدوارج والعوام؟

لا تجأروا ولا تذهلوا. نعم.. هي الأطياف الشريرة، والحق أقول لكم: لقد تسللت الأطياف إلى الفردوس كما تسلل إليها جدهم الأكبر، فأخرج منها أول البشر المبجل آدم، وأخرج من ورائه جميع ذريته حتى حلَّت الدينونة الكبرى. أما أنتم، فقد أنعمت عليكم السماء أن أُسكِن أجدادكم العظام الفردوس من جديد، فخلفتموهم فيها إكرامًا لسيرتهم الأولى، وإحسانهم فوق الأرض. ولكن الأطياف الشريرة التي نجحت في إغواء أهل المعصية جميعًا سعت إليكم، فدفعت بأمهرها وأشرسها على الإطلاق، حتى تمارس عليكم ما برعت فيه منذ عهد آدم. وها قد برهنت على براعتها فأغوت أحد خيرة كهان المعبد، بل استعملته في غواية بعض تلامذته من خدام المعبد المخلصين.

يا أهل الفردوس، هذا نذير شديد من ولي شديد. عودوا إلى رشدكم جميعًا، وتدرَّعوا بالعبادة والإيمان من خبث الأطياف، ولا تتركوا أبناءكم وبناتكم عرضة لشرورهم. فلتشهدوا ما سوف ينال هذا المارق حليف الشر من إبعاد من فردوس السماء، كي يلحق بأشباهه من العصاة فوق أرض العذاب.

لا يغيبَنَّ عنكم ذلك المشهد ما حَيِيتُم، ولتنقلوه لمن لم يشهده. اروُوه لأبنائكم، ثم لأبنائهم، ما دمتم قد حرصتم على نعيم الفردوس ورضا السماء. لا تنزع الأطياف من بين أيديكم أقواتكم، فتتباهى بها أمام حلفائها وشركائها من المارقين والعصاة.

آمركم جميعًا بالصمت الآن، وأن تُرَدِّدوا دعاء الإبعاد سرًّا وأنتم تشهدون عقوبة المعبد.

باسم المعبد، يُبْعَدُ الجسدُ المدنسُ بالمعصية، ويُلحَقُ بأشباهه في أرض العصاة.

باسم المعبد، تُفتح الهوة ويُعلق الجسد».

شابي يشهد المحاكمة

كنتُ آخر الحضور وصولًا إلى ساحة الإبعاد يوم محاكمة الكاهن ماهيزو، أو هكذا ظننت.

كان يومًا مُربكًا ومشحونًا بالأحداث وبالأشغال منذ صبيحته، حتى كدتُ أنسى موعد المحاكمة، لولا أن ذكرني بها دانيبو عند عودته من مخزن البضائع، بُعَيد الظهيرة. دخل عليَّ الدكان مشدوهًا، متوترًا، يستجدي الأنفاس بين الكلمات. سألته عمَّا أصابه فقصَّ عليَّ ما لم أكن أتصوره قط.

لِمَ فعلتَ بنفسك كل هذا أيها المعلم ماهيزو؟!

لِمَ اخترتَ لنفسك نهاية مأساوية كتلك؟!

كم يحزنني ما آلت إليه نهاية رجل ذي شأن مثلك، له من الفضل الكثير عليَّ وعلى الكثيرين مثلي ممن جلسوا على مائدة علمه، ونهلوا من تفاسيره وشروحه المبسطة، التي أنارت لنا سبيل المعبد مبكرًا.

كيف تنتهي بمثلك عطية الحياة على هذا النحو المؤسف؟!

قال دانيبو إنه رآه مارًّا في ساحة السوق البيضاء، مكبل اليديْن والقدميْن، يجرجره شرطيان من شرطة المعبد عبر الساحة، قبل أن يتوجها به إلى ساحة الإبعاد المحاذية للسوق من جهة الغرب.

لم يتعَرَّف عليه دانيبو في بادئ الأمر؛ فقد بدا هزيلًا، بائسًا، متسخًا، لم يحتفظ من سمتِهِ الأول إلا بطوله الفارع، ولكنه سرعان ما تعرَّف عليه عندما اقترب من الموكب المهين، وسمع نداءات أطفال العوام وهم يتقافزون من خلفه، يرددون في مرح صاخب: الكاهن المجنون.. الكاهن المجنون.. ويقذفونه بالتراب والحصباء، حتى إذا ما التفت نحوهم أحد الشرطيين زاجرًا، سارعوا مبتعدين، ثم عاودوا صخبهم من جديد بمجرد أن يواصل الموكب المسير.

ما إن سمعتُ بهذا، حتى أسفتُ لأجل الكاهن ماهيزو، وكذلك تيها الحبيبة.. لماذا يفعل كاهن في مكانة المعلم ماهيزو وحكمته بنفسه تلك الأفاعيل؟! كيف يرشده عقله الراجح إلى مثل ذلك الهوس الذي أتى به؟! ولماذا تربط فتاة جميلة محظوظة مثل تيها مصيرها بمصير شخصٍ فقد رشدَه، أيًّا ما كانت مكانته في قلبها، فتتصرف كما لو كانت الحياة قد توقفت عند هذا الحد؟!

عجيب أمركِ يا تيها الحبيبة. تُصِرين على الرحيل عن الفردوس، حتى إن كلَّفَكِ ذلك أن تعيشي بمفردكِ ما تبقى لكِ من هذه الحياة. تقولين إنكِ تستعجلين الموت كي تنتقلي بروحكِ إلى جسد طائرٍ مهاجر، يأخذكِ بعيدًا عن فردوس السماء، فيُسكِنكِ حيث تشعر الطيور

بأمان ودفء لا تجدهما في فردوس النعيم!! أرجو ألا تكوني قد فقدتِ رشدكِ أنتِ كذلك..

أسرعتُ بإنهاء ما تبقى أمامي من عمل ينتظر الإنجاز، حتى أتفرغ لحضور المحاكمة. أشرفتُ على تعبئة صناديق البضائع حتى امتلأت عن آخرها، ولم تعُدْ تقبل المزيد، فحمَلْتُ ما لم نتمكن من تعبئته من الثياب والأردية بهيجة الألوان على المحمل، حتى يُعاد إلى مخزن البضائع ثانية. لم يكن بيدي أن أؤجل هذا العمل يومًا آخر، فلن أحتمل أن تحدث أية مفاجأة تحول بيني وبين تحميل البضائع فوق أسطول المعبد. هذه المرة هي الأولى التي تبعث فيها عائلة بتاتشي بضائع تجارية مع أسطول المعبد، فتُدرج ضمن صفقات التجارة والمقايضة. وقد تكلفتُ الكثير من العناء حتى أدرجتُ طلبي، بدعم وتوصية من النبيل كواتو. لا أحتمل أن أُحال إلى الرحلة التالية، لامتلاء سفن البضائع بصناديق كبار التجار المُدرَجين على قوائم البضائع منذ أعوام. سأكون ساعتها فريسة سهلة للاستبعاد لصالح أحد التجار المعتادين، أصحاب الحظوة والنفوذ عند كهنة الأسفار. حزمتُ أمري على المبادرة بإرسال بضائع بتاتشي قبل الآخرين، حتى يصعب عليهم استبعادي إذا ما تأزم الأمر.

لا يمكن أن أتهاون هذه المرة. سوف تسهل المهمة بالطبع في المرات المقبلة، بعدما أكون قد أُدرَجتُ بالفعل في قوائم التجار المقايضين، وحققتُ رصيدًا من النجاح يكفل لي الأولوية كما لغيري.

أرجو أن تحقق بضائعي أكبر الأرباح في البيع والمقايضة، فلم يهتدِ أحد قبل الآن لإرسال الثياب النسائية الملونة وأردية الأطفال المبهجة إلى بلاد العصاة! أخبرني خادم الأسفار يابيتو أن أهل هذه البلاد يرتدون ثيابًا زهيدة باهتة، لا ترقى لثياب أهل الفردوس في شيء. أنا أول من فكر وأقدم على مقايضة ثيابنا الجذابة بأثمن ما يملك هؤلاء من بضائع وغلال وفواكه مجففة. فكرة فردوسية حقًّا، ولا بد أن تحقق هذه البضائع رواجًا جارفًا في تلك البلدان.

انطلقْتُ مسرعًا جهة الغرب، في اتجاه ساحة الإبعاد، فور انتهائي من هذه الإجراءات العاجلة. ذهبْتُ مُترجِّلًا ولم أستقل المحمل حتى لا ألفت الأنظار ولا أستغرق وقتًا أطول في الذهاب. على أطراف ساحة الإبعاد، وجدتُ جمهرة هائلة من العوام لم أرَ مثيلًا لها من قبلُ في غير أعياد الرجوع. حضورٌ رهيبٌ لا قِبَلَ لي بحصره اكتظت به الساحة عن آخرها. امتلأت الساحة الوسطى بالعوام على هيئة عين هائلة، تتوسطها دائرة مفرغة محاطة بحاجز مكتنز الارتفاع، ترسم سواد العين. يقف في قلبها المبجل ساليزو فوق منصته الخشبية داكنة اللون، منقوشة الصدر برسوم بارزة تُصَوِّرُ الصراع الأزلي بين الخير والشر، بين كبير الكهنة والشيطان، بين كهنة الأسفار والأطياف الشريرة المظلمة. أما النبلاء والدوارج فاصطف كل فريق في قوس يحيط بالعين الهائلة من جهة، ليرسم الأهداب، فيرسم قوسُ النبلاء الهُدْبَ الأعلى، بينما يرسم قوس

الدوارج الهدب الأسفل، متبوعًا بأشعة سفلية تشير نحو سواد العين في مشهد مهيب.

لا أتصور أن يشاهد عاقل ذلك المشهد الذي يصوِّرُ عين السماء المراقِبة لحياة البشر وأعمالهم، ثم يجترئ على ارتكاب معصية.

استأذنتُ العديد من الأجساد المتلاصقة، حتى اقتربتُ من دائرة المنتصف، كي أشهد هوة الإبعاد عن قرب. تقع الهوة خلف المنصة الداكنة المهيبة مباشرة، وتتخذ هيئة العين أيضًا. لها غطاء يُفتح كالجفن، بعدما تُحَلُّ الأقفال وتُنصَبُ الحمالة الخشبية التي تتدلى منها الحبال. ما إن دنوتُ نحو المنتصف، حتى رأيت الكاهن ماهيزو جاثيًا على ركبتيْه، على الهيئة التي ذكرها دانيبو أو ربما أسوأ حالًا يحيط به من الجانبين شرطيا المعبد في شموخٍ وترقُّب لصدور أوامر المبجل ساليزو. كانت موجات الصياح والجئير تهدر فوق الرؤوس المتلاصقة، تأثرًا بكلمات المبجل ساليزو، التي حملت للجمع مزيجًا من التذكير والوعيد.

لا يمكن أن ينمحي مشهدٌ كهذا من الذاكرة أبد الدهر.

«هذا يوم في عداد الاستثناء. بل هو فوق كل استثناء. يوم نذير ووعيد شديد من ولي شديد. ينذركم فيه أنه لا شيء مستحيل في وقوعه، إذا أتيتم بما يستأهله من مقدمات».

جُلتُ ببصري في محيط ساحة الإبعاد، أحاول الإلمام بتفاصيل المشهد الجاثم فوق صدورٍ عامرة بالاضطراب. من خلفي قوس الدوارج

المكتظ بالأجساد المستسلمة، تعلوها رؤوس مطأطئة مَهابةً لكبير المدونين وإجلالًا لكلماته، بينما رأيت أقراني من النبلاء متراصين في سكونهم الوقور على الجهة المقابلة، يصنعون قوسًا ملونًا يشكل الهدب الأعلى الذي يقي العين من الشرور ويدفع عنها الأذى. أما أنا، فوقفتُ في قلب العين بين العوام المشدوهين بالموقف الجَلَل. لم يلحَظ وجودي أي من المحيطين بي، من فرط اندهاشهم وفزعهم لمرأى الإبعاد.

كنتُ أنصب جسدي كل حين، ماطًّا رقبتي، قائمًا على أطراف أصابعي، كي أرتقي الرؤوس من حولي وأرى المعلم ماهيزو، وهو جاثم على الأرض خلف المنصة، ينتظر دوره في الدفاع عن نفسه قبل النطق بالحكم. لم أكن أعلم بعدُ إن كان سيُسمَح له بالدفاع أم سيُحرم من ذلك الحق كما أَسَرَّ لي من قبل. كنتُ أرى في ملامحه أحوالًا متقلبة كلما ارتقيتُ الرؤوس لألقي نظرة عليه؛ فمرة يُخيَّل إليَّ أنه مستسلمٌ لمصيره في إذعانٍ تام، ومرة أرى في قسماته نظرة ثابتة تواجه المجهول في صلابة. أما الأغرب فكانت تلك الابتسامة الباهتة التي كنتُ أخالها تطفو فوق وجهه الأليف، رغم البؤس والمهانة اللذين اكتَسَتْ بهما هيئته.

أما زلتَ قادرًا على الابتسام يا معلم؟!

أي شعور تُراه يعتمِل في صدرك في هذه اللحظات العصيبة؟!

«أسكنه المولى أرفع درجات النعمة، وألبسه أفضل أردية الإيمان، فانتهت به الأطياف الشريرة أن مرق عن سبيل المعبد، فما بالكم بكم أنتم أيها الدوارج والعوام؟!».

وددتُ لو رأيتُ تيها وسط هذه الجموع. لا أعرفُ إن كانت ستأتي كي تشهد المحاكمة أم لا كانت على حالٍ مُزرٍ في المرة الأخيرة التي التقينا فيها. لم تعلق بشيء حينما ذكرت لها خبر المحاكمة. جالت في عينيْها نظرة مرتابة خائفة، ولم تنبس بكلمة عن المعلم وما ينتظره. تقلصت قسماتها الدقيقة، وزاغت نظرتها، وتعلقت بالفراغ المعلق فوق رأسي، ثم قالت إنها ترغب في الرحيل وإنها مصرّة عليه.

«عمَّ تتحدثين يا حبيبتي؟ وكيف يتحقق لكِ ما تريدين؟ هل ستهبين نفسكِ لكهانة الأسفار، أم تنتوين السباحة مع أسماك بحر بيروتشي، أو التحليق مع طيوره؟».

صمتَتْ برهة، ثم أعادت على مسامعي أنها مصممة على الرحيل بأي صورة كانت، حتى لو كلفها ذلك حياتها، من أجل أن تنتقل إلى بدن طائر مهاجر يقلّها إلى حيث تهاجر الطيور، فلا تعود إلى الفردوس ثانية!

مسكينة أنتِ تيها.. أُشفق عليكِ كثيرًا يا حبيبة أيامي، ولا أعرف كيف أنتشلكِ من مخالب الأحزان تلك. أنتِ أضعف كثيرًا من أن تواجهي كل ذلك بمفردكِ، وأنا لم أعُد قادرًا على مداواة أي شيء. هي كذلك لم تعُد تسمح لي بضمها أو احتضان كفيها الملساوين الدقيقتين عندما نلتقي. شيء ما يصدها عني كلما مرت بنا الأيام، حتى أضحت بعيدة كنجمة..

أحبكِ تيها.. أحبكِ جدًّا وأتألم لما يعتريكِ جدًّا وجدًّا.

«باسم المعبد، يُبعد الجسد المدنس بالمعصية ويُلحق بأشباهه في أرض العصاة. باسم المعبد، تُفتح الهوة ويُعلق الجسد».

نزل على رأسي النداء الأخير كصاعقة!

سَرَتْ غمغمة مرتفعة متوترة من كل اتجاه، واتجهت كل الأنظار نحو المعلم ماهيزو.

ألن يُسمح له بالدفاع حقًّا؟!

هل سيُعلق ويُبعد وانتهى الأمر؟!

تناثرت أسئلة كهذين من حولي بين جموع العوام، وتعالت بعض الأصوات تستهجن حرمان الحضور من سماع دفاع المتهم. ولكنها سرعان ما خبت.. مفسحة الفضاء لأصواتٍ أخرى أكثر ارتفاعًا وإصرارًا!

«أنا الكاهن ماهيزو سول فاشوري.. أسطر هذه السطور الآن للتاريخ وللبشرية من بعدي.. لا أبغي من ورائها جاهًا ولا بطولة..

كان ذلك الحدث الأغرب على الإطلاق في ذلك اليوم العجيب! سَرَت أصواتٌ مرتفعة كأبواقٍ بين الحشد.. أصوات رجال شداد، ملْء حناجرهم العنفوان والإصرار.. لا تدري الآذان من أين تأتي أصواتهم، ولا كيف تنتهي.. يصدع كل منهم بمقطع من عريضة الدفاع التي حُرِم المعلم ماهيزو من إلقائها بنفسه على مسمعٍ من الحضور..

«أنا الكاهن ماهيزو سول فاشوري.. أمسك اليوم بأوراق خاوية تنتظر الحقيقة»..

تَسمعُ عبارة ترتفع من ورائك من حنجرة متحركة، فتستدير كي تواجه الصادع بها، فيختفي كأنما ابتلعته الأجساد المتلاصقة، ينطلق في إثرها صوت جهوري آخر من حنجرة متحركة غير مرئية أخرى..

«أنا الكاهن ماهيزو سول فاشوري.. أقول لكم قبل أن أغادركم: إني أحبكم، وإن الفردوس أحب الأوطان إليَّ، وربما أسعدها على الإطلاق. ولكنها ليست فردوس السماء الموعودة، ولا بضعة منها».

ما إن تتتبع الصوت الجهير حتى يغيب في الفضاء المحلق فوق الرؤوس كدخان متطاير، جاذبًا من ورائه أصواتًا جديدة..

«ابحثوا عنها في حنايا المعبد الكبير.. ادخلوه من أبوابه الخفية.. لا تركنوا إلى ما درجتم عليه، وإن أرضاكم.. عليكم ببقايا السفينة الغارقة في سراديب المعبد المغلقة»..

تُلِيَت مقاطعُ عدة من عريضة الدفاع التي سلمنيها المعلم ماهيزو، ونقلتُها بدوري لتيها، على هذا النحو..

كيف انتقلت العريضة إلى هؤلاء جميعًا؟!

هل سرَّبتها تيها لآخرين من تلامذة المعلم؟!

صار الذهول سمة الحاضرين جميعًا، وهم يتلفتون من حولهم، يحاولون اكتشاف كنه أصحاب الأصوات المرتفعة المتباعدة.. بدا الارتباك جليًّا على أفراد شرطة المعبد الذين أحاطوا بساحة الإبعاد من

كل جانب، وكذلك المبجل ساليزو. لم أكن قد لاحظتُ كثافة وجود شرطة المعبد قبل هذه اللحظة..

«لا تيأسوا من سبيل المولى العليّ؛ فهو موصول بخطاكم إن أنتم فتحتم أعينكم لتروه.. تكاتفوا أبنائي وأحبتي ودقوا أبواب الفردوس التي تستحقون»..

كان موقفًا مثيرًا ومهيبًا بلا شك، تأثر لوقوعه الكثير من الحضور، وارتفع اللغط فوق كل توقع، حتى وأده المبجل ساليزو بحكمته وعنفوانه، بصيحة صارمة أمر بها الضابطين أن يتم الإبعاد على الفور، دون إبطاء.

عُلِّقَ الكاهن ماهيزو على عجل، فتدلى جسده الفارع الهزيل من الحمالة الخشبية، وفُتِحَت عين هوة الإبعاد لاستقبال الجسد المتأرجح في استسلام. نُزِعَت العصابة المهترئة عن رأس المعلم ماهيزو، وهو معلق لا يقوى على شيء، فأهدى الجمع نظرة أخيرة، خِلتُها راضية حانية، أو ربما مودِّعة، ثم استقبل بوجهه السماء مُغمِضًا عينيه في تسليم مستكين. لاحظتُ وجود بقعة من الدماء المتجمدة أعلى صدر الكاهن ماهيزو، فحاولتُ استجلاء الأمر بمزيد من التدقيق، ولكن سرعان ما انقطعت الحبال بلا تمهل كما هو منصوص في كيفية تنفيذ الإبعاد، فابتلعت الهوة الجسدَ المُقيَّدَ في صمتٍ مخيف، وسط صيحاتٍ مشدوهة من الحضور.

تيها وترنيمة الألم

هننن.. في أحلامي.. هننن.. سفح دامِ..

هننن.. كحل المرود.. هننن.. حلم أسود..

هننن.. أيقظ قلبي.. هننن.. عظَّم كربي..

هننن.. أذهبَ شابي.. هننن.. مع أحبابي..

هننن.. قلب مفطور.. هننن.. طير مأسور..

هننن.. حكم فاجر.. هننن.. طير هاجر..

هننن.. جسم واهن.. هننن.. مات الكاهن..

هننن.. مات الكاهن.. هننن.. مات الكاهن..

***

- تيها، لن أمهلكِ حتى تهلكي هذا البدن الضعيف. كفاكِ عنادًا، أرجوكِ. يجب أن تقومي وتأكلي شيئًا. أي شيء.

- لن يكون جسدكِ المسكين هذا ساحة لمبارزة تتوهمينها. أفيقي تيها. أفيقي مما أنتِ فيه قبل أن ينتهي بكِ المصير على فراش كفراش أناهيا، تنازعين موتًا لا تستحقينه، عمدتِ بكامل إرادتكِ إلى استدعائه!

- مات الكاهن..

- ماذا تقولين؟

- أفيقي تيها! لقد انتقل الكاهن ماهيزو إلى حياة جديدة، ربما تكون أسعد بالنسبة له مما كان يعانيه في أيامه الأخيرة. فلنسأل السماء له المغفرة والسعادة، ولتعودي إلى رشدكِ كي نمضي معًا أسعد أيامنا المقبلة.

- مات الكاهن... طير مأسور... مات الكاهن..

- تيها! أفيقي! أفيقي تيها، أرجوكِ!

***

- ها قد عدتِ للتورد من جديد يا حبيبة شابي..

- ستكونين بخير يا درة قلبي.. أعدكِ. ستطيب لنا الحياة من جديد، وسنملؤها حبًّا وبهجة أكثر مما مضى. عليكِ أن تؤمني بذلك.

- لقد وُلدتِ للتو، منذ هذه اللحظة وأنا والدكِ.. أو والدتكِ، أيهما تختارين. سيكون شابي الأب والأم طوع أمركِ منذ اللحظة.

- ألا تتعطفين على شابي المولع بكِ ولو بكلمة واحدة؟ فلننسَ أنكِ رضيعة الآن، تحدثي إليَّ.

- ساعدني على الرحيل، شابي..

- الرحيل!! هل عدتِ إلى ذلك الحديث ثانية تيها؟!

- ولن أتوقف شابي. أرجوك. لا أطلب شيئًا إلا الرحيل. لم يعُد لي مكان في فردوسكم.

لا تقولي ذلك يا عصفورة الفردوس، فلا تحلو الفردوس إلا بكِ. مُريني كي أبني لكِ قصرًا من ذهب أو فضة، وأجمع لكِ في بستانه أندر الطيور وأجمل الزهور، ولنبدأ من جديد، تيها، كأنما وُلِدنا اليوم. أعلم أنني قصَّرتُ كثيرًا في الأيام الفائتة، ولكن لا بأس، سنعوض كل شيء..

- أرجوك شابي، لا يمكنني البقاء.

- أي بقاء؟ وأي رحيل تيها؟! هل ثمة من سبيل للرحيل من فردوس السماء؟! لم يجعل الرب لأهل الفردوس حاجة للرحيل، ولا سبيل إليه كذلك. لقد خلق لهم الفردوس، وخلقهم من أجلها، كي يتلازما أمد الدهر، تلازمًا سرمديًا لا ينقطع. أنسيتِ التعاليم يا بنيَّة؟!

- ساعدني شابي على الرحيل.

- حبيبتي.. حبيبتي، لا لا تدفعيني نحو الجنون دفعًا!! أي رحيل هذا الذي يراود خيالكِ؟!

حتى لو افترضنا أن ثمة من سبيل للرحيل، أتتركينني وأمكِ كي نتعذب من بعدكِ؟! أتتركين شابي المسكين وتوهاما الوحيدة؟! أتتركين خالتك تيبويا وبناتها وأخاهن إيماهو، صديقكِ القديم، كل هؤلاء؟!

لماذا؟ عن أي شيءٍ تبحثين؟! وأي أناس تقصدين؟!

عودي إلى رشدكِ تيها، أتوسل إليكِ.

- لم أجِد ذلك الرشد بعدُ، شابي. ما زلت أبحث عنه. ساعدني كي أكتشف ذاتي وأبلغ ما أرشدتني إليه السماء. هكذا أوحى إليَّ المعلم، ولن أتوانى عن البحث عمَّا لم تمهِلهُ الأيام كي يصل إليه.

- لا أفهم شيئًا!

- لا أريدك أن تفهم، شابي. لقد وعيتُ درس المعلم الأخير جيدًا. يجب ألا يفسدَ أحدُنا حياة الآخر، شابي. ربما تَفسد حياتك لو فهمت. أما أنا فلن تنصلح لي الحياة إلا بالفهم، ولن يمنعني شيءٌ عن بلوغ ذلك.

- وأمكِ، تيها.. أتتركين أمكِ مفجوعة عليكِ من أجل هذا العبث؟!

- لقد احتملتُ فراق الأحبة واحدًا تلو الآخر شابي، ولم أعُد أستطيع أن أحتمل المزيد. لن أنتظر حتى تتركني أمي وأبقى أنا وحيدة.. سأذهب

أنا إلى الفراق هذه المرة. ستحملني إليه رغبة جارفة في بلوغ ما أرشد إليه المعلم.

لا تقلق شابي، سأعود يومًا بعدما أهتدي إلى الحقيقة؛ حيث أجد صانع القنديل العجيب؛ حيث ملجأ الطيور المهاجرة؛ حيث ذهبت أناهيا ولحق بها ماهيزو الحكيم؛ حيث أرشدني المولى الراعي، شابي.

- أي جنون حلَّ بكِ يا مسكينة؟!

ليس جنونًا شابي الحبيب. إنها السكينة، سكينة القلب التي لا تهنأ الحياة إلا بها، وبها تصبح أي بقعة فردوسًا، جنة الخلد شابي الحبيب.

- حبيب! لو كنت حبيبًا ما رغبتِ عن الزواج بي، ولما اخترتِ الرحيل.

- شابي، كفانا ادعاءً ووهمًا، ولو لمرة.. دعنا نواجه الحقيقة، وإن آلمتنا. لم يعُد أحدنا يعقد أحلامًا على الآخر. حتى إن بقي الحب، سيندثر تحت ركام الرغبات والعقبات.

- أي رغبات تيها؟ وأي عقبات؟

- شابي.. كلانا يدرك تمامًا أنَّ كلًّا منا صار عقبة أمام الآخر.

- عقبة؟!

- نعم شابي، عقبة. أنت لم تعُد مصمِّمًا على الزواج بي، بعد أن أخبرتك الأيام أنني صرت عبئًا عليك، وعقبة أمام نجاحك وطموحك الذي يناطح طموح أعتى النبلاء..

أنت كذلك صرتَ عقبة أمام حلمي بالبحث عن الحقيقة، واستجلاء العلامات التي أنارتها السماء في طريقي. لم يشأ المعلم إغراقي في بحور معرفته، ربما حرصًا عليَّ، أو خوفًا عليَّ من الإبعاد. ولكنني صرتُ اليوم أسعى إلى الإبعاد بأسرع وقت. لن تقف عقبة في سبيل بلوغي ما أرادته لي السماء.

- ساعدني شابي، ولا تكدر حياتك التي اخترتها بهمومي بعد اليوم. ساعدني.

- ماذا تريدين تيها؟!

- أَوْجِدْ لي سبيلًا للرحيل عن الفردوس.. أريد أن أذهب حيث أجد ذلك الصانع الذي أتيتَ من دكانه بالقنديل العجيب، الذي أهديتني إياه.

أريد أن أرحل إلى نورال.

من خواطر ماهيزو وتدويناته

«ومن أكثر الخصائص بروزًا في رسائل تجار وبحَّارة نورال: حبهم الظاهر لوطنهم، وميلهم إلى العودة إليه، وتفضيلهم له على غيره من البلدان، ليس لكونه أفضل البلدان وأكثرها ترفًا كما هو حال أهل جزيرة الفردوس طبقًا لمعتقدهم، ولكن لكونه وطنًا وحسب».

«فيما جمعتُ من أشعار أهل نورال وأغانيهم، لم أجد ألفاظًا أكثر تكرُّرًا من تلك التي توحي بالغربة وتشي بمعاني التغريب، غربتهم عن الوطن وعن الأرض، افتقادهم للوطن بكليته، الأهل والذرية، الخبز الساخن ورائحة الشواء، عبق البيوت وملمس الحيوانات الأليفة. وهنا يبرز الجانبان الحسي والعاطفي في الآداب النورالجية؛ حيث يتضافران في صنفٍ مختلفٍ من الأدب، لا يعرفه أهل الفردوس، الذين لا يفارقون بيئتهم قط».

«الوطن عند أهل نورال ليس مكانًا ينتمي إليه المرء وحسب، بل هو جملة من مكنونات ملموسة وأخرى خَفيّة، وهم في شغفٍ دائمٍ بالعودة

إليه، كما تعود الأمواج إلى الشاطئ. عَوْد مستمر، لا ينقطع حتى بالرجوع الفعلي إلى الوطن».

«سمة أهل نورال الدفء والطموح، فهما كفَّتا ميزان الشخصية النورالجية التي تتدفق في وجدانها المشاعر، وتتعاظم في خيالها الأفكار على نحو متلازم؛ ولذلك تجد الصناعة عند النورالجيين أكثر تطورًا من مقابلها عند أهل جزيرة الفردوس. ويظهر ذلك جليًّا في صناعة السفن والبناء، كما يمكن ملاحظته في الصناعات الحرفية الدقيقة كالخزف والقناديل وأدوات المائدة؛ فأهل نورال لا يأكلون بأيديهم المجردة، في أغلب الأحيان، وهو ما يميزهم كذلك في السلوك عن أهل الفردوس».

«الطموح سرٌّ من أسرار التطور الإنساني، وهو ما تطمسه الحياة البعدية؛ لذا يعمد المعبد إلى طرح بديل ديني لبواعث الطموح، كي يرتقي مجتمع الفردوس، فيبث التنافس فيما بين أهل الصناعة من أبناء الطبقة الواحدة. فينافس نبلاء التجار أقرانهم، وينافس المباشرون والصناع من الدوارج والعوام بعضهم البعض في الإتقان والكفاءة. ويكون معيار النجاح هو القدرة على خدمة المعبد من خلال الصنعة، تطوعًا للسماء».

«أذكر أنني اشتريتُ نعلًا أثناء رحلتي الأولى لبلدة نورال، فوجدتها دقيقة الصنع فاخرة الخيط، مما لفت انتباه كهنة المعبد وأثار حفيظة كبرائهم، فحملهم على مراقبتي وترصد أفعالي حتى قبل أن تقع أيديهم

على بعض القصاصات التي جمعتها في رحلتي، وترجمت بعضها أثناء خلوة الرجوع».

** انظر الملاحظات..

«وتتميز جزيرة الفردوس عن غيرها من البلدان بطبيعتها الخلابة، ومناخها المعتدل الجاف الذي يقي أهلها الكثير من الأمراض، كما أن عزلتها تحفظ لها تلك الميزتين، فلا يطمع في خيراتها غريب، ولا يحمل إليها الأوبئة مسافر».

«موعد الدينونة غير معلومٍ عند النورالجيين، وإن أشارت بعض الأقاويل التي يرددها العامة إلى مواعيد متضاربة، لم أجد لها في شروح العقيدة أثرًا. وشروح العقيدة عندهم بسيطة، مغرقة في البساطة، لما في عقيدتهم من بداهة لا تجنح أبدًا إلى التعقيد. وهم بسطاء في عبادتهم، وكذلك في ملبسهم ومسكنهم، رغم تقدمهم في الصناعة، كما أن الممنوعات والمحرمات في ديانتهم نادرة، لا تكاد تقيدهم في شيء، وسيأتي ذكر بعضها فيما بعد».

«البحث طاقة أسكنها المولى في روح البشر، تُطفئها العادة، ويضيء جذوتها الطموح. ولا شك أن عقيدة الحياة البعدية تطمس الطموح، بتجميد الطبقات التي ترسم المجتمع، وتطفئ الرغبة في البحث بكثرة المحرمات، ولكن الرغبة في البحث صفة أصيلة في الإنسان، لا بد أن تبزغ ذات يومٍ في قلوب المبدعين من أبناء الفردوس، دونما توقع أو انتظار».

* * **ملاحظة:** اشتريت كذلك من دكان التاجر النورالجي نعلًا بديعة لم أرَ مثيلًا لها، ولا أتصورها تناسب قدمي امرأة غير زوجتي الحبيبة أناهيا، ثم ابتلعها الموت قبل أن أُلبِسها النعليْن، فلم أضع رأسي عند النوم منذ ذلك الحين، إلا فوق النعليْن، وحُرِمْتُ منهما عندما أُدخِلتُ السجن.

شابي والقرار الصعب

هييه أيها المولى..

سبوح أنت في عليائك، قدوس في صفاتك..

هييه أيها المولى..

تنير لعبادك الطريق وترشد خُدّام معبدك لما فيه رضاك..

مولاي.. عبدك وخادم معبدك يتضرع إليك باكيًا مستجديًا، فهل في بكائه أمل في النجاة؟ لا أعرف إن كان ما أنا مقدمٌ عليه عصيانًا لأوامرك أم تقربًا لنيل رضاك. لم أقف موقفًا كهذا قط، لا أرى فيه علامات مرضاتك تضيء لي السبيل، ولا أقدر على اللجوء لكهنة معبدك المباركين أسألهم الإرشاد..

تيها تُصر على الرحيل.. تزعم أنها رأت من الإشارات ما يوحي بأن في رحيلها رضاك. تيها، يا مولاي العليّ، خادمة معبدك التي صورتها كأجمل ما تكون نساء الفردوس، تفضلًا منك يا مولاي ومحبة.. قلبي

لا يزال على يقينه أنك راضٍ عنها ومحب لها، مهما أتت من أفعال لا يعيها العقل.. هي عصفورة الفردوس ودُرَّتها الفريدة، خادمة المعبد وحاملة دواوينه. إن تكن راضيًا يا مولاي عمَّا تدفعني هي نحوه، فاكتب لها في النجاة.. وإن تكن غير ذلك فـ... فـ...

فرِّغ من قلبي حبها الآن! الآن أيها المولى العطوف، كي لا تُفسِد بجنونها ما بيني وبينك، كما أفسدَت ما بيني وبينها.

أدركني مولاي برحمتك!!

***

فكرتُ وتدبرتُ في الأمر مليًّا حتى عقدتُ عزمي أن أحقق لتيها ما تصبو إليه.. لا بد لي أن أقوم بذلك، وإلا فمصيرها الإبعاد لا محالة.. استُبْعِد سيدها الكاهن ماهيزو، واستُبْعِد من ورائه بنتو وميلز، زميلاها وأقرب أصدقائها. حتى أقرب أقربائها إيماهو، لم ينقذه من الإبعاد إلا رحمة من السماء تنزلت عليه في اللحظات الأخيرة. كل ذلك كفيل بأن يحملهم على استصدار قرار احترازي بإبعادها، كما يُفعل بالنساء عند استبعاد أزواجهن وذويهن المقربين. فما بالها إن أتت بأفعال جنونية مهووسة كالتي تراودها كل حين؟! كأن تفتش في حافظة الكتب عن بقايا الكاهن ماهيزو وأوراقه المفقودة، التي لا أشك في أنها في مكان ما بداخل المعبد!!

لن أكون قادرًا على حمايتها بعد الآن، لا أنا ولا غيري، وهي تندفع نحو الجنون كالمُلقى من أعلى جبل..

هل صحيح أن الأطياف الشريرة تسللت إلى الفردوس وأخذت في إثارة غبار الفتنة والجنون بين جنباتها؟!

***

ذهبتُ إلى المعبد الكبير، واستأذنت في لقاء المبجل ساليزو، كبير المدونين. فاتحته في أمر يابيتو، الخادم المقرب للكاهن المُبْعَد ماهيزو. تجهمتْ قسماته لذكري الكاهن ماهيزو، وسألني بريبة عمَّا يهمني في ذلك الأمر، لكنني بادرته بإجابة شافية كنتُ قد أعددتها من أجل هذه اللحظة:

- سيدي، أنا طوع أمركم النافذ، وأسير إرشادكم المبارك.. ولكنني، سيدي المبجل، ولأول مرة في تاريخ عائلة بتاتشي، أبعث ببضائع عينية مع أسطول المعبد المبارك، وأرجو من السماء أن تُنعم عليَّ بنجاح المقصد وإثبات الذات بين كبار التجار، حتى أستعين بهما على المزيد من خدمة معبدكم المبارك.

- نعم، سمعت بذلك شابي.

- سبق علمكم سيدي.. أنا في حاجة إلى خادم أسفار مدربٍ، يقوم على بضاعتي، ويحيطها بما تستلزمه من عناية وترتيب، حتى يتحقق لي مراد المولى العطوف.

سألني بدهاء السنين مبطنًا في نبرته الأبوية:

- ولماذا يابيتو، شابي؟

عاجلته بإجابة محسوبة، سابقة الإعداد:

لا أحد غيره، سيدي المبجل.. الوقت ضيق، وخدم الأسفار جميعهم مقيدون في قوائم السفر والخدمة على متن سفن البضائع وسفن الكهان المبجلين على السواء. لن أجد خادمًا ذا خبرة في السفر خارج قوائم خدمة الأسفار.. وسوف أضطر إلى إرسال خادم من خدمي عديمي الخبرة في السفر، فإما أن تصادف مهمته نجاحًا محدودًا، وإما أن يصاب بالدوار والرعب من هول ما قد يلاقيه أسطول المعبد، سيدي!

- ألا تعلم شابي أنه ليس بإمكانك أن ترسل خادمًا من خدمك مع الأسطول؟ لا يُسمَح بالسفر إلا لخدم الأسفار الموثوقين، وليس أمامك إلا أن تُعَين خادم أسفار مقيدًا، أو أن توصي أحدهم بمراعاة حاجياتك بالإضافة إلى المهام الموكلة إليه بالأساس..

- هييه، سيدي! لم أسمع بذلك من قبلُ!! اعذروني سيدي؛ فهذه أولى تجاربي في تجارة الأسفار..

إذًا، سيدي.. ربما ترَون أنه من عظيم هبات السماء على خادمكم المخلص شابي أن جاء أمر إبعاد الكاهن المارق ذاك قبل رحلة المعبد، حتى يفرغ خادمه السابق يابيتو لمراعاة بضائع بتاتشي والقيام على شؤونها أثناء الرحلة المقبلة..

- سوف ننظر في هذا الطلب، شابي.

عاجلته ثانية حتى لا يُعلِّق الأمر لمزيد من التمحيص والشك:

- أنا أعرف يابيتو منذ زمن، سيدي المبجل، ربما من قبل أن يُلحَق بخدمة الكاهن المارق.. أعرفه جيدًا وأثق في نقاء سريرته وإخلاصه لعقيدة الحياة البعدية وأوامر المعبد. يستحيل أن يكون الكاهن المارق ذاك قد لوَّث نفس يابيتو النقية الساذجة، ولو بعبارة واحدة.. أنا على يقين من ذلك، وأرجو أن يثق المبجل ساليزو في حكم خادم معبده شابي.

- لا شيء يخفى عن علمنا، شابي. نحن أعلم بالخادم يابيتو، وسوف ننظر في أمره قريبًا.

- هل لديك طلبٌ آخر، شابي؟

- سيدي المبجل.. أطمع في إذنكم باستخدام الخادم يابيتو من الآن. أسطول المعبد المبارك يتأهب لبدء رحلته بعد يومين على الأكثر!

- طلبك مجاب شابي..

***

كانت تلك هي الخطوة الأولى والأهم..

يابيتو هو مفتاح الحل لمعضلة تيها.

سيتولى يابيتو مسؤولية البضائع التي تخص بتاتشي. سيعترض على موضعها، أيًا ما كان ذلك الموضع الذي اختير لها، بحجة أنه لا يتناسب مع هذا الصنف الجديد من البضائع، وسينجح في ذلك على الأرجح لما له من مكانة بين خدم الأسفار. ما ننشده سيكون موضعًا مستقلًا، يجاور البضائع التي لا تحتاج متابعة على الإطلاق، كالأخشاب والجلود، على أن يكون المكان حسن التهوية، قليل الرطوبة، به فسحة لمبيت يابيتو بجوار البضائع، بحجة أنها سهلة التلف إذا لامسها الماء، وأنها المرة الأولى التي يُبعث فيها بمثل هذه البضاعة مع أسطول المعبد.

بعد أن ينجز يابيتو هذه الخطوة، وقبل أن يتحرك الأسطول بيوم، يقوم يابيتو بمراجعة البضائع بعدما استقرت الصناديق في موضعها الجديد، ثم يصنع جلبة كبرى مفادها أن أحد الصناديق الكبيرة قد ناله شيء من التلف في موضعه الأول، وأن النبيل شابي ربما ينال من جميع من شاركوا في وضع صناديقه في ذلك الموضع الأول. ثم يذهب بالصندوق الذي أثار هذه الأزمة، ويعود إليهم عند المساء، فيُطَمئنهم إلى أنه قد استبدل الصندوق والبضائع معًا، من مباشر مخزن النبيل شابي، دون أن يذيع أيهما الأمر.

عندها، يستقر الصندوق الذي يحمل تيها الحبيبة على قمة الصناديق الأخرى، تحت عناية يابيتو الذي اعتاد ألا يخالط الآخرين كثيرًا، حتى قبل أن يلتحق بالمعلم ماهيزو، خاصة أن المكان سيكون جيد التهوية، وبه فسحة لنومه وراحته، وسيقول للجميع إنه سيلزم المكان لأنه غير مستعد لتكرار مشكلة كهذه مع بقية الصناديق.

ستكون ثمة فرصة بالتأكيد للحبيبة تيها كي تحرك جسدها الرهيف أثناء فترات الراحة والنوم. سيراقب يابيتو الموقف، وسيوكلها كل حنانه وقوته بلا ريب. وعندما يرسو الأسطول عند مستقره الأول عند بلدة نورال، سيُنزِل يابيتو الصناديق المخصصة للمقايضة في هذه البلدة، وسيكون الصندوق الذي يحمل تيها بينها بالطبع.. ومع أقرب فرصة سانحة، ستخرج تيها الحبيبة إلى العالم الذي اختارته، بعدما أرتها السماءُ في شأنه عدَّة إشارات صدَّقَتها ورحلت من أجلها، وستحمل معها الدراهم الذهبية التي استودعتها يابيتو كي تعينها على المعيشة والترحال، حتى تتفتح أمامها السبل، بعد أن تحتجب عن سوق البلدة ليوميْن، حتى يقلع أسطول المعبد مُستكملًا رحلته.

ستكون رحلة خطرة، قاسية بلا ريب يا حبيبة عمري وأيامي.. ولكن حسبي أن حاولتُ قدر ما أستطيع أن أُعينَكِ عليها، بعدما عجزتُ مرارًا أن أثنيكِ عنها!

هييه أيها المولى..

لا تفجعني في حبيبتي تيها..

أرجوك!!

* * *

ابتلع البحرُ شمسَ لاجوزي الحارقة، فانطفأ القيظ، ولحق به الضوء، أو كاد..

لا تشهد الفردوس قيظًا كهذا، إلا مع حلول شهر لاجوزي المُستعر، الذي تُستهل خلاله رحلة المعبد الثانية..

كان عليَّ الإسراع ببلوغ مخزن البضائع كي أودِّع تيها، قبل أن يحملها يابيتو إلى السفينة.. لا أصدق أني أفعل كل ذلك كي أخسرها نهاية الأمر! ولكن الخيارات تقلصت عندي، حتى انصهرت في خيار واحد.. لا بديل له.

تركتُ المحمل عند البيت، وترجلتُ خفية، قاصدًا السوق البيضاء من دروبها الخلفية.. دنوتُ من المخزن، فوجدته غير مضاء من الداخل.. شكرتُ يابيتو في نفسي، واطمأننتُ لحسن تصرفه، حتى في الأمور التي فاتني أن أشير إليها.. دلفتُ إلى المخزن، فرأيتُ أول ما رأيت ذلك الصندوق، الذي جهَّزتُهُ بنفسي لكي يحمل حبيبتي.. كنتُ قد بطَّنته برداءين كانت تيها تسعد لرؤيتي أرتديهما، لنعومة ملمسهما ولونهما الذي يبهج قلبها، فوق طبقة وثيرة من ريش الإوز، أرجو أن تحمي عظامها الليِّنة من قسوة النوم لمدة لا أعلمها.. ظننتُ أنها نامت بالفعل بداخل الصندوق، فاتجهتُ صوبه كي أفتحه، فإذا بها تنقر بأصابعها فوق كتفي، بتحنان بالغ!

التفتُّ صوبها، فإذا بصوتي يتهدَّج وعينيَّ تذرفان رغمًا عني:

- لا أتصور حياة الفردوس من دونكِ تيها.. أي فردوس هذه؟!

- سأكون معك حبيبي، وستكون معي.. إن شئت.. أغمض عينيْك وابسط يديْك وأنت ممدَّد فوق صخور بيروتشي، وستجدني ممددة إلى جوارك بكل كياني..

- لن أضم يديْك بعد الآن؟!

- يداي منطبعتان على باطن كفيْك.. وبين أناملك.. ربما لا تشعر بهما لوجودي معك، ولكنني حينما أرحل ستشعر بهما بالتأكيد..

ما عدتُ أصدق ما تقول تيها.. تمسكتُ بآخر أمل لي في حياة الفردوس.. أن تعود تيها يومًا إليها.. فأفرغت ما في قلبي:

- عِديني أن ترجعي يومًا تيها.. يومًا قريبًا.. مهما كلفنا ذلك!

صمتت برهة، تجاهد كي تحتفظ بابتسامتها الحانية، ثم أردفت:

- كيف ستتستَّر على أمر اختفائي؟

- لا تشغلي بالكِ بشيء، طالما انزويْتِ داخل منزلكِ منذ مدة، ولم يشعر بكِ أحد.. كل ما في الأمر أن يطمئن أهلكِ ومحبوكِ على سلامتكِ، فلا يثيرون لغطًا ينفضح به الأمر. وستكون هذه مهمة إيماهو.

- إيماهو؟!

- نعم إيماهو.. لقد أرسلت يابيتو إليه البارحة كي يخبره بأنكِ اتخذتِ قرارًا بالرحيل عن الفردوس، مع رحلة المعبد الحالية.. وأنكِ ستكونين في أمانٍ تام، تحت رعاية أحد النبلاء البارزين، الذي تطوع

بتأمين رحيلكِ وحياتكِ المقبلة، على ألا يُفصِح أحد عن اسمه.. وأنه - أي يابيتو - قد اختار إيماهو حتى يتكفل بإبلاغ الأمر للعائلة، حتى يبقى سرًّا إلى أن تشاء السماء..

جذبَت يدي إليها، ولم تكن قد فعلت ذلك منذ مدة لا أذكرها، وأردفَت:

- ألا تخاف على نفسِك، شابي؟

لا يجتمع في القلب خوفان تيها، فما بالكِ بثلاثة؟! أنا خائفٌ لأجلكِ أنتِ.. وخائفٌ من الحياة من دونكِ في الأيام المقبلة.. فلن يحتمل قلبي مزيدًا من الخوف.. عليكِ أن ترقدي الآن في الصندوق كي يحملك المحمل إلى السفينة. الصندوق له قاع خفِيٌّ، مرتفع عن الأرض بمسافة جيدة، وفي قاعه الكثير من الثقوب، فلن تضيقي بهوائه حتى يفتحه يابيتو في أقرب فرصة..

رفعَتْ يدي كي تلثمها، فجذبتُ أنا يدها لاثمًا، وصوتها الحريري يطبِّب جرح قلبي:

- أشكرك حبيبي.. أشكرك أن فعلتَ كل ذلك من أجلي.

تمالكتُ نفسي قدر ما استطعت، مُشيحًا وجهي عن يابيتو الذي بادر في نوبة بكاءٍ صامت، ثم قلت:

- أرجو ألا تلاقي يومًا شقيًّا واحدًا بعد اليوم تيها.. أسأل السماء لكِ السعادة وهناء البال، كما أسألها لي الصبر على فراقكِ.

نظرتُ إلى الكائن الذي لا يكاد يستقر فوق كتفيها ولا يديْها، وأردفت:

- أواثقة أن السنجاب لن يصدر صوتًا أو يسبب لكِ المتاعب؟

- نعم حبيبي، اطمئن.. تابتابو صديقٌ هادئ، لا يصدر صوتًا على الإطلاق، ولا يتحرك كذلك إلا عندما أُهمل مداعبته مثلما فعلتُ الآن.. سأودِعه مع يابيتو إن ضقتُ به..

وبعد برهة قالت:

- ألا تسألني عن هذه الأوراق التي حملتها معي؟

- لا أريد أن أسأل.. قد يفسد الفهم حياتي كما قلتِ لي من قبل.. لا أسألكِ إلا أن تعودي إليَّ ثانية، فلن أقوى على فراقكِ طويلًا..

سأرسل يابيتو في كل رحلة للمعبد. وسيضع لكِ أثرًا في الموضع ذاته الذي سيتركك فيه. فإن لم يجِده صبيحة اليوم التالي، سيفهم أنكِ ترغبين في الرجوع. عندها، سيتكفَّل هو بالباقي.. لا تنسي هذا الأمر مطلقًا، وترقبي وصول رحلة المعبد في كل مرة، كي تبعثي إليَّ بالرسائل.. يتوقف الأسطول عند نورال مرتين في كل رحلة، ذهابًا وإيابًا، فلكِ أن تبعثي لي بما شئتِ، ولكِ أن تعودي وقتما ترغبين، وسأكون في انتظاركِ دائمًا..

- أحبك، شابي!

قالتها وقد تهدج صوتها، وسالت الدموع على وجنتيْها الملساويْن..

لم أعد أحتمل مزيدًا من الأسى، فقلت لها متوسلًا:

- لا تبكي تيها.. أرجوكِ! لقد طاوعتكِ حتى الآن أملًا في أن تعرفَ البسمة السبيل لعينيْكِ من جديد.. لا أملك أن أتحمل مزيدًا من هذه الدموع!

- أمرك نافذ حبيبي..

- أحبكِ تيها...

- وأنا كذلك أحبك، أكثر من أي وقتٍ مضى..

- عديني أن ترجعي..

- أعدك شابي.. أعدك أن أعود يومًا من أجلك، ومن أجل أن أدخل المعبد من بواباته الخفية.. هكذا تمنى لي المعلم من قبل..

لم أفهم، ولم أُرِد الفهم.. وقفتُ ذاهلًا، أرقب السنجاب بلا وعي، لا أصدق أني سأفقدها بلا أمل في اللقاء.. حتى قالت:

- ألا تود أن تضم يدي مرة أخيرة حتى نلتقي يومًا؟

ذرفتُ دمعًا سخينًا رغمًا عني، وأنا أقول بنبرة هدَّجها الألم:

- أحبكِ تيها.. وسأفتقدكِ كثيرًا.

- أغمض عينيْك الآن شابي.. وأنا بين راحتيْك.. اطبع هذه اللحظة على يديْك، وفي خيالك.. ستجمعنا الحياة من جديد حبيبي.. ستكون حينها حياة أفضل من هذه بكثير.

- نعم حبيبتي، نعم.. هيا ارقدي.. ليتني كنتُ مكانك الآن، تابتابو.. هيا ادخل هنا، وتوقف عن الحركة إلى حين..

يابيتو!

- أمركم سيدي!

- هَلُمَّ يابيتو، احمل الصندوق فوق المحمل. عِدْني يابيتو ألا تتركه لحظة! مهما كلفك الأمر!!

- أعدكم، سيدي..

***

اهدأ بحر بيروتشي، أرجوك..

طالما أخافتني سيرتك، واستغلقت عليَّ سريرتك..

ولكنني اليوم لا أملك إلا أن أرجوك، وأرجو منك أن يصدقَ ظنُّ تيها فيك..

احمل حبيبتي على هَونِك، وارفق بها..

احبس أطيافك عنها، ثم احملها عائدة مع موجك، وقتما يحين اللقاء.

تمت

شكر وعرفان

لـمن دعَّمني وأرشدني من كبار الكتاب..

علاء الديب

هشام الخشن

أحمد مراد

حسن كمال

لـمن يعطونني بلا حدود، وقبل أن أطلب..

أبويّ، وزوجتي، وأخواتي، وسائر أفراد عائلتي

نرمين رشاد

حسام الفرة

ولـمن شاركني الطريق فأناره أمامي، من أصدقائي الكتاب..

للتواصل مع المؤلف:

www.facebook.com/pages/Ahmed Al-Qarmalawi

هذه الرواية تجذبك إلى عالم مُوازٍ؛ عالم الفردوس وسكانه، الذين يعتقدون أنهم يعيشون في فردوس السماء، حيث قصة حبٍّ لا تباركها تقاليد المعبد، والمجتمع الطبقيّ، وكاهن تدفعُهُ الشكوك لمواجهةٍ حاسمةٍ مع ما يؤمن به الناس، قد تعصف بكلِّ شيء!

هناك نوعان من الإصرار والدأب نعرفهما في حياتنا الأدبية، الأول: إصرار ودأب على الوجود والانتشار، والآخر: إصرار ودأب على معاناة فن التعبير وتحسين نوعية الإنتاج الأدبي الفني، و«القرملاوي» يتمسك بالنوع الثاني، وينجح في تحقيق بعض منه.

علاء الديب



أحمد القرملاوي كاتب ومهندس معماري مصري، من مواليد القاهرة عام 1978. تخرج في كلية هندسة التشييد في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وحصل على درجة الماجستير من جامعة إدنبرا، أسكتلندا. يكتب الرواية والقصة والشعر، وصدرت له المجموعة القصصية "أول عباس" في يناير 2013.





تشتراه عبر موقعنا
store.almasriah.com

الدار المصرية اللبنانية